أسست عام ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م

الوعي الإسلامي

AL-Waei AL-islami
مجلة كويتية شهرية جامعة

العدد (٥٨٦) جمادى الآخرة ١٤٣٥ هـ - أبريل ٢٠١٤م

50 عاماً من العطاء

الحرية والبناء الحضاري

العدل ومكانة الإنسان في الإسلام

أثر مباحث الحديث في العلوم الأخرى

منهجية العمل الخيري عند السميط

جائزة البوكر.. دماء زرقاء في عروق الثقافة العربية

دور المرأة المسلمة في التنوير

مجانا مع العدد «براعم الإيمان»

الافتتاحية

حرية أم فوضى

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

خلق الله الإنسان وعلمه البيان، ووهب له العقل ليعقل عن ربه ما شرعه وأبان، وجعله متميزا بالتكليف والأمانة، والحرية والكرامة.. وإن كرامة الإنسان وحريته هما أعز مقومات وجوده، بل مصدر قوته وعزته وافتخاره، فالإنسان هو ذلك المخلوق المكرّم على سائر المخلوقات، وقد شرفه الله بالخلافة على هذه الأرض.

ولقد جاء الإسلام ليقرر الحقوق والحريات، وكفلها للجميع بدون تمييز. وهي حقوق ثابتة لا غنى عنها، وميزتها أنها منح إلهية. والحرية من صميم الحياة الإنسانية، وقد حفظها الإسلام لكل فرد، على أن لا يَمسّ حقوق الآخرين، أو يخل بقانون النظام العام، لأن الحرية في الأصل ليست مطلقة، وإنما هي قدرة الفرد على ممارسة أي عمل لا يضر الآخرين، فهي مقيدة.

والحرية أنواع، حرية الاعتقاد والفكر والقول والرأي والتملك والاجتماع.

فالإنسان في نظر الإسلام سيد هذا الكون، والمخلوق المدلل المخدوم ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان:٢٠). وإن الحريات المقررة هي الضمان لاستقرار الدين ونمائه وازدهاره، وفي نفس الوقت الذي أطلق فيه الإسلام حرية الفكر قيَّد حرية الشهوة، ووضع لها الضوابط، وراقب سير الغرائز، وأقام لها الحدود والتكاليف.

وإن العالم إذا كان قد أصابه خير فمن حرية العقل والنظر، وإذا كان قد مسه ضرّ فمن حرية الهوى والعبث، ولا يجوز أن نخلط بين الحريتين، فعلى دعاة الحرية أن يفرقوا بين الأمرين، وأن يميزوا بين المنهجين.

ولكن الحرية التي ينادي بها المعتدلون، ويكرهها المعتدون، هي حرية النقد البناء، وحرية النصح والتقويم، وحرية مقاومة الحجة بالحجة، لا الاضطهاد والاعتداء والتشويه والقمع، فالحرية صدى الفطرة ومعنى الحياة، والإنسان يشعر بأن كل ذرة من كيانه تنشدها وتهفو إليها، وكما برأ الخالق الحكيم لكل جارحة أو حاسة وظيفتها التي تعتبر امتدادا لوجودها، خلق الإنسان ليُعَزّ لا ليذل، ويكرم لا ليهان، وليفكر بعقله ويهوى بقلبه.. فقد خلق الله الإنسان، وسخر له الكون، ليكون خليفة الله في الأرض.. فالإنسان الحر حقا: هو الشخص الذي تتجلى فيه المعاني الإنسانية العالية، التي يعلو بها عن سفساف الأمور ويتجه إلى معاليها، ويضبط نفسه، فلا تنطلق أهواؤه، ولا يكون عبدا لشهواته.

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي
العدد ٥٨٦ | جمادى الآخرة ١٤٣٥ هـ
العام الواحد والخمسون
ابريل ٢٠١٤ م

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

سكرتير التحرير
سليمان خالد الرومي

التحرير
عبادة السيد نوح

الإخراج والجرافيك
أبورواش زكي محمد
يحيى بوم

الإشراف الفني
الشركة العصرية
للطباعة والنشر والتوزيع

المراسلات
رئيس التحرير – مجلة الوعي الإسلامي
صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧ ـ
الكويت – هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ – ٢٢٤٧٠١٥٦
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي ٣٠٦ – ٣٠١
البريد الالكتروني:
info@alwaei.com
الموقع الالكتروني:
www.alwaei.gov.kw
مكتب مصر : دار الإعلام العربية–٤٣ شارع دجلة – متفرع من شارع جامعة الدول العربية – المهندسين – الدور الأول – مكتب ١٠٤
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٤٠٤٣
alwaei@arabmediahouse.net

المجلة غير ملزمة
بإعادة أي مادة تتلقاها للنشر.
والمقالات لا تعبر بالضرورة
عن رأي المجلة.

في هذا العدد

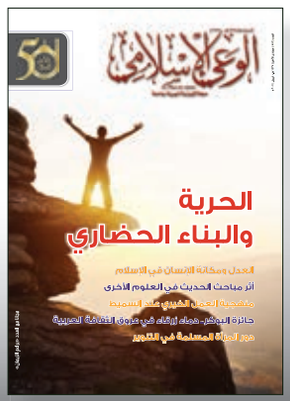

الإنسان الحر هو المسؤول عن أفعاله والمجتمع الحر هو المحافظ على أفراده ولا حرية بدون ضوابط، ولا التزام بدون حرية.

١٨
الإسلاميون وامتحان الدولة

٤٨
مكتبة بايزيد في إسطنبول

٦٦
بيوت الحكمة

٧٨
التنوع الإسلامي في الغرب وإشكالية المرجعية الدينية

التوزيع وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع هاتف: ٢٤٩١٥١٠٦- ٢٤٩١٥١٠٧ (٠٠٩٦٥) – فاكس : ٢٤٩١٥١٠٩ (٠٠٩٦٥)

- مصر – القاهرة – شارع الصحافة – جريدة أخبار اليوم. – ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤-(٠٠٢٠٢)
- اليمن – صنعاء – الدار العربية للنشر والتوزيع ت – ف: ٣٣١٧٩٧ (٠٠٩٦٧)
- لبنان – شركة نعنوع الصحفية – ت: ٦٥٣٢٥٩(٠٠٩٦١١) ف: ٦٥٣٢٦٠
- سوريا – دمشق – برامكة – ص.ب ١٢٠٣٥ – ت: ٢١٢٤٨٣١ (٠٠٩٦٣ ١١) ف: ٢١٢٨٦٦٤ – المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن – عمان – شركة وكالة التوزيع الأردنية – ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ – ت: ٤٦٣٠١٩١(٠٠٩٦٢٦) ف: ٥٣٣٧٧٣٣
- المغرب – الدار البيضاء – ص.ب ١٣٦٨٣ – ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس – ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ – الشركة الشريفية
- مملكة البحرين – المنامة – ص.ب ٣٢٦٢ – ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ – مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة – ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ – شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
- المملكة العربية السعودية – الرياض – ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ – ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ – الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
- سلطنة عُمان – مسقط – ص.ب ٤٧٣ العذيبة . رمز بريدي ١٣٠ – ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ – مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر – الدوحة – ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
- ماليزيا– شركة – المصطفى ميديا جروب سندرين برحد – ت– ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
- الجزائر – شركة ام بي سي ت: ٣١٩٠٩٥٩٠(٠٠٢١٣)
- تونس – الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
- المملكة المتحدة – لندن – شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار

●الكويت : ٥٠٠ فلس ●السعودية: ٥ ريالات ● البحرين : ٥٠٠ فلس ● قطر : ٥ ريالات ● الإمارات : ٥ درهم ● سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة ●الأردن:دينار واحد ● مصر : ٢ جنيه ●اليمن : ١٠٠ ريال ●لبنان: ٢٠٠٠ ليرة ● سوريا: ٣٠ ليرة ● المغرب : ١٠دراهم ● الجزائر: ٤ دينار جزائري ●تونس: دينار واحد تونسي ● المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني ● باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها.

الوعي الإسلامي
مجلة كويتية شهرية جامعة

المحتويات

٣	الافتتاحية/ حرية أم فوضى	فيصل يوسف العلي
٦	قيم/ العدل ومكانة الإنسان في الإسلام	يسري عبدالغني
٩	حوار/ مدير مؤسسة جسور للتعريف بالإسلام فاضل سليمان	حسن يسري
١٤	مفاهيم/ المواطنة من المنظور الإسلامي	رسمي عجلان
١٦	أخلاق/ خلف أسوار الخطأ	د. محمد علي يوسف
١٨	فعاليات/ الإسلاميون وامتحان الدولة	التحرير
٢٠	ملف العدد/ الحرية والبناء الحضاري	السنوسي محمد
٢٤	ملف العدد/ الحرية الشخصية فطرية أم متعلمة؟	د. آندي حجازي
٢٧	ملف العدد/ تحرير المرأة في عصر الرسالة	التحرير
٢٨	ملف العدد/ مغالطات في الحرية بين الغرب والإسلام	محمد إلهامي
٣٠	ملف العدد/ الحرية في العالم العربي بين التحذير والانطلاق	نشوة صالح
٣٢	ملف العدد/ الحرية: مدخل إلى الخريطة المفاهيمية	د. هبة رءوف عزت
٣٥	تراث/ منظومة مخارج الحروف للديريني	صالح عبدالخالق
٣٦	دراسات/ أثر مباحث الحديث في العلوم الأخرى	رياض العيسى
٣٨	دراسات/ الحقائق الشرعية حول السدرة	د. رضا رضوان
٤١	دراسات/ دراسة الجدوى	محمود زويل
٤٤	قضايا/ منهجية العمل الخيري عند الدكتور عبدالرحمن السميط	صلاح توقه
٤٨	استطلاع/ مكتبة بايزيد في إسطنبول	التحرير
٥٠	حوار/ رئيس الاتحاد الدولي لحوار الثقافات د. علي السمان	إسلام لطفي
٥٢	لغة وأدب/ القول المأثور في الصواب المهجور (٢٠)	عبدالله أيت الأعشير
٥٤	لغة وأدب/ جائزة البوكر.. دماء زرقاء في عروق الثقافة العربية	محمد أبوالسعود
٥٦	لغة وأدب/ رؤية الزمان والمكان في الرواية الإسلامية المعاصرة	عبداللطيف خروبة
٥٩	لغة وأدب/ مقام البداية والختام	محمد عباس
٦٠	لغة وأدب/ البوابة الكبيرة	مياسة النخلاني
٦٢	لغة وأدب/ في المفاضلة بين الشعر والنثر	إبراهيم نويري
٦٤	فكر/ مسارات الإصلاح	أحمد عبدالجواد زايدة
٦٦	ثقافة/ بيوت الحكمة	هند محفوظ
٦٨	قرآن/ السرد القصصي في القرآن	حسين المحمد
٦٩	أسرة/ دور المرأة المسلمة في التنوير	د. الجيلاني سبيع
٧٢	أسرة/ القراءة في الأسرة	محمد شعطيط
٧٤	أسرة/ من معالم المدرسة النبوية في تعليم الأطفال	محمد شعبان
٧٦	أسرة/ إرشادات في تربية البنات	د. خالد النجار
٧٨	فكر/ التنوع الإسلامي في الغرب وإشكالية المرجعية الدينية	د. حسن عزوزي
٨١	تنمية/ صياغة الاستراتيجية التنموية	هواري عبدالقادر
٨٢	تاريخ/ مدخل إلى دراسة تاريخ الصحابة	د. أحمد الشال
٨٥	خواطر/ اجعل لكتابك عيدا	د. يوسف الحزيمري
٨٦	علوم/ الشعير غذاء ودواء وبركة	د. درويش الشافعي
٩٠	فتاوى الوعي	د. محمود الكبش
٩٢	كتب عربية علمت الإنسانية	خالد خلاوي
٩٤	بريد القراء	علاء عبدالفتاح
٩٦	ينابيع المعرفة	تركي النصر
٩٨	مسك الختام/ الإسلام والغرب.. استمرارية التفاعل والصراع	محمد فتحي النادي

كلمة العدد

الحرية

الحرية ثمرة الحياة وتاج السعادة، وزهرة هذا الوجود، بها يكون الإنسان إنسانا.. فإذا فقدها فهو والحيوان سواء، تسخره القوة، وتلعب به الأهواء، ولا يعرف اللهَ غيرُ حر.

فالموحدون هم الأحرار، وإن شئت فقل، إن الأحرار هم الموحدون، فالحرية هي التحلل من قيود الرق البشري، وتمزيق لفائف العبودية لغير الله الواحد الأحد.

على ضوء هذا يجب أن تفهم الحرية البريئة الصحيحة، ولكن بعض الناس أخطأوا فهم الحرية واختلط عليهم الأمر، فناقضوا الحق مناقضة صريحة.. فهموا الحرية على أنها تحلل من قيود الأدب، وتجاوز لحدود الفضيلة.

فهذه امرأة سافرة، كشفت عن ساقيها وذراعيها، وتبرعت للناس بعرض جمالها، وغشيت محافل الرقص؛ طروبة خليعة، رغم أنف الآباء والأزواج، لأنها تتحصن بالحرية المكفولة للأفراد والجماعات في ظل القوانين الوضعية، وهذا شاب مائع يقامر بماله، ويغامر بدينه، فالحرية عنده يحدها شمالا هتك الأعراض و إباحة الفساد، وجنوبا الاستهتار بالدين والاعتقاد بأن التمسك به تأخر وجمود، وشرقا بالخنوثة والإلحاد والطيش، وغربا تقليد الغرب فيما يضر من إباحية واستهتار، وترك ما ينفع من حب الوطن وإعداد السواعد القوية السليمة، والعدة الدفاعية.

وهذا شيخ جرب بالتجارب فخرج من مدرسة الحياة الطويلة بارعا في النفاق والغش، يستطيع أن يحيك الإجرام محبوك الطرفين بخيوط الدهاء، مدهونة بصبغة الكذب واللؤم، وذاك عالم قعد به الكسل، واستمرأ الدعة، فقال، عليك نفسك والزم بيتك، فترك الجهاد وأهمل واجبه نحو المجتمع، وقل ذلك عن التاجر الجشع، والصانع الغشاش، والسياسي المتلون، والغني البطر، والفقير المتلصص.

والعبودية المطلقة لله تعالى لا تتحقق إلا بالتزام ما سن القرآن من آداب، وما شرع من حدود في المال والعرض والدم والمعاملة، وبذلك فقط تسعد البشرية، وتسمو الأمة، وينتظم تشريعها وتتحقق العدالة الصحيحة للفرد والجماعة.

الشيخ محمد الخطيب
مفتي الكرك بالأردن سابقا
العدد ٢٣ - الوعي الإسلامي

الاشتراكات
• داخل الكويت : للأفراد ٧,٥ دنانير - للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا
• دول العالم : للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
• الدول العربية : للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).
• للمؤسسات: ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)

العدل ومكانة الإنسان في الإسلام

يسري عبدالغني عبدالله
باحث وخبير في التراث الثقافي

يقوم العدل في المجتمع الإسلامي على أساس نظرة الإسلام للإنسان، فالإنسان في الإسلام يحظى بمكانة كبرى من ثلاث نواح: فقد كرمه الله عز وجل، واستخلفه في الأرض، وحمله الأمانة (١).

وقد شرح بعض العلماء الأجلاء آية ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ (الإسراء:٧٠) بقولهم: هذه القاعدة هي التي أقيمت عليها حقوق الإنسان في هذا العصر، هذه الفكرة أساسية في الشريعة الإسلامية ودراساتها، وأن المصالح والمنافع والرخص والمباحات التي تضمنتها نصوص الشريعة لصالح الفرد والمجتمع، ووجهت إلى رعايتها وحمايتها، يسوغ أن تسمى بتعبيرات العصر حقوقا للإنسان (٢).

ويلاحظ في الآيات القرآنية العديدة التي تمجد الإنسان وتعلي مرتبته فوق كل المخلوقات، أنها تتناول الإنسان لذاته، لا لاعتقاده، ومن حيث هو تكوين بشري، وقبل أن يعتنق دينا معينا، وقبل أن يصبح أبيض أو أسود أو أصفر.. وليس صحيحا على الإطلاق أن تلك الحفاوة القرآنية من نصيب المسلمين دون غيرهم، كما يتصور البعض، ذلك أن النصوص القرآنية شديدة الوضوح في هذه النقطة بالذات، فهي تارة تتحدث عن «الإنسان»، وتارة تتحدث عن «بني آدم» ومرات أخرى توجه الحديث إلى «الناس»، وهذا التعميم لن تخفى دلالته على أي عقل منصف مدرك للغة الخطاب في القرآن الكريم التي تستخدم موازين للتعبير غاية في الدقة، فتبين متى يكون الخطاب للإنسان، والناس عامة، ومتى يوجه الكلام إلى المؤمنين والمسلمين قبل غيرهم (٣).

إن الإنسان في نظر الإسلام هو مخلوق الله المختار، الذي نفخ

فيه من روحه، وفضله على جميع المخلوقات، وليس للمسلم في هذه الزاوية أي أفضلية على غيره، وإنما هو إنسان شأن أي إنسان آخر (٤).

الإسلام يتعامل مع البشر جميعا باعتبارهم أسرة واحدة، أصلها واحد، وربها واحد، كذلك يعتبر الإسلام أن خير الناس أنفعهم للناس، وخير خلق الله أنفعهم لعباده، ولا تمايز بينهم ولا تمييز إلا بمقدار ما يمكن أن يقدموه لأنفسهم وللآخرين من خير.

الإسلام يساوي بين الناس جميعا:

هذه النظرة السامية للإنسان، لمجرد كونه إنسانا، وبغض النظر عن أية صفات أخرى فيه، تقود على الفور إلى تأكيد حقيقة ثابتة، وهي أن الإسلام يساوي بين الناس جميعا، فالتفرقة بين الناس -فيما هو دنيوي- حسب اعتقادهم أو جنسهم أو لونهم ليست من منهج الإسلام، فالناس جميعا، بنص القرآن الكريم، قد خلقوا من نفس واحدة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ (النساء:١)، ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾(لقمان: ٢٨).

وكان الرسول ﷺ يردد في دعائه في آخر الليل: «اللهم إني أشهد أنك أنت الله، لا إله إلا أنت، وأن العباد كلهم إخوة» (رواه أبوداود في سننه).

هذه المساواة بين الناس، التي أكدها الإسلام، لا تقتصر على كونها حقا للإنسان، بل تتجاوز ذلك إلى إدخالها في إطار الواجب، فحقوق الإنسان في الإسلام تعتبر من الضرورات الواجبة، بحيث يأثم من يفرط فيها، فهي الأساس الذي يستحيل قيام الدين بدون أن نوفرها للإنسان (٥).

لقد كان الإسلام وسيظل إلى أبد الدهر رسالة عالمية تخاطب الناس جميعا على أساس العدالة والمساواة، فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح، والناس سواسية عند الله تعالى، وإذا نظرنا إلى سلوك المسلمين في المجتمعات التي أقاموها في أنحاء العالم، لوجدنا أن سيرتهم -خاصة في عصور ازدهارهم- كانت نموذجا للتعايش والتآلف والتسامح، ورفض أي نوع من أنواع التفرقة والتمييز والتعصب، بل إن المجتمع الإسلامي سمح بالتعدد والتنوع حتى في داخله، كما هو ثابت من تنوع الرؤى الفلسفية والاجتهادات حسب اختلاف الظروف البيئية والخلفية الحضارية، فلم يفرض نمطا معينا في التفكير، ولم يحجر على حق الإنسان في التكيف مع الأوضاع السائدة في منطقة معينة دون أخرى.

إن الناس جميعا هم خلق الله سبحانه وتعالى، واختلافهم في الدين أمر من الأمور الطبيعية، بل هو من مقتضيات المشيئة الإلهية، وإنه من أوضح الأمور أن الدين الإسلامي الحنيف يدعو إلى أن تقوم العلاقات بين المسلمين وغيرهم على أسس إنسانية تحقق الخيرية والتعاون، وتثمر تحقيق المصالح المشتركة.

ولنضع في الاعتبار أنه ليس من مقاصد الإسلام الصراع بين الأديان، أو بين الحضارات والثقافات، وليس من قيمه أن يعادي المسلمون غير المسلمين، والنصوص القرآنية في ذلك المجال واضحة جلية لا تقبل التأويل أو الانحراف في التفسير، وعليه فإنه من الواجب علينا أن نعمل بكل ما نستطيع بهدف الحفاظ على الحقوق الإنسانية للآخرين، ماداموا غير معتدين، فلا نفترض علاقة عداء بيننا وبينهم لمجرد مخالفتهم في دينهم، فديننا الإسلامي بسماحته ورحابته وإنسانيته، أكد حرية العقيدة للجميع، وحثنا على أن نحسن التعامل مع الآخرين، ما داموا ملتزمين بالعهود والمواثيق، فكلنا في حق الحياة سواء.

إن جوهر الإسلام وتعاليمه السامية يقضيان باحترام النفس الإنسانية، وبالحفاظ الدائم والمستمر على التضامن بين أبناء الأمة الواحدة، وتوحيد صفوفهم، والكف عن الأذى والضرر، عملا بقول الرسول الكريم ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار»، وكل هذا يشكل مبدأ من أهم مبادئ الإسلام الحنيف، دين العدل والرحمة والمساواة واحترام الآخر.

إن رسالة النبي محمد ﷺ علمت المسلم أن غير المسلمين بالنسبة له ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: إما قوم لا يعيشون معنا في بلادنا، وإنما يعيشون في بلادهم ولا يسيئون إلينا، وإما قوم يسيئون إلينا بشتى ألوان الإساءة ويعلنون الحرب الظاهرة والخفية علينا وعلى أوطاننا، وإما قوم يعيشون معنا في بلادنا تظلنا سماء واحدة، وتقلنا أرض واحدة، وتجمعنا مصالح مشتركة، ونشرب من ماء واحد، هؤلاء تقول لنا شريعة الإسلام بالنسبة لهم: «لهم ما لنا، وعليهم ما علينا» (٦).

العدل قيمة مطلقة وليست نسبية:

العدل في الإسلام، قيمة مطلقة وليست نسبية، بمعنى أنها مفروضة على المسلم في كل الظروف، أي في مواجهة الأعداء كما هي مع الأهل والحلفاء، ولذلك كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أحد عماله يقول: «أما العدل فلا رخصة فيه من قريب أو بعيد، ولا في شدة ولا رخاء، والعدل وإن رُئي لينا، فهو أقوى وأطفأ للجور، وأقمع للباطل من الجور» (٧).

إن العدل من حيث جوهره ليس قاعدة من قواعد الإسلام فحسب، وإنما هو مثل أعلى من حقائق وقيم الإسلام الكريمة التي حض على تحقيقها وإشاعتها بين الناس في ثمان وعشرين آية من القرآن الكريم، فالعدل في عرف الإسلام فريضة واجبة، فرضها الله على جميع الناس دون استثناء، فالناس في شرع الإسلام متساوون جميعا

في الحقوق والواجبات، متساوون في تكوينهم وأصل خلقهم، فلم يخلق الله شعبا أو جماعة من طين أشرف من الطين الذي خلق منه شعبا آخر أو جماعة أخرى، وعليه فإن الإسلام هو صاحب الشريعة الوحيدة التي استطاعت أن تقر المساواة مبدأ نافذا بين الناس جميعا، وأحلت الانسجام بين القيمة وبين الواقع (٨).

قانون ابن تيمية الاجتماعي:

وضع شيخ الإسلام ابن تيمية الحراني، رحمه الله، قانونا اجتماعيا مهما، أقامه على العدل وهو: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة (٩).

وإن: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام (١٠).

وأن: العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت، وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق، ومتى لم تقم بعدل لم تقم، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة (١١).

ولعل هذا ما جعل السلف الصالح من قبل ينحازون إلى الكافر العادل دون المسلم الجائر، وذلك بقولهم: «إن المسلم الجائر إسلامه له، وجوره علينا، في حين أن الكافر العادل كفره عليه، وعدله لنا» (١٢).

التزام الحكام المسلمين بقواعد المساواة بين المسلمين وغيرهم:

لقد بهرني كثيرا ما سجله التاريخ الإنساني للحكام المسلمين من التزامهم بقواعد المساواة والعدالة بين المسلمين وغير المسلمين، سواء فيما يتعلق بإجراءات التقاضي، أو فيما يتعلق بالأحكام الموضوعية للقانون.

وفيما يتعلق بإجراءات التقاضي، يروى أن خصومة بين الإمام علي ابن أبي طالب رضي الله عنه ويهودي رفعت إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فنادى عمر عليا بقوله: قف يا أبا الحسن، فبدا الغضب على وجه علي، فقال عمر: أكرهت أن نسوي بينك وبين خصمك في مجلس القضاء؟!، فقال له: لا، ولكني كرهت منك أن عظمتني في الخطاب فناديتني بكنيتي، ولم تصنع مع خصمي اليهودي ما صنعت معي!! (١٣).

أما فيما يتعلق بالمساواة أمام الأحكام الموضوعية للقانون، فسوف يكتفي الباحث بالإشارة إلى القصة الشهيرة للصبي القبطي الذي شكا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ما وقع عليه من اعتداء بالضرب من ابن حاكم مصر عمرو بن العاص رضي الله عنه، فأمر عمر بأن يقتص القبطي من ابن حاكم مصر، وهو يقول للقبطي: اضرب ابن الأكرمين.

إن الذي نذكره هنا، هو شيء حدث قبل أن تعرف الدنيا شيئا اسمه حقوق الإنسان، وهاهو أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب يوجه اللوم إلى الصحابي الجليل عمرو ابن العاص بقوله: «متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟»، هذه العبارة الخالدة لم تعرفها المجتمعات الغربية إلا عندما قامت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩، وأصدرت إعلانها الخاص بحقوق الإنسان، والذي نص على أن الناس جميعا يولدون أحرارا، ومتساوين في الحقوق، وقبل أن يولد من فكروا في كتابة الإعلان العالمي في حقوق الإنسان الذي أصدرته هيئة الأمم المتحدة فيما بعد (١٤).

هوامش:

١ - إدوار غالي الذهبي، معاملة غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٩٣، ص ١٥ وما بعدها.

٢ - جاد الحق علي جاد الحق، المنظور الإسلامي لحقوق الإنسان، صحيفة الأهرام القاهرية، عددها الصادر في ٨ مارس ١٩٩٤.

٣- فهمي هويدي، مواطنون لا ذميون، الطبعة الأولى، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٥، ص ٨١.

٤- فهمي هويدي، الاشتباك الموهوم بين الإسلام والتعددية، مقال منشور في صحيفة الأهرام القاهرية، في عددها الصادر يوم١٨ من يونيو ١٩٩٦.

٥ - محمد عمارة، الإسلام وحقوق الإنسان: ضرورات لا حقوق، الكويت، ١٩٨٥، ص ص ١٤ - ١٦.

٦ - محمد سيد طنطاوي، الإسلام والوحدة الوطنية، مقالة منشورة في صحيفة الأهرام القاهرية، في عددها الصادر يوم ٢٨ / يوليو ١٩٩٦.

٧ - فهمي هويدي، القطب الأعظم للدنيا، مقالة منشورة في صحيفة الأهرام القاهرية، في عددها الصادر يوم ٤ من أغسطس ١٩٩٢.

٨ - جاد الحق علي جاد الحق، الإسلام رسالة إنسانية، مقالة منشورة في صحيفة الأهرام القاهرية، في عددها الصادر يوم ٥ من مارس ١٩٩٤.

٩ - ابن تيمية، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الطبعة الثانية، المكتبة القيمة، القاهرة، ١٤٠١ هـ، ص ٤٢ - ٤٣.

١٠ - ابن تيمية، الحسبة في الإسلام، دار عمر بن الخطاب، الإسكندرية، بدون تاريخ، ص ٤٦.

١١ - ابن تيمية، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مرجع سابق، ص ٤٣.

١٢- عبدالرحمن الشرقاوي، الفقيه المعذب: ابن تيمية، العدد ٤٤ من سلسلة كتاب اليوم، الصادر عن مؤسسة أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٨٥، ص ١٥٥ - وكذلك: فهمي هويدي، في الشريعة: العدل قبل الحد، مقالة منشورة في صحيفة الأهرام القاهرية، في عددها الصادر يوم ١٣ أبريل ١٩٩٣.

١٣- عبدالرحمن الشرقاوي، الفاروق عمر، القاهرة، ١٩٨٧ ص ٢٣ و ص ٢٧٠.

١٤- عبدالعزيز حافظ دنيا، العدالة العمرية ومبادئ الإسلام، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٤٥ . وكذلك: عباس محمود العقاد، عبقرية عمر، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٤٨، ص ٦٨، وأيضا: نظمي لوقا، عمر بن الخطاب: البطل والمثل والرجل، مكتبة غريب، القاهرة، ١٩٨٧، ص١٥٩.

مدير مؤسسة جسور للتعريف بالإسلام د. فاضل سليمان في حوار خاص:

عودة الحضارة الإسلامية مرهونة بأن نكون حقيقيين

حوار: حسن يسري

قال مدير مؤسسة جسور للتعريف بالإسلام د. فاضل سليمان، إن الحضارة الإسلامية ستعود مرة أخرى قوية كما كانت، شريطة أن نصبح مسلمين حقيقيين، وليس مسلمين اسما ورسما، أو مسلمين على سجادة الصلاة، وداخل المساجد فقط.

وطالب سليمان في حوار خاص لـ «الوعي الإسلامي» الدعاة بضرورة التيقن من أن العداء الذي يكنه خصوم المسلمين إليهم ليس شخصيا، بل هو موجه إلى الإسلام وروحه، وهذا العداء، إعلاميا، عمره أكثر من ١٤٠٠ سنة.

وأكد سليمان أن الجسور بين المسلمين وغيرهم ليست مقطوعة، لكنها تحتاج إلى أن نمدها أكثر من ذلك ونفعلها، وإذا كانت هناك جسور مقطوعة في بعض الأماكن، فإن المتسبب في ذلك هم أصحاب الفكر المتطرف، سواء بالتمييع، أو بالتشدد.

وأعلن عن إنتاج سلسلة أفلام عن الإسلام والتعريف به تسمى «الضباب ينقشع»، أحدها مترجم لأكثر من ثلاثين لغة عالمية، منها اللغة العبرية. وإليكم نص الحوار:

● من خلال إدارتك لمؤسسة جسور، نريد نبذة عن المؤسسة وأهدافها وآلياتها.

– مؤسسة جسور للتعريف بالإسلام وتدريب الدعاة، هي مؤسسة عالمية للتعريف بالإسلام، وهي تعمل في ثلاثة خطوط متوازية: الخط الأول مع المسلمين أنفسهم، والخط الثاني مع غير المسلمين، والخط الثالث مع من كانوا مسلمين سابقا، أي الذين ارتدوا عن الإسلام. نحن نعمل مع كل هؤلاء، ونقدم خدماتنا الدعوية لهم. فمع غير المسلمين نقدم لهم محاضرات عن التعريف بالإسلام، كما ننتج أفلاما تسجيلية عن الإسلام، وقد أنتجنا بالفعل سلسلة أفلام تسمى «الضباب ينقشع» عن الإسلام والتعريف به، وأحد هذه الأفلام مترجم لأكثر من ثلاثين لغة عالمية، منها اللغة العبرية.

وبالنسبة إلى المسلمين فنعمل معهم من خلال دورتين: الأولى عن كيفية التعريف بالإسلام، والثانية عن كيفية الرد على الشبهات التي تساق من أعداء الإسلام.

وقد قمنا –بفضل الله– بتدريب ما يزيد على ١٧ ألف مسلم ومسلمة في ٢٢ دولة حتى الآن.

والخط الثالث الذي تعمل فيه المؤسسة، هو التواصل مع المرتدين عن الإسلام، وذلك عن الطريق النصح والإرشاد. وفي هذا الصدد أشير إلى إنتاج المؤسسة لفيلمين، هما: «خدعة التبشير» و«الخطيئة الأصلية». واستطاع هذان الفيلمان أن يرجعا كثيرا من المرتدين عن الإسلام إليه. وحاليا نعمل في مجابهة الإلحاد والتشييع.

● هل ترى أن الجسور مقطوعة بيننا وبين غير المسلمين؟ ومن المتسبب في ذلك؟

– لا أرى أن الجسور مقطوعة بيننا وبين غير المسلمين، لكنها تحتاج فقط إلى أن نمدها ونفعلها أكثر من ذلك. وإذا كانت هناك جسور مقطوعة في بعض الأماكن، فأنا أرى أن المتسبب في ذلك هم أصحاب الفكر المتطرف، سواء بالتمييع، أو بالتشدد. فالأفكار المتطرفة تخرج عن نطاق الشريعة ودين الإسلام الوسطي.

ومن يرى أنه ليس بيننا وبين غير المسلمين إلا السيف، هو صاحب فكر متطرف ومتشدد، لم يأمر به الإسلام. كما أن من يرى أن لا فرق بيننا وبين غير المسلمين، وأن الحق موجود لدينا جميعا، فهذا أيضا متطرف. ونحن نرى الوسطية، لكن الوسطية تحتاج إلى وسطيين يقدمونها، وهذا ما نقوم به في المؤسسة، وهو تدريب المسلمين على التعريف بالإسلام بوسطية.

فنحن نتكلم عن الاختلافات التي بيننا وبين غير المسلمين، بعد أن نقيم الجسور من خلال الكلام عن المشتركات التي تجمع بيننا. لكن أن يذهب أي إنسان ليتكلم عن الإسلام داخل الكنيسة، ولا يتكلم إلا عن المشتركات التي بيننا وبينهم فقط، وكأنه لا توجد اختلافات بين الإسلام والنصرانية أو البوذية أو أي ديانة أخرى، فهو بالقطع مخطئ.

وفي الوقت نفسه، فإن من يتكلم في الاختلافات من دون أن يمد الجسور بالمشتركات فهو أيضا مخطئ، فالله عز وجل يقول ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾ (العنكبوت:٤٦). أي نمد جسور المشتركات بيننا وبينهم، ثم نتكلم في الاختلافات، لأن الكلام عن الاختلافات من دون أن يُسبق بالكلام عن المشتركات يمكن أن يؤدي إلى عواقب وخيمة.. فهناك من الناس من يتقاتلون بسبب هذه الاختلافات، فإهمال الكلام عن المشتركات خطأ، وإهمال الكلام عن الاختلافات أيضا خطأ.

● هل الأجدى والأنفع أن نتحرك كرد فعل في الرد على الشبهات من خلال المناظرات، ومناقشة المتعصبين من أصحاب الديانات الأخرى، أم أن نسبق ونكون فاعلين في إيجاد واقع إسلامي على الأرض، فرديا ومجتمعيا وأمميا، يحترمه الآخرون؟

– لا بد أن نسير في الخطين معا، وعدم ترك أحدهما. فخط الرد على الشبهات أمر مهم، بالإضافة إلى أن مناظرة من يقوم بنشر «الإسلاموفوبيا»، أو الخوف من الإسلام، هي أمر مهم أيضا. لكن لا ينبغي أن نقوم بهذا في إطار رد الفعل، بل يجب أن تكون عندنا خططنا المنهجية العلمية الموضوعة، من أجل الدعوة ونشر الإسلام.

فيجب أن نعمل في الخطين بشكل متواز وواضح، ولا ينبغي أن نعمل –كمسلمين في مجال الدعوة– كرد فعل في الأصل، فالعكس هو الذي يجب أن يكون، وهو أن تأتي ردود الأفعال من غيرنا، لأن رد الفعل دائما ما يكون ضعيفا، أما الفعل فهو الأقوى والأكثر تأثيرا. لذلك يجب أن أكون فعلا وليس رد فعل.

كما أن الذي يتصدى إلى المناظرات يجب أن تتوافر فيه شروط، منها: أن يتدرب على فنون المناظرة، وأن يكون على علم، وأن يكون وسطيا؛ حتى لا يسيء إلى الإسلام.

● كيف يصل الداعية المسلم إلى قلب الآخر وعقله في ظل الحرب الإعلامية الغربية على الإسلام؟

– يجب أن يعلم الداعية المسلم أن العداء الذي بين الإسلام وخصومه ليس عداء شخصيا، بل هو عداء موجه إلى الإسلام. وهذا العداء الإعلامي عمره أكثر من ١٤٠٠ سنة، فالنبي ﷺ بعد أن كان أهل مكة يلقبونه بالصادق الأمين، أصبحوا بعد دعوته إلى الإسلام يلقبونه بالكاذب والساحر وغيرهما من أوصاف، التي ما قيلت إلا لأنها حرب على الإسلام، وقد أخبره الله سبحانه وتعالى بذلك ﴿..فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣﴾ (الأنعام:٣٣). وستبقى هذه الحرب، إعلامية وغير إعلامية، ما دامت هذه الرسالة موجودة.

وقد واجه القرآن الكريم هذه الآلة الإعلامية بسورة كاملة تسمى «الشعراء»، فالشعراء في ذاك الوقت، هم إعلاميو هذا العصر. والنبي ﷺ واجه إعلاميي ذاك الزمان بتكليف إعلاميين مسلمين على قدر عال من الاحتراف بالتصدي لهم، مثل سيدنا عبدالله بن رواحة وسيدنا حسان بن ثابت وسيدنا كعب بن مالك، رضي الله عنهم، ولم يكلف إعلاميين ذوي مستوى عادي.

لذلك، تجب مواجهة هذا الإعلام الصهيوني المجرم، في الداخل والخارج، بإيجاد إعلام إسلامي قوي، لأنه يوجد بيننا إعلاميون، من أبناء جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا، ويسمون بأسمائنا، يخدمون أهداف الصهيونية العالمية، ويحاربون الإسلام.

والإعلام الإسلامي الموجود الآن خطابه ضعيف جدا. لذلك، يجب أن نسعى إلى إيجاد إعلام إسلامي محترف ومؤثر.

● برأيك.. كيف تستعيد الحضارة الإسلامية عافيتها في ظل الضغوط القوية من أعداء الإسلام؟

سليمان في حواره مع المحرر

الإسلام؟

– أرى أن الحضارة الإسلامية ستعود مرة أخرى قوية كما كانت، شريطة أن نصبح مسلمين حقيقيين، وليس مسلمين اسما ورسما، أو مسلمين على سجادة الصلاة وداخل المساجد فقط. فعندما نعود إلى الإسلام، شكلا ومضمونا، ونعود إلى كتاب الله، فهما وتدبرا وعملا، فمن السهل واليسير أن نستعيد حضارتنا مرة أخرى. فبعض المسلمين حتى الآن لا يعرفون كيف يتعاملون مع القرآن الكريم، بل إن معظمنا يقرأونه من دون فهم وتدبر، على الرغم من أن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي يسأل قارئيه: هل يقرأونه بفهم وتدبر؟

فكيف نعيد حضارتنا مرة أخرى ونحن لا نفهم مصدر هذه الحضارة؟! ثم كيف سنقابل الله عز وجل يوم القيامة ونحن لا نفهم كلامه ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ..﴾ (الأنعام:٩١). فمن سوء الأدب مع الله عز وجل أن نقرأ كتابه بغير فهم ولا تدبر. ومن عدم الاحترام أن يحدثني إنسان ولا أعير كلامه اهتماما، فنحن يجب أن نعطي فرصة للقرآن حتى يغيرنا.

والخطير أننا ورثّنا أبناءنا هذا الأمر، عن طريق الاهتمام بحفظ القرآن أكثر من فهمه، وعن طريق بعض الممارسات الخاطئة في التعامل مع القرآن الكريم، مثل التغافل عن القرآن والانشغال عنه بأي شيء عندما يتلى في الفضائيات أو في الإذاعة، فيتربى الطفل على أن القرآن ليس مهما، وأنه كتاب للحفظ فقط، وليس للتدبر والفهم والتطبيق.

لذلك، يجب أن نواجه أنفسنا بهذه الأمور الخطيرة، وأن نتداركها حتى نعود كما كنا من قبل: حضارة إسلامية عظيمة لا تغيب عنها الشمس.

● القرآن الكريم هو القوة المؤثرة والفاعلة في الأمة الإسلامية، سواء على مستوى الفرد أو الجماعة.. فهل ترى أن المسلمين، وبصفة خاصة الدعاة منهم، يدركون هذا الأمر عمليا وليس نظريا؟ وكيف نتعامل مع المنهج القرآني بحيث يعود قوة مؤثرة تقيل عثرة الأمة؟

– للأسف الشديد إن بعض الدعاة لا يتعاملون أصلا مع القرآن إلا في رمضان، فقد أجرينا دورة في مؤسسة جسور للدعاة عن «التربية الإيمانية والوسائل الإيمانية المعينة للداعي»، وقد كان من ضمن الواجبات العملية للدعاة الحضور، أن يكون لهم ورد يومي من القرآن، يتدبرون آياته، وقد كانت المفاجأة أن بعضهم هاجر للقرآن تلاوة، ناهيك عن فهمه وتدبره والعمل به.

فبعض الدعاة هاجرون للقرآن، وذلك بسبب التنشئة الخاطئة، التي ترى أن حفظه هدف وغاية، وليس وسيلة معينة للفهم والتطبيق! والله عز وجل وضح لنا كيفية التعامل مع القرآن ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ..﴾ (ص:٢٩). فالهدف هو التدبر، وليس الحفظ. والله عز وجل تعهد بحفظه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ (الحجر:٩).

فالقرآن الكريم كتاب هداية يوضح لنا ويشرح كيفية السير في الطريق المستقيم. ومن غير المعقول أن نمضي في طريق لا نفهم كيفية السير فيه، لأننا نحفظ ولا نفهم ولا نتدبر.

كما أن الصحابة، رضوان الله عليهم، كانوا لا ينتقلون من آية إلى أخرى إلا بعد فهمها، وتطبيقها، فعن ابن مسعود رضي الله عنه: «كنا لا نتجاوز العشر آيات من القرآن حتى نتعلم ما فيها من الأحكام ونعمل بها، فتعلمنا العلم والعمل معا». وقد حفظ سيدنا عبدالله بن عمر بن الخطاب، رضي الله عنهما، سورة البقرة في ثماني سنوات، مع أن حفظها لا يستغرق شهرا ونصف الشهر، كما نحفظ نحن الآن.

كما أننا لا نربي أولادنا على التعامل بطريقة صحيحة مع القرآن، فالله

عز وجل يخبرنا بأن القرآن كتاب عربي ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢﴾ (يوسف:٢). ونحن نصر أن نتعامل معه كأنه كتاب لغة إنجليزية يُفتح من اليسار، لأننا نبدأ في تعليم أولادنا القرآن من الجزء الثلاثين، وهو الجزء الذي لا توجد فيه قصص، سوى قصة أصحاب الأخدود، التي حُرق فيها المؤمنون، ولم يصب الملك الكافر بأي أذى، مع أن الأجزاء الأولى فيها قصص شيقة ومؤثرة تجعل الطفل يحب القرآن ويعشقه، كسحرة فرعون، وقصة سيدنا إبراهيم، وقصة البقرة، وقصص كثيرة جدا، تشعر الطفل كأنه يشاهد رسوما متحركة، فيرتبط بالقرآن بطريقة أكثر تأثيرا من طريقة الكتاتيب، التي يُجبر فيها الطفل على الحفظ، وليس على حب القرآن.

ولا بد من الرجوع والعودة إلى المتخصصين في التربية، كأمثال الدكتور مجدي الهلالي، حتى نعلم كيف نستفيد من القرآن تربويا.

فالقرآن الكريم هو المصدر الوحيد القادر على تغيير النفس، وتهذيبها وتربيتها، فعمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي كان من أعدى أعداء الإسلام، والذي كان صاحب فكرة أن كل عائلة تُعذِّب من أسلم منها، حتى لا يتقاتل القرشيون، غيّرته خمس آيات من سورة طه، وحوّلته من إنسان لا يعرف الرحمة إلى الفاروق عمر، وليس من المعقول أن يتغير إنسان مثل عمر بحفظ خمس آيات من سورة، لكنه فهم الآيات وتدبرها.

فنحن نحتاج إلى ثورة داخلية للتخلص من تلك العادات البالية من موروثات خاطئة في التعامل مع القرآن الكريم.

● كيف يقاوم المسلمون، علماء ودعاة وأفرادا، حملات التبشير التي وصلت إلى بعض الدول العربية والإسلامية؟

– حملات التنصير يجب أن تواجه بالفكر، فالفكر لا يواجه إلا بالفكر. والتعامل معها من خلال الحل الأمني من أكبر الأخطاء التي يمكن أن نقع فيها، لكن يجب تجريم العمل السري لهذه الحملات، وأن نسمح لها بالعمل علانية.

وقد كانت لي تجربة في كيفية التعامل مع هذه الحملات بطريقة صحيحة، عندما عقدت ندوة في إحدى القاعات، وحضر ما يقرب من ٣ آلاف فتى وفتاة، وكانت بعنوان «مفهوم الخلاص»، وقد فاجأت الحضور بدعوة أحد أكبر المنصرين في مصر، وهو الدكتور ناجي موريس، وقد اتفقت معه قبل الندوة أن يمارس عمله منصرا، فأخذ عشرين دقيقة تكلم خلالها عن مفهوم «الخلاص» (وهو من أكبر الاختلافات التي بين الإسلام والنصرانية في مفهوم العقيدة)، وكانت انطباعات الحضور إيجابية جدا، ولم يشعر أي أحد بميل نحو المسيحية، بعد أن عقبت على كلامه، بعد أن أنهى حديثه وتكلم كمنصر. وعندما تم سؤالي من قبل الجهات المختصة عن سبب دعوتي له لحضور الندوة، كان الرد بأني واجهت الحملات التنصيرية، التي لا يعرف أحد أن يواجهها. فإذا أردنا أن نواجه تلك الحملات، بطريقة إيجابية، فيجب أن تعرض أمامنا في كل مكان على مسمع ومرأى من الجميع، ثم نواجهها بالتعقيب عليها، ونرد الفكرة بالفكرة، والنص بالنص، والعقل بالعقل.

فالنبي ﷺ أتى بنصارى نجران في المسجد، ودعاهم، وناظرهم علانية أمام الصحابة، رضوان الله عليهم، حتى يقضي على تلك الفتنة.

ومن خلال مؤسسة جسور، فإننا نعد دعاة لمقاومة التنصير ومقاومة الإلحاد، والدورات مستمرة حتى نستطيع أن نتصدى لتلك الحملات. لكن كما قلت بطريقة صحيحة وإيجابية.

● من خلال خبرتك الدعوية في العالم الغربي، ما أهم الشبهات التي تم رصدها، وكيف يرد الدعاة عليها بطريقة علمية وموضوعية؟

– هناك شبهات كثيرة، لكن هناك أربعة أبواب رئيسية للشبهات حول الإسلام، منها شبهة النساء، ووضع المرأة في الإسلام، وهناك شبهة الجهاد والإرهاب والعنف، وهناك باب الرسول ﷺ، وما يمسه كنبي وقائد ومشرع ومصلح، وما يمس حياته الشخصية ﷺ. وهناك شبهات متفرقة أخرى.

ويجب أن يتعلم الدعاة الرد على هذه الشبهات، فالعاطفة والانفعالات وحدها لا تكفي للرد عليها، ولكن العلم والفهم الصحيح هما سبيلا الرد عليها.

● وكيف يمكن للإعلام الإسلامي مواجهة الفكر العدائي الذي يصدره الإعلام الغربي بكل ما يمتلكه من وسائل قوة رهيبة؟

– يجب أن يكون الإعلام الإسلامي إعلاما محترفا ومحترما، وأن ندقق في اختيار العاملين في الحقل الإعلامي الإسلامي، فليس كل إعلامي يصلح أن يعمل في الوسائل الإعلامية الإسلامية، لأن العاملين في الحقل الإعلامي الإسلامي يجب أن يكونوا مقتنعين من الأساس بالفكرة الإسلامية، وأن يدافعوا عنها، ويندمجوا معها، وتصبح جزءا من حياتهم، حتى يستطيعوا التأثير في المتلقين.

● كيف نمد جسور المحبة والتعاون بين مكونات الوطن الواحد، مسلمين وغير مسلمين؟

– هذا الأمر لن نصل إليه إلا بالتكامل، وأن يضع كل واحد منا نفسه مكان الآخر. ويجب أن يعلم الجميع أن ما بيننا وبين النصارى ليس علاقة مواطنة فقط، بل علاقة إخوة، سواء في الوطن، أو في

الإنسانية، فالنبيﷺ يقول «كلكم لآدم وآدم من تراب».

كما أن القرآن الكريم فيه أكثر من ٢٠ آية تؤكد على معنى الإخوة بين الأنبياء وأصحاب الديانات الأخرى من قومهم، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ ..﴾ (الأحقاف:٢١). ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ..﴾ (هود:٥٠). ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ..﴾ (هود:٦١). فالإسلام أطلق على العلاقة بيننا وبين الآخر من أصحاب الديانات الأخرى علاقة الإخوة، حتى أن شذوذ قوم سيدنا لوط، جنسيا، وكفرهم، عقائديا، لم ينفيا عنهم صفة الإخوة له ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ ..﴾ (الشعراء:١٦١).

والإخوة علاقة بين طرفين، أخ أكبر وأخ أصغر، فالأخ الأكبر يجب عليه ألا يقسو على الأخ الأصغر، كما أن الأخ الأصغر يجب أن يحترم الأخ الأكبر.

كما أنه يجب أن تكون هناك شفافية ومكاشفة بين الطرفين. لذلك، أدعو إلى أن تكون هناك إحصائية صحيحة للطرفين وأن تعرض على الرأي العام، حتى ولو بلغت نسبة المسيحيين في بلد عربي مسلم ٥٠ في المئة، حتى يُعرف الحجم الطبيعي لكل طرف، ويأخذ كلٌ حقه الطبيعي في بعض الوظائف، كنسبة طبيعية بناء على حجمه في المجتمع، حتى لا يبقى في صدر أحد شيء، بناء على نسب مضللة، لا يُعرف لها أصل، سوى أنها تؤجج النار في الصدور. فالموضوع ليس شعارات ترفع كـ «يحيا الهلال مع الصليب»، ونحن كمسلمين لسنا مؤمنين بالصليب في الأصل، لكن الموضوع هو تكامل بيننا، وأن ننضج أكثر من ذلك، وأن نعلم أننا مختلفون، وأن الله سوف يفصل بيننا يوم القيامة، وندرك أن هناك أمورا مشتركة بيننا كأبناء وطن واحد، كمشكلة الخبز والكهرباء والتعليم، فهذه مشكلات لا تفرق بين المسلم والمسيحي، ويجب أن نواجهها معا.

كما أن النبيﷺ قال عن حلف الفضول، وهو حلف كافرين، لكنه كان لنصرة المظلومين، إنه لو دعي إليه في الإسلام لأجاب، ومعنى ذلك أنه يمكن لمسلم أن يدخل مع غير المسلم في أي عمل نافع منظم ومفيد للمجتمع.

ومن المسائل المهمة جدا مناداة غير المسلمين، فالقرآن الكريم لم يناد على غير المسلم إلا بأحب الأسماء إليه: ﴿.. يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم ..﴾ (الصف:٦). ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ..﴾ (مريم:٤٤). ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ (نوح:٢)؛ ولم يناد على غير المسلم بالكافر إلا في موضع واحد ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾ (الكافرون:١)، وذلك في حالة محاولة إخراج المسلم من دينه.

● بماذا ترد على اتهامات الآخر بأن الإسلام انتشر بحد السيف؟

– ما معنى أن دينا ينتشر بحد السيف؟ معناه أن جيشا يحتل شعبا ويجبره على اعتناق دينه. لكن التاريخ يذكر أن المغول، وهو الجيش المعتدي على العالم الإسلامي، عندما احتل أرض المسلمين، هو الذي ترك دينه ودخل في دين من احتل أرضهم، وهذه سابقة أولى في التاريخ، أن يترك الجيش المحتل دينه، ويدخل في دين من احتله. فكيف إذن انتشر الإسلام بحد السيف؟! لدرجة أن الجندي المغولي كان يوقف المسلم ويأمره بألا يتحرك حتى يأتي بالسيف، ومن خوف المسلم ورعبه منه لا يتحرك حتى يأتي بالسيف ويقتله.

وفي الواقع، إن هذه المسألة لن تفهم مطلقا إلا إذا فهم الناس تاريخ العالم الحقيقي، الذي طمس من قبل أعداء الإسلام، وهو «تاريخ الآريوسيين»، وهم أتباع آريوس، وهو قس كنيسة بالإسكندرية، كان قد عارض فكرة الثالوث المقدس، وعارض فكرة تأليه المسيح، وكان يعتبر المسيح مخلوقا وليس إلها، لذلك سُمي كل من عارض الثالوث بـ «آريوسي»، حتى لو لم يسمع عن آريوس أو يقرأ له شيئا، وانتشرت هذه العقيدة بكثرة، وسُمي متبعوها بـ «الآريوسيين» نسبة إلى ذلك القسيس.

ونحن نظن أن المسلمين جاءوا وفتحوا هذه البلاد، التي كان معظمها واقعا تحت الاحتلال الروماني، وهذا غير حقيقي، فالمسلمون كانوا في هذه البلاد وبأعداد كبيرة جدا تقدر بالملايين، وكانوا يسامون العذاب تحت الحكم الروماني.

وقد أثبت ذلك في رسالة الماجستير، وقد طبعت في كتاب «أقباط مسلمون قبل مجيء محمد ﷺ»، والذي يثبت أن شعب مصر وكثيرا من الشعوب الواقعة تحت الاحتلال الروماني، لم تكن مسيحية، ولكنها كانت شعوبا مسلمة، أو على الأقل طوائف كثيرة منها تقول لا إله إلا الله عيسى رسول الله. وكان ذلك قبل مجيء سيدنا محمد ﷺ. لذا، فهم يعتبرون مسلمي ذاك العصر، كما أثبت أنهم كانوا مضطهدين ويعذبون، وبذلك يصبح الأمر استردادات، يسترد بها المسلمون أراضيهم، وليس فتوحات. فهؤلاء المسلمون كانوا واقعين تحت الاحتلال والتعذيب، فجاء إخوانهم إليهم من أتباع محمد لنجدتهم من أتباع عيسى ابن مريم، وليخلصوهم من ذلك الاحتلال والظلم اللذين تعرضوا لهما على أيدي الرومان المحتلين.

إذن فالمسألة ستفهم بطريقة مختلفة تماما إذا عرف الناس تاريخ العالم الحقيقي، والذي طمس من قبل أعداء الإسلام، لأنه تاريخ دام جدا، لأن عدد الآريوسيين الذين قتلوا يقدر بالملايين، فلا يمكن فهم التاريخ من دون الآريوسية. كما أننا لا يمكن أن نفهم السيرة النبوية من دون فهمنا للآريوسية، فهل لنا أن نتخيل أن حاكما مسيحيا (المقوقس حاكم مصر) يهدي جارية مسيحية (السيدة مارية القبطية) إلى رجل يعتبره ذلك الحاكم مدعيا للنبوة؟! بالطبع لا، فالسيدة مارية كانت مسلمة وموحدة في الأصل، لذا، فقد أهدى المقوقس موحدة إلى موحد ﷺ.

المواطنة من المنظور الإسلامي

رسمي عجلان
باحث من جامعة الأزهر

المواطنة مفهوم حديث ظهر في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي بعد قيام الثورة الفرنسية، ولم يعرفها الغرب ولا العلمانيون من قبل ولم تطبق في بلادهم. والمواطنة على وزن «مفاعلة»، أي تفاعل الإنسان مع الوطن الذي يعيش فيه، بمعنى أن العلاقة بينهما علاقة تفاعلية، فيترتب على الطرفين العديد من الحقوق والواجبات، فعلى المواطن كمال الحب والانتماء والولاء لوطنه، فيحترم هويته ويؤمن بها وينتمي إليها، ويدافع عن ثوابته، كاللغة والتاريخ والأرض والحدود، والقيم والمبادئ والعادات والتقاليد، والشكل والمضمون والآداب العامة، وهذا يمثل «وعاء الهوية». وكما أن للوطن حقوقا على المواطن، فإن للمواطن حقوقا على وطنه ومجتمعه وشعبه وأمته، وهي تتمثل في المساواة بين المواطنين جميعا بغض النظر عن انتمائهم الأيديولوجي والعقائدي والعرقي والمذهبي والطائفي والجغرافي، أي ان الشعب، بجميع طوائفه، كيان واحد مترابط كالجسد الواحد إذا اشتكى منه مواطن تداعى له سائر الشعب بالتكافل والمساندة والتضامن والتعاون والإنقاذ. وإن تعجب فعجب أن كثيرا من الناس يحسبون أن مفهوم «المواطنة» مستوردٌ من الغرب، وكلمة جديدة علينا، نحن المسلمين، ويتشدق بها العلمانيون كأنهم أتوا بلبن العصفور. وحقيقة الأمر الذي لا مراء فيه أن «المواطنة» إسلامية مئة في المئة، وأن الدين الإسلامي له يد السبق التطبيقي والعلمي والتاريخي في إرساء قواعدها. فأخطأ من قال إن «المواطنة علمانية»، وإنه يلزم لتطبيقها التخلي عن المرجعية الإسلامية، فاسألوا الشعوب التي دخلت الإسلام والبلاد التي فتحها المسلمون ينبئوكم بالخبر اليقين. فالإسلام لم يعرف التمييز على أساس الدين، وقصة نصارى نجران عندما وفدوا على النبي ﷺ معلومة لجميع المسيحيين والمسلمين. وقوله ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه عندما بعثه إلى اليمن: «لا تزعج يهوديا في يهوديته». وهو القائل في حق غير المسلمين: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا». حتى قال الأنبا شنودة الثالث بطريرك الكرازة المرقسية: «إن الأقباط في ظل الشريعة الإسلامية يكونون أسعد حالا وأكثر أمنا. ولقد كانوا كذلك في الماضي حينما كان حكم الشريعة هو السائد؛ نحن نتوق إلى أن نعيش في مصر تحت مظلة: لهم ما لنا وعليهم ما علينا» (جريدة الأهرام المصرية بتاريخ ١٩٨٥/٣/٦م). وقصة الرجل القبطي وابن حاكم مصر وفاتحها ونصرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه له على ابن عمرو بن العاص، وأمره أن يضربه كما ضربه، بل وقال له: إن شئت فاضرب أباه لأن ابنه احتمى في سلطانه واستغل نفوذه. وقصة درع علي بن أبي طالب رضي الله عنه واليهودي المشهورة. وقصة عمر ابن عبدالعزيز مع أهل دير إسحاق وحكمه على مسلمة بن عبدالملك – وهو ابن عمه وخال أولاده والقائد المغوار وأحب الناس إلى قلبه – بأن يرد أرض الناعورة (ضيعة قرب حلب) إلى النصارى أهل دير إسحاق. وقصة أحمد بن طولون مع النصراني المصري عندما اشتكى له من أن أحد قادته اغتصب منه مبلغا من المال، فأحضر القائد وابنه وزجره أمام الناس وفي حضرة النصراني، وحكم عليه برد المال في مجلسه هذا، وقال للنصراني إن عاد عُد، أي لو أنه ظلمك أو اعتدى عليك لفظيا أو بدنيا أو ماديا أو معنويا ارجع إلي لأرد لك حقك. فهذا لأعظم دليل على أن المواطنة إسلامية، لا شرقية ولا غربية. فالإسلام جعل الناس في حق الحياة سواء، وكلهم أمام القانون سواء، ولا فرق بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح. لم يكن المسلمون يوما مثل الرومان الذين احتكروا الشرف والسيادة لجنسهم فقط، واعتبروا اليهود والنصارى درجة ثالثة، بل كانوا يصبون عليهم كل ألوان العذاب، ويتخذونهم محلا للتسلية والسخرية والاستهزاء، واقرأوا تاريخ الأمم إن كنتم في شك مما نقول. ولم يكونوا كاليهود التلموديين، واقرأوا بروتوكولات صهيون، فستعلمون أنهم كانوا، ولا يزالون، عنصريين مئة في المئة، وجعلوا الله إلها لبني إسرائيل فقط، وأنهم شعب الله المختار، وأن باقي الشعوب خلقوا بغالا ليركبوها

﴿..قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ..﴾ (المائدة:١٨). وصبوا نار اضطهادهم على النصرانية والمسيح ابن مريم وأمه الصديقة والحواريين، أما النصرانية فقد بادلت الآخرين إنكارا بإنكار، واضطهادا باضطهاد؛ فبمجرد أن تخلصوا من الاضطهاد الروماني في مصر، وتدينت الدولة الرومانية بالنصرانية في عهد الإمبراطور قسطنطين صبوا نار اضطهادهم على الفرعونية المصرية، ثم اختلفوا حول طبيعة المسيح، فالطائفة الأرثوذكسية – في وقتها – ترى أن المسيح له طبيعة واحدة أنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى أمه مريم، وهذا ما أكد عليه رب العالمين في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ (النساء:١٧١). أما النصرانية الرومانية الكاثوليكية فترى المسيح ذا طبيعتين، إحداهما إنسان، والأخرى إلـه! فقامت الطائفة الكاثوليكية بصب نار الاضطهاد والانتقام على الطائفة الأرثوذكسية (اليعقوبية)، وفي سنة ٢٨٤م تولى الإمبراطور دقلديانوس حكم الدولة الرومانية، فطلب من الشعب المصري ترك الديانة المسيحية وعبادة الإمبراطور على الطريقة الفرعونية، وعندما امتنع الشعب المصري عن ذلك قتل منهم أكثر من مليون مسيحي! لذلك، سُمي عصره بعصر الشهداء، حتى قال المؤرخ المصري القبطي ساويرس ابن المقفع: «لو كانت عجائب الدنيا سبعا فإن العجيبة الثامنة هي بقاء المسيحية الأرثوذكسية في مصر؛ لأن دماء الأقباط الأرثوذكس وصلت إلى حد ركب خيول الجنود الرومان» (سير الآباء البطاركة ١٠٨/١). وفي سنة ٦٣٠م أصدر الإمبراطور هرقل قرارا بأن تكون الديانة الوحيدة في الدولة الرومانية هي المسيحية الكاثوليكية، فزاد عناد الشعب المصري في التمسك بالمسيحية الأرثوذكسية؛ فقتل منهم مئة ألف مصري أرثوذكسي بوضعهم في الزيت المغلي، والقتل بالإغراق، والحرق أحياء، والربط في فروع الشجر، وخلع الأظافر، وكشط جلدهم بالمقاشط؛ إنها بحق مجزرة بشرية من المسيحيين الكاثوليك الرومان بحق المسيحيين الأرثوذكس المصريين (حرية العقيدة في الإسلام للدكتور: نبيل لوقا). لقد ظل الميزان الضابط للمواطنة معطلا، والعلاقات بين الأفراد والسلطة متوترة حينا من الدهر في حياة البشرية حتى جاءت الرسالة المحمدية (الدين الإسلامي) فسطعت شمس الحرية، وازورت السلطات الاستبدادية، ورسخت مبادئ المواطنة، وأرسيت قواعدها بنظام يعي جميع أبعادها، ويعلي من قدر المواطنين جميعا، ويخرجها من حيز النظرية إلى مجال التطبيق، فغرسها في بنيان النظام العام للدولة، وأرضع أفراد المجتمع مبادئها، وفطموا على حلاوتها، فأنتجت في النهاية حكاما ومحكومين مؤمنين بها، ويتكاتفون على تطبيقها. إن أول من وضع أسس المواطنة وضوابطها ومعاييرها بلا فخر هو محمد رسول الله ﷺ فعندما أسس الدولة الإسلامية الأولى في المدينة المنورة سنة (٦٢٢م) وضع حجر الزاوية للمواطنة، فكان أول حجر تكريم الإنسان عامة بلا تمييز كما أن الإسلام نهى عن سب أو شتم معبود الآخر، حتى ولو كان وثنا، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴿١٠٨﴾﴾ (الأنعام: ١٠٨). ثم طلب الإسلام من أتباعه أن يبرّوا الآخرين ولو كانوا مشركين أو كافرين أو أهل كتاب أو معاهدين أو ذميين، ويحسنوا إليهم ما دام لم يقاتلوكم في الدين، فقال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ (الممتحنة: ٨). والآيات كثيرة، وكذلك الأحاديث النبوية الدالة على «المواطنة»، أي التعايش السلمي مع الآخرين، ولو كانوا مخالفين في الدين. وكان ﷺ يعود المريض من شعبه ولو كان مخالف الديانة، ويسأل عنه، كما روى أنس رضي الله عنه أن غلاما يهوديا كان يخدم النبي ﷺ فمرض؛ فأتاه النبي يعوده فقال له أسلم فأسلم (البخاري). لقد جاور النبي ﷺ اليهود وغيرهم من الوثنيين، وزارهم في مساكنهم، واشترى منهم، وباع لهم، ورهن درعه عندهم في ثلاثين صاعا من شعير، وكان يقبل هديتهم، ويهدي إليهم، وحرّم خيانتهم، وأحل للمسلمين طعام أهل الكتاب والزواج من نسائهم، وسوى في حرمان الميراث بين المسلم والذمي، ولم يحرم تعليم الذمي على يد مسلم والعكس صحيح، ولم يمنع شعبه (المواطنين الذين يعشون على أرض الإسلام) من الذميين والمعاهدين من التكافل الاجتماعي، وأقر بحقهم في الملكية الخاصة واشتراكهم في الملكية العامة، وكان يجادلهم بالتي هي أحسن، ويحكم بالقسط في معاملتهم، ويقضي بينهم وبين المسلمين بالعدل أو مع غيرهم ومع أنفسهم، وكان النبي ﷺ يعامل الأسرى أفضل معاملة، مع أنهم كفار ومن أعداء الإسلام، لكنهم محبوسون في أرض الإسلام فاعتبرهم من المواطنين، ولهم حقوق وعليهم واجبات، قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ (الإنسان:٨).

خلف أسوار الخطأ

د. محمد علي يوسف
باحث دراسات إسلامية

- من السبب؟!
- من المخطئ؟!
- من المسؤول؟!

أسئلة قد تكون مهمة للغاية عند التحليل والدراسة والاستفادة من أخطاء تجربة ما.

أن تعرف أسباب المشكلة ومحل الخلل وموطن الخطأ، وأن يتحمل المخطئ تلك المسؤولية المادية والمعنوية عن الخطأ الذي قام به ويدفع ثمنه -إن كان له ثمن- فهذا حسن.

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ (الكهف:٨٧-٨٨).

كان هذا رد الملك العادل ذي القرنين لما جاءه المستضعفون يشكون إليه ظلما لحق بهم قائلين: ﴿يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ (الكهف: ٨٦).

ومن رده تتبين تلك القاعدة القرآنية العظيمة، ويظهر من خلالها المبدأ الثابت والأصل الراسخ: لا عقوبة إلا مقابل خطأ، وبما يوازي الخطأ. والمتسبب في الخطأ عليه أن يتحمل مسؤوليته ويسدد «فاتورته» بما يوازيه.

كل هذا لا إشكال فيه، ولا يوجد عاقل يرفض منطقه.

لكن الإشكال في أن تتحول الأخطاء، من تلك الصورة السابقة، إلى شماعات يعلق عليها الآخرون كل مصيبة، ويسارعون إلى إشهارها في وجه أي معترض على أي شيء، وكأن تلك الأخطاء هي نهاية العالم وأصل كل الشرور.

الأخطر أن تتحول تلك الأخطاء أو المخطئون والمتسببون في مشكلة إلى جدران معتمة أو قضبان غليظة يظل تفكير المخطئ أو تفكير من يلومه حبيسا بداخلها، فلا يرى أحدهما الدنيا إلا من خلالها، ولا يستطيع أن يتجاوزها إلى غيرها.

في يوم أُحد أخطأ الرماة بنزولهم من ذلكم التل الذي أقامهم عليه رسول الله ﷺ، مسارعين إلى غنائم زائلة، وعاصين بذلك أمر النبي الأمين الذي أحكم لهم النهي قائلا: كونوا مكانكم، لا تبرحوا وإن رأيتم الطير تخطفنا. لكنهم أخطأوا، وخالفوا أمره، ووقعوا فيما نهاهم عنه.

ولقد أصابتهم المصيبة بما هو من عند أنفسهم، وذلك بنص القرآن، كما نزلت به سورة آل عمران، وقد تم بيان الخطأ، والمخطئ وحُمِّل المسؤولية التي عليه.

ثم ماذا بعد؟!

هل ظل التوبيخ أو التلاوم وحسب؟!

هل ظلت كل سورة من سور القرآن تتحدث عن ذلك الخطأ؟! وهل استمر اللوم والعتب في كل حديث من أحاديث الرسول ﷺ قيل بعدها؟!

بل هل كانت الآيات التي نزلت في تلك المناسبة وتعليقا على ذلك الحدث كلها تتكلم عن هذا الخطأ؟!

الجواب: لا.

لقد حدث الانتقال الطبيعي والمنطقي من بيان الخطأ وتحميل المسؤولية المناسبة للمخطئ إلى الخطوة التالية، وهي العمل وإصلاح ذلك الخطأ، وبذل الوسع لاجتناب الوقوع فيه في المرات المقبلة.

لقد نزلت الآيات مبينة لعوامل النصر، ومفعمة بالأمل وحسن المآل، ومبشرة بمصير من سبق من الشهداء وأنهم أحياء عند ربهم فرحون ومستبشرون، ثم كان التوجيه وتصحيح الخلل ولفت النظر إلى مواطنه بشكل واضح وحاسم وعملي، وفي العديد من الآيات، منها على سبيل المثال لا الحصر:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (آل عمران:١٥٥).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ ..﴾ (آل عمران:١٥٦).

﴿..فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران:١٥٩).

وتختم السورة بالتوجيه الاستفاري الدائم الذي ينبه المؤمن إلى أنه ينبغي أن يظل في تلك الحالة من الجلد والرباط والعملية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران:٢٠٠).

وهكذا فعل يعقوب -عليه السلام- مع

بنيه، فعلى الرغم من أنه كان يدرك أن أنفسهم قد سولت لهم أمرا في المرة الأولى، وكذلك الثانية، ورغم أنه قد بين إدراكه لذلك وقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ (يوسف:٨٣). فإنه لم يتوقف عند هذه النقطة.

ومع الألم الشديد لفقد ولديه، والحزن الذي ابيضت له العينان، فإنه انتقل بنبل النبوة إلى الجزء العقدي والعملي بشكل مباشر فقال: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف:٨٧).

هيا تحركوا.

انتقلوا إلى ما يفيد.

أصلحوا وغيروا.

ولقد كان فعل يوسف -عليه السلام- من المشكاة نفسها، إذ قال لإخوته بعد أن عرفوا خطأهم واعترفوا ببغيهم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف:٩٢).

هكذا يكون التعامل مع الخطأ.

وهكذا تمضي الحياة، وتسير مراكب العمل، وتمر قافلة الإصلاح.

أما أن يحبس الإنسان نفسه إذا أخطأ في سجن الخطأ، أو أن يصر لائمه على حبسه خلف قضبان الإذلال بهذا الخطأ وتحميله مسؤولية كل كارثة حدثت وتحدث، فتلك مسالك الضعفاء الذين لا يستطيعون المضي قدما، ولا التفكير بشكل عملي.

شتان الفارق بين النفسيات النبيلة، والعقليات العملية، التي تتجاوز أسوار المزايدة وقضبان الجلد الدائم والمستمر للمخطئ، لتنطلق إلى الهدف، وتصل إلى المراد، وهو التغيير للأفضل. وبين تلك النفوس السادية المريضة، والأخلاقيات الناقصة البغيضة، التي تصر على جلد المخطئ بسياط اللوم اللاذع، ودفنه حيا في غيابات الندم وتعذيب النفس.

لقد حاول فرعون أن يفعل مثل ذلك مع موسى -عليه السلام.

حاول أن يحبسه خلف أسوار الخطأ، وأن يقيده بأغلال الإذلال بالزلل، ويسجنه داخل قضبان المزايدة واللوم والتقريع، فقال: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ (الشعراء:١٩). (يقصد وكز المصري الذي تبعها موته).

ولقد كان من الممكن لنبي الله موسى -عليه السلام- أن يرد بردود كثيرة يبرر بها مقتل الرجل المصري.

كان من الممكن أن يبين أنه قتل خطأ، وأنه لم يكن يقصد قتله.

وكان من الممكن أن يوضح أن الرجل كان معتديا صائلا، وأنه إنما كان يدفعه وحسب.

وكان من الممكن أن يربط الأمر بجرائم فرعون الكثيرة في حق قوم موسى من تذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم.

كان من الممكن أن يقول الكثير والكثير.

لكنه لم يفعل.

لم يستدرج إلى مراء التبرير، وتضييع الوقت في متاهات الجدال، والأهم أنه لم يتوقف خلف أسوار الخطأ، أو يقبل أن تحبسه قضبان الزلل.

إنه صاحب رسالة جاء لمهمة، وإن لديه هدفا عليه أن يحققه.

لقد تجاوز تشغيب فرعون باعتراف مباشر حاسم فاصل تحمل فيه المسؤولية قائلا: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (الشعراء:٢٠).

نعم، قد فعلت، ولن أقف طويلا مع هذا الأمر، أو أدفع عن نفسي شيئا قد حدث، وقد دفعت ثمنه بالفعل، ونفيت بسببه سنين عددا، بعد أن تآمرتم لقتلي من دون تحقيق أو تبين.

فعلها، وتاب عنها، واستغفر في حينها، ودفع الثمن من سنين غربته وإبعاده.

فعلها إذن ولم يبررها أو يزينها، ثم عبر إلى الأهم.

لم يضيع الوقت في غيابات التبريرات، ولم يستسلم لقيود الإذلال والمزايدات، بل ذهب مباشرة إلى هدفه الذي يعلو على الأشخاص والأحداث، ويسمو على التفاصيل والزلات.

وكذلك حامل الرسالة: لا ينشغل طويلا إلا بهدفه، ولا ينفق وقته ويضيع حياته القصيرة في التبرير، الذي يصل -أحيانا- إلى تزيين الخطأ وتحسينه لدرجة قد تؤدي في النهاية إلى ضياع الهدف الأصلي وطمس الثوابت وتواري الحق.

كثيرا ما يكون الطريق الأقصر هو اعتراف المرء بالخطأ، والاستعداد لدفع ثمنه وتحمل مسؤوليته، والسعي لإصلاحه، ثم الانتقال إلى الأهم والأنفع بدلا من تضييع الأعمار والثوابت في التبرير والتزيين.

إن المخطئ إذا ندم وعرف موطن الخلل والزلل وتحمل نتائج أخطائه، فعليه ألا يظل بعد ذلك حبيس هذه الأخطاء وإلا تحول الخطأ إلى حالة من الماسوشية (حب تعذيب النفس واستمراء جلدها)، مما يؤدي إلى بقائه في مكانه سجين «بطحته» التي في رأسه.

وأما المعاتب أو الناقد، فعليه أن يكون خير آخذ، وألا تنحصر علاقته بالمخطئ في تعذيبه بالخطأ وتعليق كل مصيبة على شماعة زلته أو خطئه، فينتقل الناقد من حيث لا يشعر إلى حالة من السادية (حب تعذيب الآخرين)، ويظل في ذلك القصور القيمي والأخلاقي والنظرة اللاعملية التي لا تسمن ولا تغني من جوع.

فليدفع المخطئ ثمن خطئه بالعدل، وليقتصر النقد والتلاوم على التعريف بمحل الخطأ وبيانه لعدم العودة إليه، ثم ليتجاوز المخطئ والناقد تلك القضبان ولينطلقا إلى رحابة العمل وسعة التغيير والإصلاح.

ليتجاوزا تلك السدود والجدران، ولا يقبعا طوال حياتهما خلف تلك الأسوار. أسوار الخطأ.

الإسلاميون وامتحان الدولة:

نحو نماذج بديلة في التحول المجتمعي

التحرير

عقدت مجلتا «تركيش روفيو» و«حراء» منتدى المفكرين العرب والأتراك، يومي ١٧-١٨ فبراير الماضي في إسطنبول، تحت عنوان «الإسلاميون وامتحان الدولة: نحو نماذج بديلة في التحول الاجتماعي»، بحضور نخبة من العلماء والكتاب والباحثين من مختلف الأقطار العربية والإسلامية. وقد التقى وفد من الـ«الوعي الإسلامي» برئاسة رئيس التحرير فيصل يوسف العلي بالقائمين على المؤتمر لتبادل الآراء والمناقشات.

وأكد المؤتمرون أن الجميع ينطلق من مبادئ الحرية، والعدالة، ونبذ الظلم.. لكن الاختلاف يكمن فقط في التنزيل، وفي التوصيف، وفي إسقاطه على خط الزمن، موضحين أن الكل يدعو إلى الجلوس للتشاور والحوار أكثر، وممارسة التداول وإعمال العقل الجمعي.

وقالوا إن الجميع يرجو «التوافق» ويدعو إليه، ويجد الخيار الأفضل هو «الصلح»، والصلح خير.. غير أنه كيف يتم ذلك: هل مع محاربة الفساد؟ وهل بالسكوت عنه؟ وهل بإضعاف طرف على حساب آخر؟

وفي الجلسة الأولى «امتحان المسلمين بالدولة» أوضح الأكاديمي التركي د.إحسان يلمز أن أكبر امتحان هو العلاقة بين الدولة والفرد، وضمان الحقوق العامة بالمساواة، لأن الربيع العربي يطرح علينا العديد من الإشكالات في هذا السياق، مثل طرح النقاشات التراثية، من قبيل دار الإسلام ودار

الكفر.. وحقوق أهل الذمة.

في المقابل قال الباحث المغربي د.سمير بودينار إن هناك ثلاث خصائص للنموذج المجتمعي:

- يعتبر الإنسان منطلقا وغاية.
- الوعي التاريخي الأعلى، عبر خطي الزمن الماضي والمستقبل.
- مراعاة المجتمع وخصوصياته الحضارية، كمحددات لغاياته وأهدافه.

وأوضح بودينار أن النموذج المقابل، وهو الذي تأسس مع الدولة الحديثة، نسميه، نموذج السلطة السياسية: جوهره هو الدولة الحديثة، ومن سماته: العلاقة بالناس ككتلة في حاجة للتوجيه، خاصية الإعجاب، نموذج مرتبط بالتدبير المرحلي، السلطة غاية وأداة مركزية للتغيير..

من جانبه أكد الباحث التونسي عبدالستار رجب أن مقولة امتحان الإسلاميين، هي مصادرة على الواقع، واقتراح تجربة عوضا منها، وملاحظة أن المفاضلة بين نموذجين لا تأتي إلا من مدخل التغيير، والتغيير لا يطرح إلا من خلال المؤسسة، من أي طابع كان، وقد انتقل الإسلاميون من الأطراف إلى المراكز، يجب أن نتخلص من ضغط الزمن السياسي.

من جهته قال أحمد قلعول: إن الكل مبتلى بامتحان السلطة، وأن هذا الموضوع ليس فيه نصوص وتشريعات واضحة، وهذا المجال مجال عفو، وأن من عجائب الإسلام تأسيسه لمسؤولية الإنسان على نقائصه، موضحا أن الدولة الحديثة أقدر على تنميط الناس، وجزء من المنظومة الديمقراطية فيها حد واسع من الفساد مسموح به، ويكشف في حالات الصراع الحادة فقط، فنحن في حقل الصراع ولسنا في حقل التوافقات.. ولذا فنحن في حالة صحية، وعملية الإصلاح مؤلمة.

من جانب آخر أكد محمد جبرون من المغرب أن هناك إيقاعات متباينة، فالصفاتية والشكلانية هما مدرستان حول الدولة الحديثة.. والذي لم أستسغه هو التناقض بين الدولة الحديثة والعمل المجتمعي.. أي عن حتمية الصراع، موضحا أن المشكلة هو ما قد نرتبه من أحكام وتصورات، فهناك صورة سوداوية للسياسي، وهي صورة لابد من تغييرها.. المبادئ لا تمارس مجردة، لابد من فقه.

وأخيرا أوضح الباحث مصطفى يشيل أن المتدين الحقيقي لا يكون سياسيا أبدا، والسياسي لا يكون متدينا أبدا، كما قالها من قبل بديع الزمان، لافتا إلى أن الأستاذ فتح الله كولن له مقولة معروفة: لا تتركوا أي كلمة ستندمون عليها.. ولا تنسوا أن الجدال القولي والرد الكلامي لا يتوافق مع مرضاة الله تعالى... اصبروا واعتمدوا على الصبر.. وأنتم أبناء العمل الإيجابي فافعلوا.

الحرية والبناء الحضاري

السنوسي محمد السنوسي
باحث وصحفي

لئن كان المفكر الجزائري مالك بن نبي قد صاغ معادلته الشهيرة، التي خلص فيها إلى أن «الحضارة» هي ناتج: الإنسان + التراب + الوقت؛ وأن تلك المعادلة تحتاج لمزج عناصرها وإحداث التفاعل بينها إلى ما أسماه «مركب الحضارة»، والذي يتمثل في «الدين» (١).. لئن كان مفكرنا قد خلص إلى هذه المعادلة ولم يأت فيها على «الحرية» بذكر، فإنني أعتقد أن ذلك ليس غفلة منه عنها، ولا تجاهلا لمكانتها كإحدى ركائز البناء الحضاري؛ بل أتصور أن السبب في ذلك أنه قصد إلى وضع معادلة للحضارة في جو قد توافرت فيه الحرية ابتداء، وإلا فهل كان تحذيره ودعوته للتخلص من الاستعمار ومن القابلية له إلا لترفرف راية الحرية على الأوطان والبشر؟!

لا غرو إذن أن تكون الحرية من أهم شروط النهضة، وطرفا أساسيا في المعادلة الحضارية؛ ومن ثم، يكون لغيابها ظلال قاتمة على كل مناحي الحياة.. فبقدر أهمية وجودها ورسوخها، تكون الكارثة عند فقدانها!

وعلى مدى الأزمان التي أظلت البشرية، شغل المفكرون والفلاسفة كثيرا بتعريف الحرية، وتجلية معانيها، ووضعوا لذلك تعريفات عدة يصعب حصرها؛ غير أن الملاحظ أن معظم هذه التعريفات تدور حول قدرة الإنسان على التعبير عن ذاته، وإنفاذ إرادته. فالحرية تكاد تكون مرادفة للإرادة، لأن من لا إرادة له لا يكون حرا؛ سواء كان ذلك بشكل كامل، كما في حالة الرق، أو بصورة جزئية كما عند المكره.

جاء في «المعجم الفلسفي»: «الحرية، بوجه عام: حال الكائن الحي الذي لا يخضع لقهر أو غلبة، ويفعل طبقا لطبيعته وإرادته؛ وتصدق على الكائنات الحية جميعها، من نبات وحيوان وإنسان» (٢).

مواقف ثلاثة:

وقد انقسم الناس تجاه الحرية بوجه عام إلى ثلاثة مواقف:

الأول: وهو موقف من يزعمون الحرية المطلقة للإنسان، وأنه سيد نفسه، ولا سلطان عليه إلا ما يحدده هو لنفسه، رافضين فكرة الثوابت والمطلقات. وهؤلاء يتناقضون مع أنفسهم؛ إذ هم يقبلون بوجود قيود فيما يتصل بينهم وبين الآخرين، بينما يرفضون وجود أي نوع من القيود فيما يتصل بالألوهية، ويقولون بالنسبية في كل شيء!

أما الثاني: فأصحابه يكثرون من وضع الضوابط بزعم أنها لتنظيم ممارسة الحرية؛ حتى تتحول تلك الضوابط إلى قيود، ويتلاشى معها عمليا حق الحرية، الذي يبقى حينئذ مجرد كلام نظري تطرب له النفوس، أو بالأحرى: تخدع به النفوس، دون وجود أي أثر ملموس له في الواقع!

وأما الموقف الثالث: فهو موقف وسط بين الموقفين السابقين، وهو يعلي من الحرية وينظر إليها على أنها قيمة إنسانية كبرى، ومقصد من مقاصد الشريعة على النحو الذي فصله العلامة محمد الطاهر ابن عاشور، باجتهاد عميق(٣).. لكن هذا الموقف الوسطي يرى في الوقت نفسه أن الحرية -شأنها شأن كثير من القيم والمفاهيم- تحتاج إلى ضوابط لتنظيمها وترشيدها، ولا يمكن أن تكون بلا سقف؛ إذ هي حينئذ تؤدي لا محالة إلى العبثية والعدمية، وتتحول من كونها «وسيلة» لتحقيق إنسانية الإنسان إلى «غاية» يتخبط بها المرء في طريق الشهوات ومتاهات الأفكار!

ضوابط لا قيود:

وإذا كانت الحرية هي قدرة الإنسان على التعبير عن رغباته، فإنه ليس من المتصور أن يمضي هذا التعبير في طريقه بلا سقف؛ فإرادات الناس حتما ستتعارض وتتخالف لو أطلق لها العنان، ولذا قيل: حريتك تنتهي عند حقوق الآخرين.. هذه واحدة.

أما الثانية، فإذا كان من المقبول أن يتقيد الإنسان في حريته وإنفاذ إرادته ورغباته بحقوق الآخرين، وهم بشر مثله؛ فالأولى أن يتقيد في ذلك بحقوق الله سبحانه، وهو صاحب الخلق والأمر، وواهب النعم التي لا تحصى.

لكن ثمة فرق كبير بين الضوابط والقيود؛ فالضوابط تأتي لتنظيم حق الحرية وتنفيذه على الوجه الأفضل الذي يوازن بين كل أطراف المعادلة من حيث الحقوق والواجبات؛ بينما القيود تكون لمصادرة الحرية، حتى لو زعموا أنها من أجل إعلائها!

معرفة الله.. أصل الحرية:

إذا أردنا أن نصور الموقف الإسلامي من مفهوم الحرية، فيمكن أن نقول: إن رسالة الإسلام قد جاءت لتعطي الإنسان حريته على النحو الأمثل، ولتزيح عنه كل القيود التي كبلته.

وأكبر هذه القيود، هو عبودية غير الله سبحانه؛ فإن عبودية غير الله تورث الإنسان ذلا وصغارا، مهما تفاخر بأنه يمكنه فعل أي شيء، ومهما أعلن أنه شب عن الطوق.. فمن كان أسير شهواته ونزواته، أو اعتقد في أحجار لا تضر ولا تنفع؛ فهو عبد حتى لو كان سيدا يملك العبيد!

جاء الإسلام وحطم هذا القيد، وفتح للإنسان آفاقا غير محدودة في النظر والتفكير، وفي تحرير العقل والإرادة، وأمره بقراءة كتاب الكون، والتدبر في بديع صنع الله؛ حتى إذا آمن بالله خالق الكون وما فيه، كان إيمانه جازما لا يتزعزع، ويقينه ثابتا لا تردد فيه. وبينما كان يقال للآخرين «اعتقد وأنت أعمى»، كان شعار الإسلام: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾(البقرة:١١١)، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾(سبأ:٤٦).

كما أن الإسلام من ناحية أخرى، قد أضاف للحرية معنى عميقا حين نبه على أن الحرية شعور نفسي مثلما هي سلوك يتجه نحو الآخرين؛ ولذلك ورد في الحديث -في مقام الذم- نسبة العبودية إلى من يجعل المال غايته الكبرى، فقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تعس عبدالدينار والدرهم والقطيفة والخميصة؛ إن أعطي رضي، وإن لم يعط لم يرض».

فالعبودية لله سبحانه هي أصل الحرية؛ إذ هي تحرر الإنسان من الوقوع في أسر الشهوات والرضوخ لرغبات النفس، كما تحرره أيضا من الاستسلام لقهر الآخرين وتسلطهم، وتجعل من مقاومة الظلم فريضة يأثم الإنسان إن فرط فيها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾(النساء:٩٧).

إن دينا يجعل من الجهر بكلمة الحق عبادة، ومن الموت في سبيلها شهادة، لهو جدير بأن يسمى «دين الحرية».. وإن الله الذي سخر للإنسان الكون وما فيه، بسمائه وأرضه، ببره وبحره، بشجره

وحجره، لا يرضى بأن يكون الإنسان عبدا لغيره سبحانه؛ ولذلك فإن عبارة الإمام محمد عبده: «الإنسان عبد لله وحده، وسيد لكل شيء بعده»، توجز القضية وتوضحها أفضل ما يكون الإيجاز والتوضيح.

مبادئ لا تفصيلات:

كذلك كفل الإسلام كل أنواع الحريات، الاقتصادية والسياسية والفكرية وغيرها.

● ففي الحريات الاقتصادية قرر الإسلام حرية التملك، وجعل موت الإنسان من أجل الحفاظ على ماله شهادة، فجاء في الحديث الصحيح: «ومن قتل دون ماله فهو شهيد»(أخرجه أبوداود والترمذي من حديث سعيد بن زيد)... وفي المقابل، لم ينس الإسلام نصيب الفقراء في مال الأغنياء، بل سماه «حقا» وليس مجرد منة يتفضل بها الأغنياء.

● وفي الحريات السياسية أعلى الإسلام من إرادة الأمة وجعل لها الحق في اختيار الولاة والحكام ومحاسبتهم، بل وجعل إرادة الأمة في مجموعها معصومة، ففي الحديث: «إن الله تعالى قد أجار أمتي أن تجتمع على ضلالة»(حسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم ١٧٨٦). وبذلك كان الإسلام وسطا بين من يقولون بنظرية «الحكم الإلهي» والتي يكون فيها الحاكم معصوما نائبا عن الله؛ إذ لا عصمة إلا للأنبياء والرسل.. وبين من يقولون بـ«الحكم المطلق» الشمولي ويرسخون للديكتاتوريات التي لا تعرف مراقبة الحكام ولا محاسبتهم. فجعل الإسلام الأمة نائبة عن الله، والحاكم نائبا عن الأمة، توليه وتراقبه وتعزله (٤).

• أما حرية الفكر والاعتقاد، فإن الآية الكريمة ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ (البقرة:٢٥٦)، هي من مفاخر الإسلام التي أهداها للإنسانية، وهي آية محكمة لا صحة لما قيل عن نسخها(٥).

وقد كانت الحضارة الإسلامية شاهدة على التسامح والاستيعاب الذي شمل به الإسلام غير المسلمين داخل نسيج المجتمع الإسلامي، ماداموا مسالمين لم يبدأوا بعدوان، ولم يتآمروا مع عدو؛ حتى نبغ عشرات اليهود والنصارى في سماء الحضارة الإسلامية، وتقلدوا مناصب عالية في إدارة الدولة (٦).. وحين ضاقت إسبانيا باليهود بعد سقوط الأندلس في يد النصارى، لم يجد اليهود لهم ملجأ إلا أحضان الدولة العثمانية، فآوتهم بعد أن كادوا يمحون من التاريخ ويكونون نسيا منسيا!!

● غاية ما هنالك في شأن الحريات التي قررها الإسلام -سواء في الجانب السياسي أو الاقتصادي أو غيرهما- أنه قد اكتفى في الغالب بتقرير قيم ومبادئ؛ مثل: الشورى، العدل، الحرية، حرية العمل والتملك، حرمة المال الخاص والعام، احترام إرادة الأمة، والحفاظ على كرامة الإنسان من حيث هو إنسان.. وترك للناس حرية تنظيم تلك القيم والمبادئ بما يتوافق مع منجزات العقل البشري في كل عصر ومصر؛ حتى لا يشق على الناس ويوقعهم في العنت والحرج إن هو ألزمهم بصورة واحدة ثابتة لا تتغير. فالمهم أن تظل القيم والمبادئ العامة مصونة من الجور والاعتداء بأي صورة من الصور، وللناس بعد ذلك أن تبدع ما شاءت من أساليب

وتفصيلات.

الحرية أساس الحضارة:

لما كان الإنسان عماد الحضارات، هو الذي يصنعها ويشيد أركانها ومعالمها، فإن الحضارة من دون الإنسان تبقى كومة من القش والمعادن.

وما ينبغي أن نلتفت إليه هنا هو أن الإنسان -صانع الحضارات- لا قيمة له من دون الحرية! فالحرية هي التي تفجر فيه طاقات العمل والإنتاج والإبداع، وتحفزه إلى البذل والعطاء.. وهل يستطيع مقيد اليدين أن يضع لبنة فوق أخرى؟!

إن الإنسان بالحرية يمكنه أن يتذوق إنسانيته، ويشعر بكينونته، ويدرك أن له دورا في الحياة. ولذلك لما طلب من عنترة العبسي أن يدفع عن قومه، قال لأبيه: العبد لا يحسن الكر، إنما يحسن الحلاب والصر. فقال له أبوه: كر وأنت حر!

هذه إذن -باختصار- العلاقة بين الإنسان والحرية؛ ومن ثم، بين الإنسان والحضارة.

وإذا كنا نتساءل كثيرا عن أسباب الفجوة الحضارية الهائلة بين عالم الإسلام والغرب اليوم، فإن مما لاشك فيه أن أحد أهم أسباب تلك الفجوة هو تمتع الغرب بحساسية شديدة تجاه ما يكبل الإنسان، ويكبت طاقاته.

صحيح أنهم ذهبوا هناك في تحقيق الحرية إلى ما بعد الخطوط غير المسموح بتجاوزها، لكن لا يمكن أن يكون البديل هو انخفاض سقف الحرية إلى ما دون الخطوط غير المسموح بالتنازل عنها!

فمتى نصنع لأنفسنا نموذجا يجمع في وسطية واتزان بين الحرية والمسؤولية.. بين إشباع رغبات النفس والعبودية لله.. بين الإبداع والالتزام.. بين الحقوق والواجبات.. بين حقوق الوطن من جهة وحقوق المواطنين من جهة أخرى؟

ذلك هو التحدي الحضاري الذي يفرضه علينا سؤال الحرية!

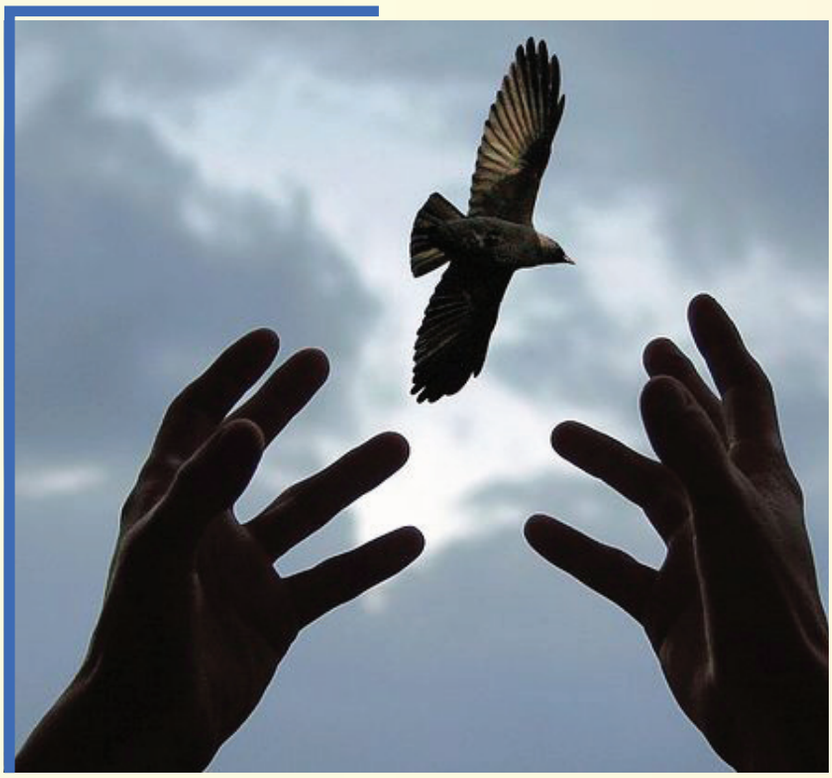

هوامش

١- راجع كتابه: شروط النهضة، ص: ٤٥، ٤٦، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبدالصبور شاهين، طبعة ١٩٨٦م، دار الفكر، دمشق.

٢- المعجم الفلسفي، وضع مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ص: ٧١، المطابع الأميرية، بدون رقم الطبعة، ١٩٨٣م.

٣- منذ أن وضع الإمام أبوإسحاق الشاطبي (المتوفى في غرناطة عام ٧٩٠هـ) كتابه «الموافقات في أصول الشريعة»، ومقاصد الشريعة محصورة في «الكليات الخمس»، وهي: حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ العرض، وحفظ المال. إلى أن جاء الشيخ ابن عاشور (المتوفى سنة ١٣٧٩هـ) فأضاف إليها مقصد الحرية.

٤- راجع المزيد في: نظام الحكم في الإسلام، د.محمد يوسف موسى، ص: ١٠٠، دار الفكر العربي، بدون تاريخ. «النظريات السياسية الإسلامية»، د.محمد ضياء الدين الريس، ص: ٢١٢، مكتبة دار التراث، ط٧، بدون تاريخ. «هل الإسلام هو الحل؟ لماذا وكيف؟»، د.محمد عمارة، ص: ١١٢، دار الشروق، ط٢، ١٩٩٨م.

٥- خلص د. مصطفى زيد إلى أنه لا صحة لما قيل عن نسخ هذه الآية بما تسمى «آية السيف»، فقال رحمه الله: «إن لفظ الآية عام في نفي جنس الإكراه، والتعليل الذي ذكرته لهذا النفي -أو النهي- عام أيضا؛ ونعني به قوله: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾. وهذه الآية تقرر مبدأ لا ينبغي أن يدعى عليه النسخ بحال؛ إذ هو من المبادئ التي يعتز بها الإسلام في تاريخه الطويل، وهو الدين الذي حرر النفس من ربقة الهوى، ورباً بالعقل عن عبودية التقليد». انظر له: «النسخ في القرآن، دراسة تشريعية تاريخية نقدية»، ٢/ ٥١٢، ٥١٣، دار الوفاء، ط٣، ١٩٨٧م.

٦- راجع عشرات الأمثلة على ذلك، في: «عالمية الإسلام»، د.شوقي ضيف، ص: ٢١، طبعة خاصة من «دار المعارف» ضمن «مكتبة الأسرة»، ١٩٩٩م. و«حضارة العرب»، جوستاف لوبون، ص: ٢٦٧، ترجمة عادل زعيتر، طبعة مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠م.

الحرية الشخصية فطرية أم متعلمة؟

د. آندي حجازي
أكاديمية من الأردن

لو خيرت بين أن تكون ملكا يعيش في قصر عظيم، فائق الرفاهية والخدمات، يمتلئ بما تلذ به الأعين، وتشتهي إليه النفس، محاط بحديقة غناء جميلة، ويطلع عليك صباح مساء خدم وحشم، يسألونك حاجتك، ويعملون على تنفيذ رغباتك، لا شغل لهم غير إسعادك وتلبية حاجاتك، ولكنك ملك حبيس، مقيد الحرية، لا يسمح لك أن تغادر ذلك القصر طيلة حياتك، فعليك التنعم بتلك الحياة وبكل وسائل الرفاهية والترفيه والتكنولوجيا لكن داخل حدود ذلك القصر الواسع وحدائقه المحيطة فقط، فلا تخرج إلى شارع، ولا تسافر إلى بلد، أو تزور أحدا خارج قصرك، وأنت تصدر قراراتك وأوامرك من داخل قصرك... وبين أن تعيش في بيت فقير بسيط متواضع، لديك قوت يومك ترزقه يوما بيوم، ولا تملك وسائل الرفاهية الكافية، لكنك تملك حرية شخصية لتفعل ما تشاء، وتأتي وتذهب كيفما تريد، داخل بيتك وخارجه، وتسافر وتتنقل كما ترغب، فأنت بكامل حريتك الشخصية مدى حياتك.. فأيهما تختار وسط هاتين الصورتين؟

أعتقد أن الأعم الأغلب من البشر سيختارون الصورة الثانية من الحياة البشرية. لماذا؟ أتصور السبب هو أن الحرية الإنسانية لا تقدر بثمن، فمهما أعطي الإنسان من نعيم، ولو كان ملكا منعما، ولكنه كان فاقدا للحرية حبيس بيته، فليس لكل تلك الأموال والخدمات قيمة حينئذ! في مقابل أن يشعر الإنسان بإنسانيته، وأنه حر طليق وكريم النفس ومحترم الوجدان ومقدر القدرات والمواهب، ليس كحيوان حبيس قفص ينتظر من يطلق صراحه أو يطعمه طعامه!

مفهوم الحرية في الإسلام

إن الحرية الشخصية للإنسان حق كفلته جميع الشرائع السماوية والقوانين البشرية، يجعل الإنسان يمتلك حق تقرير مصيره، وحق اتخاذ قراراته الشخصية، وحق التملك، وحق الكرامة وعدم الامتهان، وحق التعلم والتعليم، واختيار العمل، والاتصال والتواصل مع الآخرين، وحق اختيار الحاكم، وحق البيع والشراء، والسفر والتنقل في الأرض، وحق اختيار المأكل والملبس، واختيار الزوج أو الزوجة.

ولكن هذه الحريات لم تطلق على عوامها في الإسلام (والديانات السماوية السابقة)، بل جعلها الله تعالى مقيدة بما يتوافق ومصالح البشر عامة، وبما يتوافق مع تعاليم الدين الحنيف والشريعة السماوية. فالحرية الشخصية لا تعني الاعتداء على الآخرين أو سلبهم حرياتهم الشخصية أو إطلاق العنان للشخص يفعل ما يريد من دون أي قيد أو شرط... بل جعل لذلك أساس، هو ما يرضي الله تعالى، ثم ما ينفع البشر، وكما قيل في السابق: «تنتهي حريتك،

عندما تبدأ حرية غيرك». فمثلا: جاء الإسلام ليحرر الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، فلا يحق لأحد استعباد أحد من البشر أو إكراهه على ما لا يرغب.

والحرية التي منحها الله تعالى للفرد في الإسلام ليست مطلقة، بل هي محددة بالقاعدة الشرعية: «لا ضرر ولا ضرار»، أي حريتك لا تعني الضرر لنفسك والإضرار بها، فلا يمكن لك التدخين أو تعاطي المخدرات والمسكرات بدعوى «أنا حر بنفسي وبجسدي»، فهذه حرية لا تتوافق مع الشريعة وغاياتها التي لأجلها أتيحت الحرية للإنسان، فلا يمكن أن نطلق عليها حرية شخصية. وكذلك لا ضرار، أي لا اعتداء على الآخرين، فمثلا: لا يضرب الأب أبناءه، أو يقتل الشخص صديقه، أو يسرق الأخ أخاه، أو المدير شركته، أو الحاكم بلده، بدعوى أنه حر يفعل ما يريد وأن لا أحد يحق له مساءلته! فهذه حرية مغلوطة الفهم، بها ضرر بالآخرين، «والحرية لا ضرر ولا ضرار».

والحرية التي أعطاها الله تعالى لعباده تسمح لهم باختيار طريقهم وأعمالهم وكلماتهم وسلوكياتهم في الحياة، وإلا فلم يحاسب الله تعالى عباده إن سلبهم حرية الإرادة، والاختيار، والعمل فمثلا: الملائكة يعبدون الله تعالى بلا اختيار، لأن الله تعالى خلقهم لأجل ذلك، فهم غير محاسبين على أفعالهم، ليسوا كالبشر، الذين سمح الله لهم بحرية الاختيار والانتقاء واتخاذ القرار وتقرير مصيرهم بأنفسهم، وبالتالي سيحاسبون على أفعالهم وما يصدر منهم.

والحرية في الإسلام هي أسمى من مفاهيم الحرية والديموقراطية التي يدعو إليها معتنقو الديانات الأخرى واللادينيون اليوم، حيث يجعلون من الحرية منطلقا لهم لتنفيذ ما تصبو إليه أهواؤهم وشهواتهم. فالحرية التي ينادون بها تسمح بحرية الزنا، وحرية العري أمام أي شخص كان، بل وأمام كل البشر، وتسمح بحرية تناول المسكرات والمخدرات وأنواع التدخين، وحرية لعب القمار والربا وإضاعة الأموال، ونهب الأموال، وحرية قتل وتعذيب من يشاءون بلا رادع يردعهم! وتمنحهم حرية التغيير في الشرائع والأحكام وفق أهوائهم ومصالحهم، وحرية التلاعب في مصير الشعوب.. فلا تقف حريتهم عند حدود! بينما الحرية الحقيقية هي كما في خاتم الديانات (الإسلام) ليست مطلقة تماما بل مقيدة بما ينفع البشر ويرضي الله تعالى الخالق الذي يعلم ما يصلح للبشر، وما ينفع الناس ولا يؤذيهم، ولا يجعل بينهم الضغينة والانتقام والحروب.

الحرية الشخصية فطرية أم متعلمة؟

هل يولد الطفل حرا؟ هل يولد الإنسان بحقوق أم منزوع الحقوق؟ هل يمكن أن نعلم الحرية؟... الحرية الشخصية للإنسان، بمفهومها العام والبسيط، أمر فطري وهبه الله تعالى لجميع الكائنات، ويؤكد ذلك قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه مخاطبا ابن عمرو بن العاص (والي مصر آنذاك) حينما اعتدى على كرامة أحد رعاياه: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟!». وما يميز حرية الإنسان عن سائر الكائنات الأخرى أن حريته موجهة بعقله وبأهدافه من أجل إعانته على تيسير أموره في الحياة والانتقاء واتخاذ القرارات وتحمل نتائجها.

ولكن الحرية البشرية الحقيقية السامية مضبوطة ومتعلمة، حيث يمكن تعليم مبادئ الحرية، والتأكيد عليها منذ الصغر في المدرسة والبيت. فالحرية الحقيقية تبدأ منذ الطفولة، وتعليمها يبدأ من اللحظات الأولى للإدراك، فيكون على الوالدين والمدرسة والمعلم دور في تدريب الطلبة والأبناء على معاني الحرية ومبادئها وأخلاقها وكيفية التمسك بها والدفاع عنها وتطبيقها في أمور حياتهم.. فمن المهم تعليم الطفل أو الطالب أن الحرية حق لك كفرد يجعلك تملك حق التصرف، وحق الاختيار، وحق التعبير عن الذات والمشاعر والأهداف والطموحات.. وأن هذه الحقوق ضمنتها لك إنسانيتك وجميع الشرائع، ما دامت من دون إيذاء للآخرين أو اعتداء عليهم.

ولو أن التدريب على الحرية المنشودة في عالمنا العربي وتعليمها يبدآن منذ الصغر وبشكل سليم ويستمران طوال سنوات المدرسة والجامعة، فإننا لن نتعرض لمشكلات كالتي نراها في واقعنا العربي اليوم، بشأن كيفية الحصول على الحرية وانتزاعها بقوة ممن سلبها منا، لأنها لن تكون قد سلبت منا بهذه الطريقة أصلا.. فمشكلة افتقاد الحرية نادرا ما نسمع بها لدى شعوب البلاد المتقدمة لأنهم تعلموا في مدارسهم وجامعاتهم معنى الحرية واحترام حرية الآخرين وحقوقهم، وخاصة لأبناء جلدتهم، لأن الحرية الحقة تعني أن أحترم حقوق الآخرين ولا أسلبهم إياها.

مقترحات لتعليم مبادئ الحرية

لتعليم مفاهيم الحرية ومبادئها للطلبة والأبناء من المهم تدريبهم في المدرسة والبيت على ما يلي:

١- حرية ترشيح واختيار القائد في الصف

وتكون بمواقف تعليمية عملية حقيقية، لتنمية مفهوم حق الانتخاب الشخصي، كاختيار قائد للصف، أو تقسيم الطلبة في مجموعات وإتاحة الفرصة لهم لاختيار القائد لمجموعتهم، واختيار قائد لرحلة يرغبون في القيام بها، وقائد عند غياب المعلم، وقائد للفريق الرياضي، وقائد لفرق العمل في المختبر المدرسي، أو قائد للتدريب على تمثيلية تعليمية.

٢- حرية التعبير

تدريب هذه الحرية يجب أن يبدأ منذ

الصغر، من لحظة دخول المدرسة أو الروضة، فيتاح للأبناء في البيت وللطلبة في المدرسة -وفي جميع المواد الدراسية، وبخاصة النظرية منها- مواقف تعليمية يطلب فيها إبداء الرأي ضمن حدود اللياقة وآداب ومهارات التواصل الاجتماعي، مع السماح بمناقشة أفكار الزملاء والتعبير عما يجول في خاطرهم ومشاعرهم دونما استهزاء أو تقليل من شأنها، بل البناء عليها ودعمها وتطويرها والمضي فيها إلى أبعد قدر من الحوار وحرية النقاش، سعيا للوصول إلى حلول للمشكلات أو المواقف أو المسائل المطروحة في المدرسة وفي عالم الواقع، وما أكثر المشكلات والمواقف حولنا. ويمكن استخدام الرسوم التعبيرية والكتابات والتمثيليات من تأليف الطلبة من أجل تحقيق هذا الهدف. ويكون دور المعلم هنا دور المنظم والميسر للحوار والمدير للجلسة للتخفيف من حدة الحوارات، تلك الحدة التي كثيرا ما نراها كسلوكيات بارزة في حوارات مسؤولينا على التلفاز، والتي غالبا ما تنتهي بما لا تحمد عقباه، لأنهم لم يتدربوا على حرية التعبير وآدابها منذ الصغر.

٣- البحث عن حلول للمشكلات

من خلال تعريض الأبناء والطلبة لمشكلات واقعية أو تخيلية، وتشجيعهم على التفكير في حلول لها وتقديمها بكل حرية وأمان، ومناقشتها مع الزملاء، والانتقاء من بينها، كمشكلات الغذاء والسكن والأمية والفقر والبطالة والماء ومصادر الطاقة وشبكات المواصلات واختيار الرئيس، ومشكلات الصحافة والإعلام، ومشكلات الأبناء والمراهقين. وهذا هو التعليم الواقعي الذي نحتاج إليه، لأن الطالب سيخرج يوما إلى واقع الحياة فيواجه مشكلات حقيقية كالتي تنتشر اليوم في عالمنا العربي والتي لا تنتهي، والتي لا تنفع معها الحلول باستخدام الصراخ والشتائم والحوارات العقيمة وإراقة الدماء.

٤- حرية الانتقاء واتخاذ القرار

وهي الحرية العملية التي تنمي لدى الأبناء القدرة على اتخاذ القرارات الواقعية، فمثلا: نسمح للطلبة بحرية اختيار المكان الذي يرغبون في الذهاب إليه في رحلة مدرسية، أو في اختيار مواضيع الإذاعة الصباحية، أو ترتيب جدول امتحاناتهم المدرسية، وانتقاء دروسهم التي يرغبون في دراستها. واختيار الأطعمة التي يرغبون في وجودها في مقصف المدرسة، واختيار الألعاب الرياضية التي يرغبون في المشاركة فيها وتعلمها، وانتقاء اللجنة المدرسية التي يفضلون المشاركة فيها، واقتراح أنشطة مدرسية.

٥- احترام حقوق الآخرين

وهذا مطلب مهم تعليمه وتدريب الطلبة عليه طوال سنوات الدراسة والطفولة، لأن من ينتزع الحقوق من الآخرين، كحق اختيار الديانة أو حق العبادة أو العمل أو التعليم أو اختيار الرئيس، هو في الحقيقة شخص متعجرف، أناني، وصولي، انتهازي، لم يتعلم أن الآخرين هم بشر مثله، لهم حقوق وكرامة يجب احترامها، وضرب الله تعالى المثل بفرعون وكيف كان يعتدي على حقوق الآخرين، فيرى نفسه فوق البشر، له الحق في التصرف والاعتداء على الآخرين كما يشاء، بل وطلب منهم عبادته! واستمر الأمر على هذه الحال -زمن فرعون- من امتهان لحقوق العباد إلى أن من الله على عباده المستضعفين بالحرية: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ (سورة البقرة:٤٩). ومن هنا نرى إن لم نعلم أبناءنا احترام الآخرين فسينتج لدينا المئات بل الآلاف من نماذج فرعون الطاغية يعتدون على حقوق العباد والبلاد بلا رحمة.

٦- تعليم مفاهيم الحرية في الإسلام

تعليم الأبناء (اعتمادا على القرآن الكريم والسنة الشريفة والسيرة النبوية) أن الإسلام أتاح للبشر حرية التملك، وحرية الترشح للقيادة، وحرية انتخاب القائد، وحرية اختيار الزوجة والزوج، وحرية التنقل والسفر والعمل والتجارة، وحرية التعبير عن الآراء والأفكار... كما في غزوة بدر عندما سأل أحد الصحابة عند نزولهم وراء بئر بدر: أهو منزل أنزلك الله إياه أم هو الرأي والمشورة؟ فكان جواب رسول الله ﷺ: «بل هو الرأي والمشورة». فكان الرأي أن ينزلوا أمام بئر بدر فيشرب المسلمون ويقطعون الماء على الكفار، فكانت الفكرة من أسباب النصر. فحرية التعبير متاحة في الإسلام.. بما يرضي الله تعالى. وتعليمهم كيف حث الإسلام على تحرير العبيد والأرقاء، وجعل كفارة العديد من الأخطاء تحرير رقبة مؤمنة.. وكيف عامل الإسلام أتباع الديانات الأخرى بمنتهى الرقي والعدالة والحرية الإنسانية، فسمح لهم بإقامة شعائرهم والعيش بطمأنينة بين المسلمين، فما عليهم سوى دفع مبلغ من المال (الجزية) مقابل حصولهم على الحرية والأمان في ظل الدولة الإسلامية، وجعل لهم حرية اختيار الدين والعقيدة وممارسة شعائرهم، تطبيقا للقاعدة السماوية: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ (البقرة:٢٥٦).

وأخيرا، تعليم الأبناء معاني الحرية السياسية في الإسلام والتي لا تتعارض مع الديموقراطية اليوم، والتي تدعو إلى حرية اختيار حاكم البلاد واختيار أعضاء المجالس النيابية.. وخير دليل على ذلك أنه وعند اقتراب أجل رسول الله لم يعين خليفة له بل ترك الأمر للمسلمين، يختارون من يرغبون بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، وكذلك سار على نهجه أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

«تحرير المرأة في عصر الرسالة» لعبدالحليم أبو شقة

التحرير

كتاب «تحرير المرأة في عصر الرسالة» لعبدالحليم محمد أبي شقة، طبع وانتشر في كثير من بلدان العالم، وأصبح مرجعا في بعض جامعات الدول العربية.

وأقيمت لهذا الكتاب وللفكر الذي يطرحه احتفالية كبيرة في مصر، بعد وفاة المؤلف، شارك فيها بعض المفكرين الذين أثنوا على الكتاب ومنهجه في طرح قضايا المرأة، حيث اعتمد المؤلف فيه على نصوص القرآن الكريم وصحيحي البخاري ومسلم، مما يتعلق بالمرأة، وصنفها وعنونها وعلق على بعضها.

ويذكر صاحب موقع الدرر السنية أن كتاب تحرير المرأة يتكون من ستة أجزاء: الجزء الأول، تناول فيه المؤلف معالم شخصية المرأة المسلمة من خلال ثمانية فصول هي:

بعض معالم شخصية المرأة في القرآن الكريم، ومواقف طيبة للمرأة في القرآن الكريم، وبعض معالم شخصية المرأة في صحيحي البخاري ومسلم.

ثم مواقف نسائية كريمة، ونماذج من قوة شخصية المرأة المسلمة وحسن إدراكها لحقوقها وواجباتها.

ثم تعرض لشخصيات نسائية محددة، ذاكرا أحاديث صحيحة عن شخصية المرأة أساء البعض فهمها وتطبيقها. وأخيرا، تعقيبات على معالم شخصية المرأة المسلمة.

الجزء الثاني، تناول فيه مشاركة المرأة المسلمة في الحياة الاجتماعية.

وتحدث فيه عن دواعي مشاركة المرأة المسلمة في الحياة الاجتماعية في عصر الرسالة.

ثم تكلم عن آداب اشتراك المرأة المسلمة في الحياة الاجتماعية ولقائها الرجال.

ثم مشاركة المرأة في الحياة الاجتماعية في عهود الأنبياء عليهم السلام.

وذكر لقاء نساء النبي ﷺ الرجال في مجالات الحياة قبل فرض الحجاب.

ثم وقائع مشاركة المرأة المسلمة في الحياة الاجتماعية في عصر الرسالة.

ثم مشاركة المرأة المسلمة في العمل المهني، والمعالم الشرعية للمشاركة.

وأخيرا، مشاركة المرأة المسلمة في النشاط الاجتماعي والمعالم الشرعية للمشاركة، مع مشاركة المرأة المسلمة في النشاط السياسي والمعالم الشرعية للمشاركة.

وتحت عنوان «حوارات مع المعارضين لمشاركة المرأة في الحياة الاجتماعية»

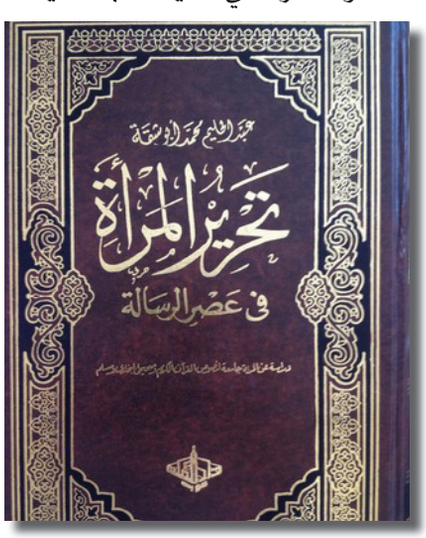

تناول المؤلف ثلاثة فصول، هي: الاعتراضات على أدلة مشروعية المشاركة واللقاء،

ثم حوار حول أدلة تساق لحظر المشاركة واللقاء، ثم حوار حول بعض أقوال للمعارضين، ثم حوار حول الحجاب الوارد في قوله تعالى: ﴿ فَسْئَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ (الأحزاب:٥٣)، وإثبات خصوصيته بنساء النبي ﷺ، ثم حوار حول الغلو في تطبيق قاعدة سد الذريعة.

أما الجزء الرابع فتناول لباس المرأة المسلمة وزينتها عند لقائها الرجال الأجانب. ومما ذكره: الشرط الأول في لباس المرأة ومعالم ستر بدنها في القرآن الكريم، كما ذكر أن سفور وجه المرأة كان هو الغالب في مجتمع المسلمين على عهد النبي ﷺ.

وتناول قرائن إضافية على مشروعية سفور وجه المرأة، ثم اتفاق الفقهاء المتقدمين على مشروعية سفور وجه المرأة.

وناقش النقاب بين الجاهلية والإسلام.

وناقش الجزء الخامس مكانة المرأة المسلمة في الأسرة، متعرضا لشأن الزواج في شريعة الإسلام والحقوق المتماثلة للزوجين. وتناول في الجزء السادس الثقافة الجنسية بين الزوجين، والحياء، وتيسير الشريعة مجالات ممارسة المتعة الجنسية وفنون الاستمتاع.

مغالطات في «الحرية بين الغرب والإسلام»

محمد إلهامي
باحث في التاريخ والحضارة

يقدم الغرب نفسه على أن أرض الحرية «في داخله»، وأنه راعيها، وحامل لوائها، والمدافع عنها «في كل العالم». وكذلك يراه التغريبيون من بني قومنا. فلئن صح أن الغرب يرى نفسه كذلك، عن حق أو عن باطل، فهل يصح أن يراه قوم مسلمون كذلك؟!

لقد اضطر التغريبيون في بلادنا إلى اعتماد مغالطات منهجية عديدة في سبيل نشر هذه الفكرة. هذه السطور عرض لأهمها:

التعميم والتخصيص

إذا أطلقت كلمة «الحرية» فستشمل أربعة معان: حرية النفس، حرية الفكر والاعتقاد، حرية الأخلاق، الحرية السياسية.

الأولى لم تعد موضع نقاش في عصرنا هذا، إذ لم يعد ثمة عبيد، بمعنى امتلاك بشر لبشر آخرين. والثانية ليس فيها موضع نزاع بيننا وبينهم إلا في موضوع حرية الكفر والارتداد ونشر قيم تُناقض الإسلام. والثالثة موضع النزاع فيها كبير، والتناقض فيها ظاهر، إذ لا تقبل مجتمعاتنا الإسلامية الانفلات الأخلاقي والإباحية التي وصل إليها الغرب، ولا حتى واحدا على الألف منها. والرابعة هي التي يمثل فيها الغرب نموذجا مغريا، إذ إن كل نفس شريفة تتوق إلى التخلص من الاستبداد والطغيان، وتحب أن يكون لها الحق في اختيار من يحكمها، ومراقبته، وعزله إن لزم الأمر.

ومن هنا تأتي المغالطة الكبرى: تمييع المساحات بين هذه المعاني الأربع، وتقديم الحرية -بمعناها السياسي المضاد للاستبداد- كرأس حربة لتسويق كل المعاني الأخرى: حرية الكفر والارتداد ونشر ما يناقض الإسلام من أفكار وسلوك وانفلات أخلاقي. وكانوا من انعدام الحياء بحيث كرروا أنه لن نصل إلى التقدم الغربي في العلم وفي السياسة إلا إن اعتنقنا وأنفذنا في عالمنا حرية الكفر والارتداد والإباحية وسائر ما يناقض ديننا، الذي تحول -في كلامهم- إلى «تراث ينبغي التخلص منه ونبذه». وهذا المعنى مما يتفقون عليه في الجملة، وإن صاغه كل واحد منهم بحسب جرأته والبيئة من حوله.

وأعظم دليل على هذا، أن كل النخب المتغربة في بلادنا الإسلامية إنما نشأوا تحت رعاية الاستبداد في بلادنا، ولم يقفوا يوما مع حرية الشعوب، بل كانوا في ركاب المستبد على طول الخط. وقد مكنهم المستبدون من منافذ الثقافة والتوجيه والنشر حتى صاروا مع الاستبداد كيانا واحدا أو على الأقل حلفا واحدا.

ومع ذلك، فما زالوا يتغزلون في الغرب ويتحدثون عن الحرية!

اللحظة والتاريخ

فإذا قصرنا الحديث عن المعاني المحمودة التي يتفق عليها الناس من كلمة «الحرية»، فنحن بإزاء مغالطة أخرى، إذ إن التغريبيين في بلادنا يعتمدون مقارنة عجيبة بين اللحظة الغربية الحاضرة وبين التاريخ الإسلامي الطويل، فلا هي مقارنة اللحظة الحاضرة بين الغرب وبلاد المسلمين، ولا هي مقارنة التاريخ الإسلامي بالتاريخ الغربي.

وكيف يفعلون؟! ولو فعلوا لكانت فضيحة! إذ من الثابت المعروف أن تاريخ الغرب في باب الحريات من أسوأ التواريخ، في اللحظة ذاتها التي ضرب فيها المسلمون نموذجا فذا تعلم منه الغربيون، تقول كارين أرمسترونغ: «كان المسلمون يسمحون للمسيحيين، مثلما يسمحون لليهود، بالحرية الدينية الكاملة في أرجاء الإمبراطورية الإسلامية، وكان معظم أهل إسبانيا يعتزون بانتمائهم إلى تلك الثقافة الرفيعة، فقد كانت تسبق سائر أوروبا سبقا يقاس بالسنين الضوئية»(١).

ولم يكن من ملجأ يومئذ للمضطهدين في الغرب إلا في بلاد المسلمين، ولا سيما الدولة العثمانية التي احتضنت

الفارين من الاضطهاد والحروب الدينية الأوروبية، بل كان التيار الجارف بين الشعوب الأوروبية هو تفضيل الحكم العثماني المسلم على الأوروبي، يقول توماس أرنولد بأن «أصحاب كالفن Calvin في المجر وترانسلفانيا، وأصحاب مذهب التوحيد من المسيحيين الذين كانوا في ترانسلفانيا، طالما آثروا الخضوع للأتراك على الوقوع في أيدي أسرة هابسبورغ المتعصبة. ونظر البروتستانت في سيليزيا إلى تركيا بعيون الرغبة، وتمنوا بسرور أن يشتروا الحرية الدينية بالخضوع للحكم الإسلامي. وحدث أن هرب اليهود الإسبانيون المضطهدون في جموع هائلة، فلم يلجأوا إلا إلى تركيا في نهاية القرن الخامس عشر. كذلك نرى القوزاق الذين ينتمون إلى فرقة المؤمنين القدماء -الذين اضطهدتهم كنيسة الدولة الروسية- قد وجدوا من التسامح في ممالك السلطان ما أنكره عليهم إخوانهم في المسيحية»(٢).

إذا قارنا التاريخ بالتاريخ فالنتيجة محسومة، إذ الحرية في الغرب عمرها قصير، ثم هي بعد ذلك مقصورة على مواطنيه أو بعض مواطنيه، بينما الوجه الغربي البشع باد في كل مكان احتله الغربيون أو ما زالوا يحتلونه ويهيمنون عليه، بل إنه حتى لو قارنا اللحظة الحاضرة بين الغرب وبلاد الإسلام فلن يكون الغرب بريئا مما صارت إليه أحوال المسلمين، فالغرب كان، ولا يزال، صاحب مرحلة الاحتلال البغيضة التي تخلفت فيها الأمة، ثم لم يخرج بجسده حتى كان قد مهد ومكن في بلادنا لعملائه المستبدين، الذين لا يزال يرعاهم ويحوطهم. فلئن كانت ثمة مقارنة ستميل إلى مصلحة الغرب، فهي في أحد وجوهها مقارنة بين الوجهين الغربيين: الوجه البشع في بلادنا والوجه المتزين في بلادهم.

النظرية والواقع

القارئ لليبراليين العرب يجد فيضا من أسماء الفلاسفة الغربيين، حتى ليبدو كل منهم حريصا على استعراض مهارته في سرد أكبر عدد ممكن من الأسماء، ويوحي بأنه هضم أفكارهم وفلسفاتهم! وهذا المشهد يمثل تكرارا للشيوعيين في خمسينيات وستينيات القرن الماضي، ويتفق المشهدان في الغزل المستمر لهذه الأفكار.

لكنهم لا يخرجون من مقارنة هذه النظريات لمقارنتها بـ «النظريات» الإسلامية الواردة في نصوص الكتاب والسنة والتراث الفقهي والأصولي الإسلامي، بل يهرعون إلى مقارنة ذلك بـ «الواقع» الإسلامي، سواء من التاريخ أو الحاضر، فيتحدثون عن الخليفة الذي كان همه السيف، والخليفة الذي كان همه النساء، والخليفة الذي كان يعذب أعداءه ويقطعهم...إلخ. ودعك الآن من أن كثيرا من الوقائع التي يتحدثون عنها غير ثابتة تاريخيا، أو يأخذونها من كتب الأدب والأقاصيص والأهازيج، إنما المهم الذي نناقشه الآن هو هذه المنهجية في مقارنة «النظريات» بـ«الوقائع»، فلا هي مقارنة نظريات بنظريات ولا مقارنة وقائع بوقائع.

ولأن «الغرض مرض»، فهم لا يتوقفون كثيرا أمام نظريات غربية ترسخ العبودية وتجعلها حتمية إنسانية، رغم أنها نظريات قال بها «الآباء المؤسسون الكبار» للثقافة الغربية مثل أفلاطون وتوماس مور (وهما أشهر اسمين في نظريات «المدينة الفاضلة»)، بينما يتوقفون طويلا ويستنكرون كثيرا «سماح» الإسلام بوجود عبيد، وهو فارق دقيق وضخم لم يفهمه التغريبيون في بلادنا، بينما فهمه بعض الغربيين مثل الخبير والقانوني الإيطالي دافيد دي سانتيلانا، الذي يقرر أن القاعدة في الشريعة هي الحرية، وأنه قد ترتب على هذا أمور كثيرة، منها: أن اللقيط المجهول أصله ترجح حريته على عبوديته، وأن المشكوك في حريته لا يجبر على إثباتها حتى تنهض القرائن والدلائل القضائية بعكس ما يزعم، وأن حالة الحرية ترجح عند وجود الشك، وأنه لا يجوز لمن كان حرا أن يبيع حريته أو يساوم عليها، والحر الذي يرغب في العبودية لا يقر على هذا. ثم قال: «وقد بشر الإسلام بهذه المساواة في وقت لم يعرف عنها العالم المسيحي شيئا». وفي نهاية بحثه شهد شهادة منصف فقال: «المستوى الأخلاقي الرفيع الذي يسم الجانب الأكبر من شريعة العرب قد عمل على تطوير وترقية مفاهيمنا العصرية. وهنا يكمن فضل هذه الشريعة الباقي على مر الدهور»(٣).

إنه لا بد من مساحة بين النظرية والتطبيق، تلك حقيقة تفرضها مثالية التفكير وبشرية التطبيق، فالمقارنة تصح بين نظرية وأخرى أو بين تطبيق وآخر، وحتى لو شئنا أن نقارن بين «مستوى النجاح في تطبيق النظرية» فسنجد أنفسنا إزاء حقيقة صادمة لهم، ذلك أن الإسلام اشتمل على عصور ذهبية كانت فيها النظرية أقرب شيء إلى الواقع كعهد النبي ﷺ والخلافة الراشدة وعديد من الخلفاء الصالحين، بينما لم ينجح تصور واحد من تصورات المدينة الفاضلة في الغرب كما تقرر الباحثة الإيطالية ماري لويزا برنيري بعد دراسة مطولة ومهمة في كتابها «المدينة الفاضلة عبر التاريخ».

لا تزال هناك مغالطات أخرى غير هذه الثلاث لكن المقام ضاق عن إيرادها،

هوامش

١- كارين أرمسترونغ، سيرة النبي محمد، ص٣٢.

٢- توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص١٨١ و١٨٢.

٣- دافيد دي سانتيلانا، القانون والمجتمع، دراسة منشورة في كتاب «تراث الإسلام» بإشراف توماس أرنولد، ص٤١٧، ٤٣٢، ٤٣٩.

الحرية في العالم العربي بين التحذير والانطلاق

تحقيق : نشوة صالح

مبارك المطوع

انور الرشيد

د.مدوس الرشيدي

تعد الحرية من أهم المكتسبات التي منحها الدين الإسلامي للمسلمين عامة، ولكنها في نفس الوقت حرية منضبطة بثوابت الدين والعادات والتقاليد والأصول. وذلك لإعلاء قيمة الإنسان دون أن تهوي به في مستنقعات الشهوات والمحرمات والفجور، لذا فالحرية بالمنظور الإسلامي حرية تسمو بالنفس البشرية وتطهرها من الخبث والمسكرات.

ومن أجل الاستفاضة في قضايا الحرية بالعالم العربي أجرت «الوعي الإسلامي» هذا التحقيق الذي ركزت فيه على «الحرية» لما لها وما عليها وماذا عن حدودها، والتفاصيل في ثنايا هذه السطور:

يعلق رئيس المنظمة العالمية الإسلامية لحقوق الإنسان، المحامي الكويتي مبارك المطوع على قضايا الحرية في العالم العربي قائلا: الإسلام أول من نادى بالحرية قبل أن تنادي بها الدول المتقدمة، لافتا إلى أن من يتدبر هذه الآية الكريمة: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران:١٥٩)، يجد أنها تحمل كل معاني الحرية، فهي تتحدث عن كيفية أن يتعامل الرمز والقائد مع الرعية، بحيث تكون الرحمة والمودة والعطف ديدن العلاقة بين الحاكم والمحكوم.

وأشار المطوع إلى أن الحرية عندما تسود في المجتمعات كما أمر بذلك الله تعالى ونبيه الكريم فإن المجتمع الإسلامي يعيش في طمأنينة.. وسيحارب الفساد، مشيرا إلى أن الدول عندما همشت تعاليم الدين الإسلامي هوت وضعفت وكثر فيها الفساد، وكل المحرمات.

في المقابل يقول رئيس المنتدى الخليجي الكاتب الصحافي أنور الرشيد: إن الحرية تختلف من دولة إلى أخرى، مشيرا إلى أن بعض الدول تفننت في تعذيب مواطنيها، واستخدمت كل الوسائل السيئة لمنع حرية الرأي والتعبير.

من جانبه يقول أستاذ القانون الدولي في جامعة الكويت د.مدوس الرشيدي: إن الحديث عن الحرية يرتبط مباشرة بحضارة الدول، وتنميتها، ورقيها، فإن الدول التي تحافظ على حرية مواطنيها هي في الأساس دول تحترم الحقوق الإنسانية وتسعى لتشجيع الابتكارات والإبداعات الشخصية، لافتا إلى أن مشاركة الفرد في اتخاذ القرارات المصيرية بوطنه عن طريق النائب الذي يمثله في البرلمان تعد من أبرز الحريات السياسية.

ولفت الرشيدي إلى أهمية أن تعم الحريات السياسية كافة الدول العربية والإسلامية، خاصة أن الدين الإسلامي الحنيف سبق الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، الذي يلزم الدول التابعة لمنظمة الأمم المتحدة أن تطبق معايير

الحرية بما يتماشى مع حقوق الإنسان.
وأضاف: إن الحرية ليس معناها سب الذات الإلهية، والانتقاص من الثوابت الدينية، وليس معناها سب الحكام أو سب الأقليات التي تعيش في المجتمعات الإسلامية، سواء أكانت هذه الأقليات مذهبية أو دينية.
بدوره يوضح المستشار محمد الأزهري أهمية الحرية قائلا: مما لاشك فيه أن الديمقراطية وحرية الرأي من العناصر الجوهرية في بناء الدول المتقدمة، خاصة أن الله سبحانه وتعالى خلق البشر أحرارا.. محذرا في الوقت نفسه من الإفراط الزائد في استخدام الحرية، لأنها تؤدي إلى كارثة، لما يمتاز به العالم العربي من عادات وتقاليد خاصة.
ويفرق الداعية الإسلامي الشيخ أحمد الموسى بين الخروج على نظام الكنيسة في المجتمعات الأوروبية وبين الإسلام، قائلا: عندما أطاح مارتن لوثر وأتباعه بنظام الكنيسة فهذا لأن القساوسة نصبوا أنفسهم على الناس، وكبتوا آراءهم، وتعاملوا معهم بمنطق صكوك الغفران، أي أن رجل الدين هو الواسطة بين الإنسان وربه.
مشيرا إلى أن الإسلام يختلف عن ذلك تماما، لأنه يصون الحريات وفق ضوابط معينة لمصلحة الآخرين.
وحذر الموسى من الحرية الزائفة التي تتبناها بعض التيارات المتحررة للمطالبة بتبرج المرأة وعدم احتشامها، مشيرا إلى أن هذه الحرية الزائفة هي التي جعلت المرأة في المجتمعات الأوروبية توضع في الصناديق الزجاجية ببعض المحلات، من أجل المتعة الحرام.
وتابع الموسى: إن الإسلام عندما يحرم الخمر لعموم المسلمين فذلك من أجل حماية العقل البشري ليتمكن من التفكير والإبداع، منبها إلى أن الإسلام لو كان يريد من الجموع الإسلامية أن تساق بلا فكر ولا عقل لأباح الخمر وكل انواع المسكرات.

ببليوغرافية الحرية في الوعي الإسلامي

العنوان	اسم الكاتب	رقم العدد
حرية أم فوضى	الشيخ عبدالمنعم النمر	٢
القضاء والحرية	الدكتور أحمد الحوفي	٨
الحرية	الشيخ محمد عبدالرحمن الخطيب	٢٣
الحرية المشوهة	للأستاذ عبدالمنعم النمر	٢٣
الإسلام دين الحرية والكرامة	الدكتور وهبة الزحيلي	٣٠
في سبيل الحرية كانت الهجرة	للأستاذ عبدالمنعم النمر	٣٧
الحرية بين الغرب والإسلام	للأستاذ عبدالمنعم النمر	٤٢
الحرية بين الإسلام والماركسية	للأستاذ عبدالمنعم النمر	٤٣
الحرية في الإسلام	الأستاذ عبدالمنعم محمد الشيخ	٥٠
حرية التدين في الإسلام	الأستاذ محمد عزة دروزة	٥٧
حرية الفكر في الإسلام	الأستاذ وليد عبدالحليم	٧٧
الشباب ومفهوم الحرية	الدكتور أبوالوفا الغنيمي التفتازاني	٧٧
حرية الرأي في الإسلام	الأستاذ توفيق علي وهبة	١٣٠
الإخاء والمساواة والحرية	الدكتور يوسف القرضاوي	١٣١
حرية الجبر والاختيار 1	الأستاذ أحمد حسنين القفل	١٦٠
حرية الجبر والاختيار 2	الأستاذ أحمد حسنين القفل	١٦١
المراهقة بين الحرية والكبت	الشيخ أحمد أحمد جلباية	١٦٦
الحرية الدينية والفكرية	الشيخ سليمان أحمد التهامي	١٦٧
حرية المرأة	الشيخ سليمان أحمد التهامي	١٧٢
الحرية الاقتصادية والعدالة الضريبية	الدكتور عبدالهادي النجار	١٩٥
حرية الرأي والتعبير والتجمع	الدكتور ممتاز صويصال	١٩٥
عيد الفطر عيد الشعور بالحرية	الدكتور عبدالله عبدالقادر بلفقيه	٢٢٦
الحرية الاقتصادية وتدخل الدولة	الدكتور محمد شوقي الفنجري	٢٢٧
الكرامة والحرية في الإسلام	الأستاذ محمد عبدالفتاح علم الدين	٢٢٧
حرية الكلمة من المنظور الإسلامي	الدكتور عبدالفتاح محمد محمد سلامة	٢٦٦
نحن والإسلام والحرية	الأستاذ أحمد العناني	٢٧٦
الحرية الاقتصادية وتدخل الدولة	الدكتور محمد شوقي الفنجري	٣٠٤
الله أكبر مفتاح الحرية	الدكتور صلاح الدين أرقه دان	٣١٩
الحرية	الأستاذ محمد عبدالعظيم العجمي	٣٢٧
التكاليف ترتفع في غياب الحرية	الدكتور حسان حتحوت	٣٢٩
البوسنة والهرسك أكبر سجن للحرية	الأستاذ محمود بيومي	٣٣٧
الإسلام وحرية العقيدة	الأستاذ أسماء أبوبكر محمد	٣٣٨
مفهوم الحرية في المنهج الإسلامي	الأستاذ أحمد محمد جمال	٣٣٨
الإسلام والحرية	محمد سليمان ربيع	٣٨٠
دور حرية الرأي في تحقيق الوحدة الفكرية للمسلمين	د.عبدالمجيد النجار	٣٩٠
الإسلام وحرية المرأة في الاختيار	محمود محمود النجيري	٣٩٢
حرية التعبير في منهج الإعلام الإسلامي	عبدالله بدران	٤٠٣
حرية الغزو وقيود المجتمع	شعبان محمود شعبان	٤٣١
الفهم الخاطئ للحرية يشكل محنة المجتمعات المعاصرة	طارق أحمد البكري	٤٣١
افتحوا نوافذ الحرية	محمد صلاح الدين	٤٣٦
الحرية الإعلامية وحق الاتصال وثوابت الأمة	د.محيي الدين عبدالحليم	٤٤١
هل نحن معادون للحرية؟	ممدوح الشيخ	٤٤٨
الإسلام دين الحرية	يسري عبدالغني عبدالله	٤٥٤
الشارع العربي وفضاء الحرية	د.شاكر النابلسي	٤٥٦
الإسلام وحرية الإنسان	د.زكريا عبدالرزاق	٤٥٨
أزمة الحجاب والحرية الشخصية	يحيى السيد النجار	٤٦٣
الحرية في الإسلام	محمد أحمد عويس	٤٦٨
حرية الرأي -الواقع والضوابط-	سالم البهنساوي	٤٧٠
عضل الولي وحرية المرأة في الاختيار	محمود محمود النجيري	٤٧٨
حرية التعبير بين الإباحة والتحريم	محمد عبدالمنعم عبدالخالق	٤٨٨
بعد الحرية في فكر الشيخ الغزالي	إبراهيم نويري	٥٠١
حرية إنشاء العقود في الفقه الإسلامي	عبدالفتاح إدريس	٥١٠
الحرية في عبودية الله عز وجل	زبير سلطان	٥٢٧
حرية الاشتراط في العقود	عبدالفتاح إدريس	٥٢٨
الإسلام وحرية الإبداع	محمد فتحي النادي	٥٣٠
حرية الإبداع.. كلمة حق أريد بها باطل	محمد عبدالشافي القوصي	٥٥١
الإسلام دين الحرية	أسعد النوبي	٥٥٦
الحرية والتحرر في شعر بدوي الجبل	عبدالهادي صافي	٥٦٠
الحرية وكرامة الإنسان	محمد مورو	٥٧٤
الحرية والحريات الأساسية	أحمد مبارك سالم	٥٧٩
حرية الرأي والتعبير في الإسلام	منى الموجي	٥٨٠

الحرية: مدخل إلى الخريطة المفاهيمية

د. هبة رءوف عزت
أستاذة جامعية - مصر

برز مفهوم الحرية في القرون الأخيرة ليتقدم إلى رأس قائمة المفاهيم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية للحداثة ومشروعها، وهو مفهوم يخاطب الإنسان في كينونته. وللوهلة الأولى قد يبدو مفهوم العدالة أكثر ارتباطا بالموازين والعلاقات الموضوعية، في حين يوحي مفهوم الحرية -ظاهريا- بأنه مفهوم يتعلق بالإرادة، ويرتبط بالذاتية. لكن الحرية أيضا تواجه قيودا وتستلزم «تحررا» من الشروط المحيطة بالحالة الإنسانية. ويظل الوقع الأول للكلمة على الأذن موحيا بالذات والوعي والاختيار.

خريطة المفاهيم القرآنية

يبدأ العقل المسلم وعيه بالمفاهيم والمعاني من كتاب الله، فهو منطلقه المعرفي وبوصلته المفاهيمية. والبحث عن المعنى لا يستلزم تطابق اللفظ وإنما استكشاف حقل الدلالة، فإذا كان لفظ الحرية هو المعبر عن معاني: الإرادة والكرامة والاختيار، فإن البحث عن المعاني المقابلة والألفاظ المعبرة عنها يغدو نقطة البدء والانطلاق.

في كتاب الله والخبرة النبوية الحرية تقابل العبودية، ولا يستخدم اللفظ للتعبير عما نقصده اليوم بالحرية من حيث كونها إرادة الاختيار والقدرة على إنفاذه في شتى جوانب حياة الفرد أو الجماعة (حين نتحدث عن الحريات العامة مثلا)، بل نجد ألفاظا أخرى تتسق مع منظومة الرؤية الإسلامية الكلية للكون والعالم والخلق والمعاد.

وقبل أن نتعرض إلى تلك المفاهيم يستوقفنا أن الفكر الغربي في جذوره اليونانية كانت الحرية أيضا تقابل العبودية، ولم يكن للعبد مكان ولا مكانة في الترتيب الاجتماعي، ولا حق في المواطنة والمشاركة. أما في التصور الإسلامي والخبرة النبوية فقد كانت العبودية مكانة قانونية ولم تكن حائلا دون التمتع بالحقوق الأساسية ولا المكانة الاجتماعية، حيث كانت الوظيفة العقيدية للدولة وتأسيسها على المساواة الأصلية بين البشر والموالاة الإيمانية بين المسلمين الذين تجمعهم مساحات العبادة في المسجد والجهاد ميزانا يجعل للعبد والحر حقوقا تكاد تقارب التساوي، وإن اختلف الوضع القانوني، الذي يمكن الخروج منه بالمكاتبة أو العتق.

فما هي المفاهيم التي يمكن أن نؤسس عليها رؤية الإسلام للإرادة والاختيار؟

الفطرة والخيرية والحق والحدود

أول هذه المفاهيم هو مفهوم الفطرة، فإذا كانت الحرية بمعناها المعاصر تكفل للإنسان «التحقق الذاتي»، وتضمن له التجانس مع نفسه دون ضغوط أو إكراه، فإن الإسلام يقدم له تصورا عن «نفسه» تلك: نشأتها وسياقاتها وطبيعتها. لذلك، فجدل الحرية لا ينفك عن جدل الطبيعة الإنسانية. والمنظومات الفكرية المختلفة تتفاوت في تعريفها للجبر والاختيار باختلاف نسبة الإنسان فيها للطبيعة وللخلق الأول. لا غرابة إذن أن تحتاج الحداثة إلى فكر داروين كي يحررها من قصة عرض الأمانة على السموات والأرض وتحمل الإنسان لها بالاستخلاف، وخلق آدم وحوار الحكمة من خلقه الذي دار بين رب العزة والملائكة، والصراع بين آدم وإبليس، وكيف علم الله آدم الأسماء ثم ابتلاه ثم تاب عليه وهداه، ومسيرة بني آدم على الأرض. احتاج الأمر إلى أسطورة التطور وإلى فكرة العقد الاجتماعي كي يتم تأسيس الإرادة الإنسانية على مرجعيتها الذاتية مقابل إلزام الله للمؤمنين بكلمة التقوى.. وكانوا أحق بها وأهلها. ولذا، تصبح الفطرة هي منطلق الحرية، حيث إن غايتها هي تحقق الإنسان، وهذا لا يكون إلا بالعودة إلى فطرته وأداء رسالته وتحقق بشريته في علاقتها بالربانية: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ (آل عمران:٧٩).

لا نتعجب إذن من أن الخروج بالحرية من هذه الفطرية يعني بالضرورة نسبية الأخلاق، إذ إن مجافاة الحقيقة وهجر الشريعة لا يتركان مجالا إلا للهوى، وبالتالي كان نمو منظومة نسبية الأخلاق مسألة تابعة ومنطقية لمن أنكر الألوهية والنبوة وترك العقل وحده يقرر الخيارات ويضع الحدود والمسارات.

فما هي ركيزة الحرية في التصور الإسلامي وبأي لغة يمكن فهمها؟

يبدو مفهوما الحق والحدود ركيزتين لفهم الإرادة الإنسانية والاختيار، فما من حرية إلا ولها سياج من حق: لك أو عليك، لله أو للعباد. والحدود هي نقاط الوقوف والانتهاء، فلم يستخدم القرآن لفظ الحدود لوصف العقوبات كما هو شائع، بل العقوبة نتيجة التعدي على حد وتجاوزه.

ونجد أيضا مفهوم الحكم، فالحرية في الفلسفات الوضعية هي حكم الفرد على حاجاته وتحققها، والذي هو منفك عن حكم الله. والحكم نتيجة لميزان ومنطق عقلي يهديه الوحي أو يستبد به الهوى. ولم يكن -مرة أخرى- مقصود الحكم في اللفظ القرآني إلا ذلك، رغم أن الشائع أن الحكم هو السلطة، وما هي إلا أصل عن فرع، والقرآن لا يستخدم لفظ حكم لوصف السلطة والسلطان، بل يستخدم لفظ الملك. الحكم إذن هو منطق النظر إلى الأمور وقياس أصلها وعواقبها، والحرية في التصور الإسلامي جذورها أصلها ثابت في حكم الله وفرعها في سماء العقل واجتهاده في النظر والفهم والتدبر والفقه.

مفهوم آخر يقترن بتصورات الاختيار وسعته أو ضيقه هو مفهوم الخيرية، فالإرادة والفعل اللذان يتحرك في سياقهما الإنسان غايتهما الخيرية، ومنطلقهما مكارم الشيم، فالرسالة المحمدية غايتها إتمام مكارم الأخلاق،

ودستور الأخلاق في القرآن هو ترشيد للسلوك الإنساني كي لا «يطغى»، وتأديب وتهذيب للإرادة كي لا تستجيب إلى نوازع البغي والعدوان. فإرادة الإنسان وأحكام الله أطر ضابطة، وكرامته وتحققها نابعان من تلك الموارد الصافية. ولا يكتمل العدل إلا بأن يكون هناك يوم آخر كي يكون البقاء للأصلح.. لا للأقوى، دنيا ثم آخرة.

الإيمان والتقوى

أين يكمن الاختيار إذن؟ سؤال مهم. يكمن في المشيئة الأصلية لاختيار الدين: إيمان أم كفر؟ من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.. ثم: لكم دينكم ولي دين.

لذلك، لا يمكن تحليل المفاهيم إلا في سياق دينها، إيمانا كان هذا الدين ومنظومة وحي ونبوة أم منظومة كفرية لا تؤمن بالله ولا ملائكته ولا كتبه ولا رسله.. ولا اليوم الآخر.

تبدو الحرية في الرؤى الوضعية هي الحركة بغير قيود والانطلاق بغير حدود، ثم الحديث عن موازنة ذلك مع حريات الآخرين. تأتي نظريات النسبية وتروح نظريات النفعية والبراغماتية، ويظل ضابط الإرادة في الرؤية الإسلامية هو التقوى، تلك التقوى التي قد تجعل الإنسان يترك حتى حقه أو يتفضل ببعضه تأليفا للقلوب أو تلطفا بالأفئدة.

الحرية في الفكر الوضعي، قديمه وحديثه، تبدأ من الفردية: النظر إلى الإنسان في تفرده وقيامه بنفسه ولنفسه. وهذا أمر معتبر كفلته منظومة الحقوق في الإسلام، من حيث خصوصية القرار والمساحات والمسؤولية والمحاسبة، بيد أن التفكير في الفردي موصول طوال الوقت بالتفكير في صيغة الجمع، ومنطق الجماعة، في توازن دقيق لا يترك أحدهما يطغى على الآخر.

ميزان هذا التوازن هو التقوى، مهما بلغت منظومة الحقوق والقضاء من الإحكام، فالقيم على حكم الله هو تقوى المؤمن لا أحكام المؤسسات والقواعد. من هنا تبرز حفاوة الإسلام -كما ذكرنا- بالبنيان الأخلاقي للمسلم، تماسكا وتزكية وارتقاء.

الحرية والحداثة: مراجعات

لو تأملنا في مكونات منظومة الحداثة، فكريا وعمليا، نجد أن مقوماتها الأساسية هي: العلمانية التي تفصل الدولة عن الدين والأخلاق، العقلانية المنفكة عن الغيب والوحي، الصناعية وما بعد الصناعية في الاقتصاد، المدينية في العمران البشري، عولمة السوق، سيادة العلوم الطبيعية على الفلسفة والعلوم الإنسانية.

لا يمكننا فهم التحولات الراهنة في مفهوم الحرية إلا لو أدركنا منظومة معقدة ومتشابكة من العناصر.

فهل تحرر الإنسان بتأسيس الدولة القطرية الحديثة التي وصفها برتراند راسل بأنها استبدلت سلطة الدولة بسلطان الله؟ هل تحرر بالقوانين التي اختارها الإنسان لتحكمه وأبى أن ينزل على «حكم» الله؟ هل حققت الحداثة بهذين الأمرين ما وعدت به من أمن وسلام عالمي كي تنتهي الحروب الدينية ويبدأ عهد الاستقرار (الذي كان ذروة عصر الاحتلال والاستيطان للشعوب الأخرى)؟

هل حررت المنظومة الرأسمالية الإنسان وحققت له احتياجاته كي «يختار» ما يشاء أم فرضت عليه ما هو متاح في السوق واستبدت بحريته حين نشرت ثقافة الاستهلاك وقرنت المكانة بالمادة والملكية؟

هل أتاحت مساحات المدن الحديثة والكوزمبوليتانية في مرحلة العولمة للإنسان الانعتاق من المجتمع الزراعي أو البدوي «التقليدي».. «الأبوي».. «المتخلف»؟

وأخيرا وليس آخرا، هل أعطى العلم بمنتجاته المختلفة للإنسان الحرية أم صاغ صورا جديدة من العبودية؟ وهل أطلقت الآلة للإنسان قدراته الكامنة ومهاراته الاجتماعية أم قيدتها إلى حد الضمور؟

وماذا فعلت الآلة والتكنولوجيا في الفطرة؟ والعقلانية في الروح؟ والفردية في الحس الجماعي؟

ليس هذا استخفافا بدورات العمران والحضارة البشرية، ولا بالمنجز الذي حققه العقل الإنساني في حركته في التاريخ، وليس ركونا لوضع التخلف، ولا ثقافة تأبى التجدد وتستعصي على النهضة، لكنها أسئلة تضع الحرية في سياق أكثر تعقيدا، بل وتضع الحريات العامة نفسها في إطار الهيمنة التي تمارسها الدولة الحديثة عبر تشريعاتها وأجهزتها وقوانينها وأسواقها وتوظيفها للتكنولوجيا في الرقابة والسيطرة على الفرد وكل ما يتعلق به من معلومات وحركة وخيارات.

لسنا في حاجة إلى بيان كيف يؤثر الفقر على الحرية، ففي هذا مجلدات مكتوبة ورؤى معلومة، ولا كيف تنزع تكنولوجيا الاتصال خصوصية الإنسان وتسمح بانتهاك أدق أسراره، ولا كيف تُغير تلك العوالم الإلكترونية بعضا من فطرته وعلاقته هو بذاته.

وإذا كنا قد ذكرنا أن الحرية لا تنفك عن جدل الطبيعة الإنسانية وتعريفها في علاقتها بالكون والغيب، فلا نندهش من حركات العودة إلى الطبيعة والخروج من أسر السوق والتكنولوجيا، وحركات الدفاع عن البيئة في مواجهة إفساد الإنسان لها بما يصادر خيارات حقيقية تتعلق بالحرية، ليس فقط لهذا الجيل، بل لأجيال قادمة.

اليوم في الغرب جدل صاعد حول الطبيعة الإنسانية ذاتها، يلزمنا أن نتابعه لأنه سيؤثر في إعادة تعريفنا لمفاهيم الحرية والعدالة.

وعلينا أن نتذكر، ونحن نعيد قراءة المفاهيم، أن لها خرائط، وأنها مصدر لمعنى الوجود وللسلوك، وأن تعقد الواقع وارتباكه نتاجان لمفاهيم، وأن عالم تجديد المفاهيم وإصلاحها هو مفتاح النهضة.

منظومة مخارج الحروف للديريني

تحقيق : صالح محمد عبدالفتاح

هذه أرجوزة للشيخ عبدالعزيز بن أحمد بن سعيد الدميري، المعروف بالديريني (ت٦٩٤هـ)، نظم فيها مخارج الحروف. وقد اعتمدت في تحقيقها على نسخة نفيسة محفوظة بمكتبة مصطفى فاضل الملحقة بدار الكتب المصرية تحت رقم (١٤٥/ مجاميع م)، وهي ضمن مجموع نفيس كتب كله على يد العلامة أحمد بن محمد الغنيمي الأنصاري الخزرجي (ت١٠٤٤هـ).

قال الشيخ الإمام العالم العلامة عز الدين عبدالعزيز الديريني رحمه الله :

تسع وعشرون حروف المعجم ... فسبعة منها لحلقٍ فاعلم

الهاء والهمزة قبلُ والألف ... والحاء والعين فميِّز ما أصف

والخاء والغين كما بينتُ لك ... والقاف والكاف فمن أقصى الحنَك

والجيم والشين وحرف الياء ... من وسط اللسان باستواء

ومخرج الدال وحرف الطاء ... عُلْيا الثَّنايا مَعَ حرف التاء

والظاء ثم الثاء بعدَ الذال ... من طرَفَي هذين باعتلال

والزاي والصاد معًا والسين ... من الثنايا طرفًا يكونوا

واللام ثم الراء ثم النون ... من طرف اللسان يستبينوا

وقيل إن اللام لا سواها ... من حافَّة اللسان من أدناها

ومخرج التنوين وَهْو غنّه ... من داخل الخيشوم فاعلمنَّه

والضاد تنفرد عن سواها ... بحافَّة اللسان من أقصاها

إلى الذي يلي من الأضراس ... وقَلَّ من يُحْكِمُها في الناس

وأحرف الشفة منها الفاء ... وهي من باطنها والباء

والميم والواو ثلاث هنَّه ... من بين ضم الشفتين هنَّه[1]

والميم فيها غنة لا الباء ... والواو قد يصحبها هواء

فهذه مخارج الحروف ... من قول بَصْرِيٍّ وقول كُوفِي

١- أي قليلا

أثر مباحث الحديث في العلوم الأخرى

رياض العيسى
باحث دراسات إسلامية

ما من علم من العلوم الإسلامية إلا وله من أثر علم الحديث حظ معلوم (١)، ذلك لأنه مما هو معلوم عند العقلاء أن «المنقولات فيها كثير من الصدق، وكثير من الكذب. والمرجع في التمييز بين هذا وهذا إلى أهل علم الحديث، كما نرجع إلى علماء اللغة فيما هو من اللغة وما ليس من اللغة، وكذلك علماء الشعر والطب وغير ذلك. فلكل علم رجال يعرفون به، والعلماء بالحديث أجل هؤلاء قدرا، وأعظمهم صدقا، وأعلاهم منزلة، وأكثرهم دينا، وهم من أعظم الناس صدقا وأمانة وعلما وخبرة فيما يذكرونه عن الجرح والتعديل» (٢).

يقول الشيخ أحمد شاكر في مقدمة كتابه الباعث الحثيث: «وقد حرروا، أي علماء الحديث، القواعد التي وضعوها لقبول الحديث، وهي قواعد هذا الفن، وحققوها بأقصى ما في الوسع الإنساني احتياطا لدينهم، فكانت قواعدهم التي ساروا عليها أصح القواعد للإثبات التاريخي وأعلاها وأدقها...، وقلدهم فيها العلماء في أكثر الفنون النقلية، فقلدهم علماء اللغة، وعلماء الأدب، وعلماء التاريخ، وغيرهم، فاجتهدوا في رواية كل نقل في علومهم بإسناده، وطبقوا قواعد هذا العلم عند إرادة التوثق من صحة النقل في أي شيء يرجع فيه إلى النقل، فهذا العلم في الحقيقة أساس لكل العلوم النقلية» (٣).

ولأهمية هذا العلم (مصطلح الحديث) أو (علوم الحديث) كان له أثر كبير على العلوم الأخرى كالتفسير والفقه واللغة والتاريخ وغيرها من العلوم.

١ - أثره في علم التفسير: إن كتب التفسير تزخر بنقل أحاديث النبي ﷺ وأقوال الصحابة وفتاوى التابعين بأسانيدها في تفسير الآيات واستنباط الأحكام، كما فعل الإمام الطبري في تفسيره جامع البيان، والإمام البغوي في تفسيره معالم التنزيل، والإمام ابن كثير في تفسير القرآن العظيم.

ومما يمتاز به تفسير ابن كثير أنه قام بالتثبت فيما ينقله وعزوه من أحاديث النبي ﷺ وأقوال الصحابة وغيرهم، مبينا الصحيح منها من السقيم، متبعا المنهج العلمي لعلوم الحديث.

٢ - أثره في علوم القرآن: فكما أن علم الحديث وضعت له أسس ومناهج، قام بعض العلماء بوضع منهج علمي لبحث مادة القرآن الكريم، ومن بين هؤلاء بدر الدين الزركشي الذي قال في مقدمة كتابه «البرهان في علوم القرآن»: «ولما كانت علوم القرآن لا تنحصر، ومعانيه لا تستقصى، وجبت العناية بالقدر الممكن. ومما فات المتقدمين وضع كتاب يشتمل على أنواع علومه، كما وضع الناس ذلك بالنسبة إلى علم الحديث» (٤).

ويقول الإمام السيوطي في مقدمة كتابه «الإتقان في علوم القرآن»، مبينا الباعث له على التأليف في علوم القرآن: «ولقد كنت في زمان الطلب أتعجب من المتقدمين، إذ لم يدونوا كتابا في أنواع علوم القرآن كما وضعوا ذلك بالنسبة إلى علم الحديث» (٥).

٣ - أثره في الفقه الإسلامي: إن احتياج الفقيه إلى الاستدلال بما ثبت من الحديث دون ما لم يثبت، لا يتبين له إلا باستخدام قواعد علم الحديث لاستخراج الأحكام الفقهية، وهو ما عكف عليه الفقهاء الأربعة، وما درج عليه من جاء بعدهم.

وما كتاب «الموطأ» للإمام مالك، وكتاب «الأم» للإمام الشافعي، وكتاب «المسند» للإمام أحمد بن حنبل، إلا دليل على ذلك، على أن أصحاب المذاهب الأربعة قد أجمعوا كلهم على أن الحديث إذا صح يقدم على القياس والنظر، فما فيهم إمام إلا قال: إذا صح الحديث فهو مذهبي. أو ما يشبه العبارة (٦).

٤ - أثره في اللغة والأدب: ولم يقف أثر علوم الحديث على العلوم الشرعية فقط، بل تعداها إلى أدوات العلوم الشرعية، ومنها علوم اللغة والأدب العربي. وقد أشار بعض علماء اللغة -قديما وحديثا- في تصانيفهم إلى أنهم اتبعوا ترتيبها كترتيب المحدثين في كتبهم، ومن هؤلاء المتقدمين الإمام السيوطي، الذي قال في مقدمة كتابه المزهر في علوم اللغة وأنواعها: «هذا علم شريف، ابتكرت ترتيبه، واخترعت تنويعه وتبويبه، وذلك في علوم اللغة وأنواعها وشروط أدائها وسماعها، حاكيت به علوم الحديث في التقاسيم والأنواع، وأتيت فيه بعجائب وغرائب حسنة الإبداع» (٧).

وهذا ما جعل الأستاذ ناصر الدين الأسد يصرح قائلا: «ولكن ذلك لا يمنعنا من أن نقول: إن المتأخرين الذين كتبوا في علوم اللغة والأدب قد احتذوا مناهج المحدثين والفقهاء، وقلدوا علوم الحديث والفقه، وذلك بعد أن نضجت علوم الحديث والفقه وأرسيت أصولهما وقواعدهما، وعبدت سبلهما وطرائقهما، وذهب فيهما في التحقيق والتدقيق -في السند والمتن- مذاهب بعيدة» (٨).

ويقول الدكتور صبحي الصالح مبينا أثر الحديث في النحو: «إن التأثير العفوي الطبيعي الذي خلفه الحديث في أصول النحو، يوم فكر القوم في وضع أوائلها، إنما رافق نشأة علم الحديث قبل أن ينضج، فليس لنا أن نبالغ فيه، ولا أن نغلو في أبعاده ومراميه.

ولكن مهما نغل في وصف ما كان للحديث من أثر في النحو وأصوله، وفي مختلف العلوم ومناهجها، نظل دون إيفاء علم الحديث حقه.

فما من تيار فكري إسلامي إلا وله من عدوى الحديث حظ معلوم، إن لم يكن فيما حمله تراث النبوة من وصايا وحكم وتعاليم ففي طرق التحمل والأداة، وشروط الرواية والرواة، ومقاييس النقد والتجريح، وأساليب التصنيف والتخريج، ومعايير الموازنة والترجيح.. فهذه كلها دخلت شواهد النحو، وسادت أبحاث اللغة، وارتفعت إلى أخبار الأدب، وتركت في الجميع أصداءها الشداد عن طريق الرواية والإسناد» (٩).

٥ - أثره في التاريخ والسير: ولمصطلح الحديث على التاريخ منة أيضا، ولعل ذلك يبدو أكثر وضوحا في كتب الطبقات والتراجم وتواريخ المدن وغيرها من كتب التاريخ. والسبب راجع -على ما يبدو- إلى أن معظم المؤرخين الأوائل محدثون، ولما كانت العناية بعلم الحديث هي التي أدت إلى الدراسات التاريخية لذلك انتقل الإسناد إلى أهل التاريخ بشكل واضح (١٠).

ومن بين هؤلاء المؤرخين، الطبري في تاريخ الرسل والملوك، وابن الجوزي في كتابه المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، وابن كثير في كتابه البداية والنهاية، والذهبي في تاريخ دول الإسلام، وغيرهم.

وقد كان لعلم الحديث أيضا وطريقته أثر عظيم في تطور كتابة التاريخ، فهذا الإمام السيوطي يؤكد أن كتابة التاريخ يراد بها: «معرفة الآجال وحلولها، وانقضاء العدد وأوقات التعاليق، ووفيات الشيوخ ومواليدهم، والرواة عنهم، فتعرف بذلك كذب الكاذبين وصدق الصادقين» (١١).

من هذا يتبين للقارئ أن «تأثير الحديث النبوي على ثقافتنا العربية يفوق كل تصور. فلقد صبغت طريقته كل فنون ثقافتنا ومعارفنا. إنك تجد طريقة السند عمت كل أنواع الكتب في مكتبتنا، من أدبية وتاريخية وغيرهما» (١٢). فعلم الحديث هو بحق أعظم ما أنتج الفكر الإسلامي في أصالته وتشعب علومه وفنونه.

الهوامش

١ - قاله الدكتور صبحي الصالح -رحمه الله تعالى- في كتابه الماتع: علوم الحديث ومصطلحه (ص: ٣٢٢).
٢ - منهاج السنة لابن تيمية (٧/٢١-٢٢).
٣ - الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث (ص:١٣).
٤ - البرهان في علوم القرآن (٩/١).
٥ - الإتقان في علوم القرآن (١٩/١).
٦ - ينظر علوم الحديث ومصطلحه (ص:٣٢١-٣٢٢).
٧ - المزهر في علوم اللغة وأنواعها (٧/١).
٨ - مصادر الشعر الجاهلي (ص:٢٥٧).
٩ - علوم الحديث ومصطلحه (ص:٣٢١-٣٢٢).
١٠ - ينظر مظاهر تأثير علم الحديث في علم التأريخ عند المسلمين للدكتور بشار عواد معروف (ص:٢٥).
١١ - الشماريخ في علم التاريخ (ص:٢٦).
١٢ - الحديث النبوي للدكتور محمد الصباغ (ص:١٦).

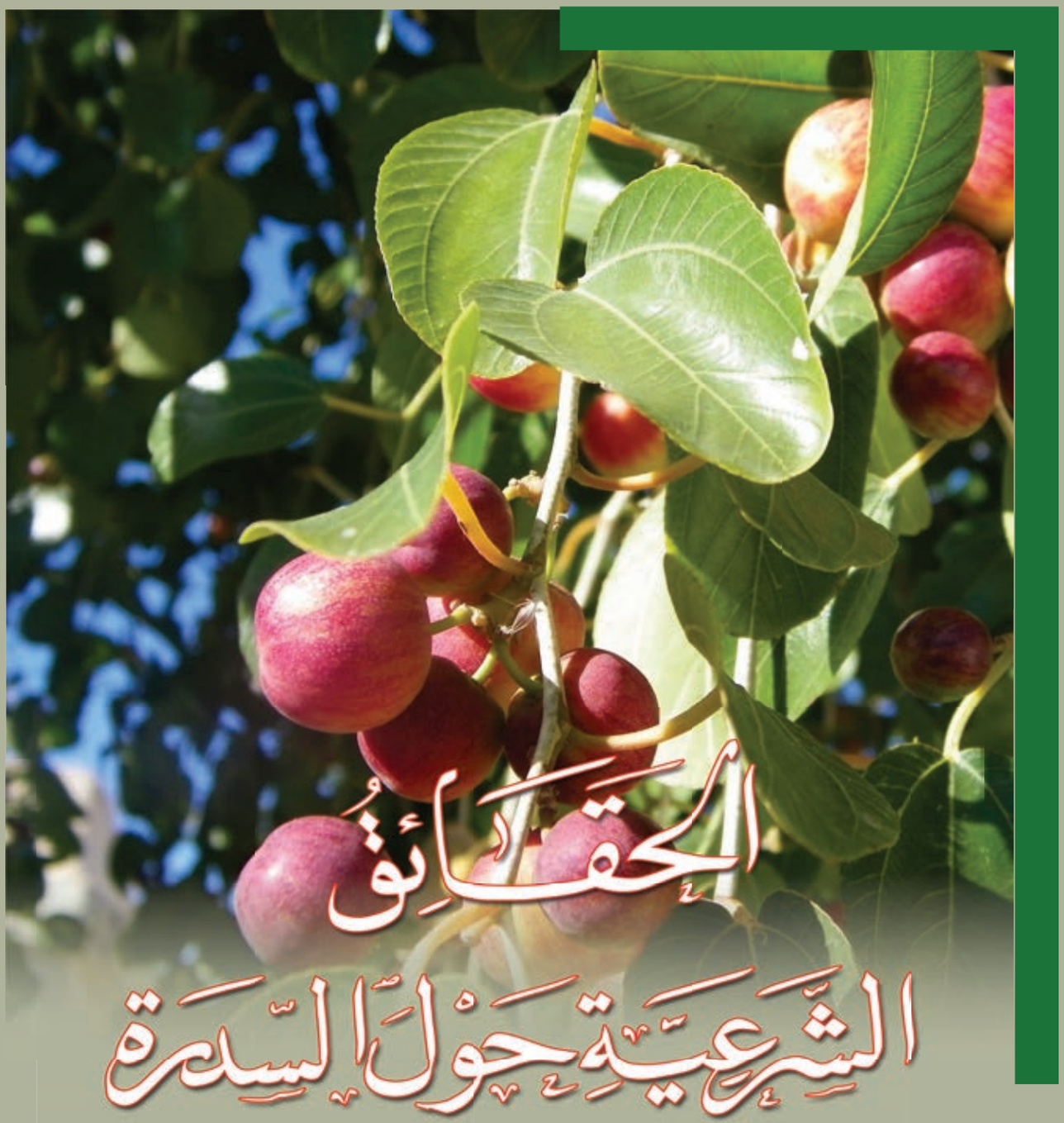

الحقائق الشرعية حول السدرة

د. رضا إسماعيل رضوان
أستاذ الشريعة والقانون

السدرة شجرة شوكية، أغصانها ملس بيض اللون تحمل أوراقا متبادلة، وأزهارها صغيرة متجمعة إبطية، وثمرتها حسلة حلوة تؤكل، وهي الفاكهة المعروفة بـ«النبق»، ويطلق عليها في الكويت «الكنار»، ولها أسماء أخرى، منها «العبري». وينتشر شجر السدر في المناطق الجبلية وعلى ضفاف الأنهار بشكل واسع في منطقة حوض البحر المتوسط، وموطنها هو جزيرة العرب وبلاد الشام، وعموما تنتشر زراعة السدر في المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية. وقد عرف الإنسان هذه الشجرة منذ آلاف السنين. ومعروف عن الشجرة أنها ذات جذور متعمقة، وتتحمل الظروف البيئية القاسية، فتجود زراعتها في الأراضي الرملية أو الصفراء، كونها تطيق الجفاف، ولا تؤثر فيها الرياح أو حتى ارتفاع نسبة أملاح التربة. إنها شجرة قادرة على الصمود في مواجهة قوى الطبيعة. ومن المحقق أن أشجار السدر تنمو طبيعيا في شبه الجزيرة العربية.

القيمة الغذائية والطبية

تؤكل ثمار السدر لأنها حلوة المذاق، مرتفعة القيمة الغذائية، وتعتبر من أنواع الفاكهة المتميزة. كما أن لها استخدامات في الطب الشعبي، فهي مفيدة في حالات أمراض الصدر والتنفس، وهي مسهلة ومنقية للدم. وقد أشار الأطباء إلى فائدة ثمار النبق للمرأة الحامل لما تحتويه من عناصر غذائية ضرورية من سكريات وغيرها. وقد أكد علماء التغذية أن مسحوق ثمار النبق يماثل الحبوب في القيمة الغذائية، فأطلقوا عليها اسم الحبوب غير الحقيقية. وقديما كان الناس يجففون ثمار السدر ويطحنونها في مطاحن خاصة بها لفصل الطبقة الخارجية المأكولة الحلوة، ومن ثم استخدام دقيقها في صنع الخبز وأنواع من الحلوى. أما بالنسبة إلى أوراق السدر فإنها تستخدم لعلاج الجرب والبثور. ومنقوع الأوراق مفيد في علاج آلام المفاصل والتهاب الفم واللثة. تجفف الأوراق ويصنع منها مسحوق لغسل شعر الرأس وتقويته وإزالة القشرة منه. كما أن منقوع الأوراق يغسل به الموتى. أما أزهار شجر السدر فإن نحل العسل يرعى عليها، ويتغذى على رحيقها، وينتج منها عسلا جيدا ذا قيمة غذائية عالية (يسمى «عسل السدر» وهو من أغلى أنواع العسل البري المطلوبة). كما يستخدم مغلي قلف الأشجار كمسكن لآلام الأسنان وملطف للحرارة ومقو عام. وتكثر زراعة أشجار السدر للزينة والظل في الحدائق والشوارع. كما تزرع كمصدات للرياح وحماية للتربة من الانجراف، وخشبها جيد قوي متعدد الاستعمالات(١).

خرافات حول السدرة

سيقت خرافات عدة حول السدرة منذ القدم، وما زال صدى أفكار الأساطير يتردد في أذهان شعوب اليوم. قال كهنة الصين إن النبقة هي «ثمرة الخلود»، اكتشف شجرتها (السدرة) مخلوق كريم على هيئة ملك، قدمها إلى الإنسان لمنفعته. وتدعى النبقة -حاليا- التمر الصيني. ويقولون إن شجرتها هي شجرة الحياة، أو شجرة النسيان، أو شجرة الحكمة وغير ذلك من أسماء أخرى تكفلت بذكرها كتب البوذية.

وفي الهندوسية، أن الهند هي منشأ السدرة الأول منذ ٩٠٠ سنة ق.م. ويقدم النبق قربانا للآلهة، وهي متعددة الأسماء والوظائف بحسب كل منطقة.

وعند فراعين مصر، صور إله الكون وهو جالس متربع على سدرة تنتصب بشموخ من خلال مياه طينية.

وفي الأساطير الإغريقية، روايات عن أكلة النبق، وأن أرض هؤلاء بشمال أفريقيا. وقيل إن جزيرة جربة في تونس كانت تغطيها أشجار السدر ونبقها مريح مهدئ للأعصاب وناسها ينامون بكل هدوء وسلام وعمق.

وذكرت السدرة باسم «عتاد» في التوراة في إحدى الحكايات الرمزية لقضاء بني إسرائيل. كما وردت السدرة في الإنجيل سبع مرات، ومن أسمائها «شوك المسيح»، ويعتقد أن من أشواكها صنع إكليل الشوك الذي وضع على رأس المسيح قبل صلبه، وهذا ما نص عليه إنجيل متى بأن العسكر «ضفروا إكليلا من شوك ووضعوه على رأسه وقصبة في يمينه، وكانوا يجثون قدامه ويستهزئون به قائلين: السلام يا ملك اليهود. وبصقوا عليه. وأخذوا قصبة وضربوه على رأسه». ويدحض مسيحيون أقباط هذا الاعتقاد، ويقولون إنه لا يمكن التحقق من نوع الشوك الذي استعمله الجنود، ويرجح أنه كان «الفندول» أو «البلان»، حيث إن «السدر والسنط» -على حد قولهم- لا ينبتان في القدس، لكن تنبت أنواع كثيرة من الأشجار الشوكية كالخصوان والدردار والشنداب والقريص والعليق والجنبوط وغيرها.

والسدرة في معتقدات بعض البلدان، ومنها العربية والإسلامية، نسجت حولها الروايات والقصص، منها ما يتصل بالسحر، ومنها ما يتعلق بالغيب، ومنها ما يرتبط بالتفاؤل والتشاؤم. وتكفي الإشارة إلى ما عليه الاعتقاد لدى بدو العرب، امتدادا لفكر الجاهلية الأولى. يقول كثيرون منهم اليوم إن السدرة هي مكان ولادة الجن، ومحط استراحتهم ليلا، وإنها في النهار ظل للإنس، وثمرتها (النبق) غذاء لهم، وأوراقها طيب يغسل به موتاهم ودواء يستحم به مرضاهم إذا سحروا أو أصابهم مس من الجن، وأغصانها مكان حسن لتعليق السحر أو الطب.. وإذا نبتت السدرة في مكان من تلقاء نفسها من دون تدخل من الإنس فهي لا تقلع إلا بعد الرجوع إلى الجن وأخذ موافقتهم على القلع، ونادرا ما يوافقون، ولهذا الإجراء طرقه وطقوسه المتبعة.. يقول بعضهم: إن نبت السدرة في مكان يعني فقد أحد الأولاد أو موت صاحب المكان، ولذلك فهي نذير خوف ورهبة وتشاؤم. كما ترتبط السدرة وأوراقها عندهم بالأدعية ذات الصلة بالمرض أو الموت، وحين الزرع والقلع(٢).

السدرة في القرآن

جاء ذكرها في عدة آيات مباركة، وتنوعت طبيعتها ووظيفتها بحسب مقاصد الشارع:

أولا ـ ذكرت سورة سبأ السدرة (بصيغة الجمع: سدر)،

وطبيعتها، ووظيفتها على شاكلة ما هو معروف عندنا نحن قاطني الأرض.

عاقب القادر عز وجل الكافرين، بمنع خيرات السدرة، فلا يجدون سوى الشجر ذي الشوك الكثير والثمر القليل، جزاء تكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل، وذلك قوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ (سبأ: ١٥ – ١٧).

في التفسير(٣) كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها وكانت التابعة منهم وبلقيس صاحبة سليمان -عليه الصلاة والسلام- من جملتهم، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم واتساع رزقهم وزروعهم وثمارهم، وبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسل يأمرونهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى ثم أعرضوا عما أمروا به فعوقبوا بإرسال سيل يهدم سد مأرب المنيع، ليصبح أثرا بعد عين، ولتنحسر المياه عن الأشجار التي في الجبلين عن يمين وشمال، فيبست، وتحطمت، وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة، مثل الأراك والطرفاء، واختفت الثمار الناضجة والمناظر الحسنة والظلال العميقة والأنهار الجارية.. وترى السدر ذا أشواك كثيرة وثمر قليل. وهكذا أوقع الحق عز وجل عقوبة اقتصادية هائلة بالكافرين عبدة الشمس من دونه. فعن ابن خيره وكان من أصحاب علي رضي الله عنه قال: «جزاء المعصية الوهن في العبادة، والضيق في المعيشة، والتعسر في اللذة». قيل: «وما التعسر في اللذة؟». قال: «لا يصادف لذة حلالا إلا جاءه من ينغصه إياها».

ثانيا ـ نص الله عز وجل على السدرة في سورة الواقعة (بصيغة الجمع: سدر)، وهي أطيب من قرينتها في الأرض، وتنتظر أن يأوي إليها وينتفع بها الأبرار من عباد الله، وذلك في قوله ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾﴾ (الواقعة: ٢٧ – ٣٥).

في التفسير(٤)، أصحاب اليمين هم الأبرار، قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وغيرهم، في تفسير «في سدر مخضود»: هو الذي لا شوك فيه. قال ابن كثير إن سدر الدنيا كثير الشوك قليل الثمر وفي الآخرة على العكس من هذا لا شوك فيه وفيه الثمر الكثير. وعن سليم بن عامر قال كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم، قال أقبل أعرابي يوما فقال يا رسول الله، ذكر الله في الجنة شجرة تؤذي صاحبها. فقال رسول الله ﷺ: «وما هي؟». قال السدر، فإن له شوكا مؤذيا. فقال رسول الله ﷺ: «أليس الله تعالى يقول «في سدر مخضود»، خضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة فإنها لتنبت ثمرا ففتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونا من طعام ما فيها لون يشبه الآخر».

ثالثا ـ ذكر الحق جل وعلا سدرة، سماها بعزته «سدرة المنتهى»، في قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ (النجم: ١ – ١٨).

الهوامش

(١) www.jazannews.org
www.girls-ly.com

(٢) بزة الباطني، السدرة من تكون؟، مجلة الثقافة الشعبية، العدد ٢٤، السنة السابعة ٢٠١٤.

(٣) في تفسير ابن كثير (ج ٣: ص ٥٠٩: ٥١١).

(٤) في تفسير ابن كثير (ج ٤: ص ٢٨٩ و٢٩٠).

دراسة الجدوى

محمود أمين زويل
باحث اقتصادي

مفهوم دراسة الجدوى هو دراسة نظرية وعملية تبحث في مدى الفوائد التي يمكن تحقيقها من مشروع ما؛ قبل الإقدام على إقامته.

وبعبارة أخرى هي إجابات للتساؤلات التالية التي يوجهها القائم بالمشروع لنفسه، وبشرط أن تكون الإجابات محددة وكافية ومقنعة وتخدم المشروع نفسه.

دراسة الجدوى إجابة عن التساؤلات التالية:

ما هو أفضل مشروع:

ما هو أفضل مشروع أستطيع أن أقدم عليه بالسوق ويكون السوق في حاجة إليه أو البلد أو المنطقة التي سأقيم فيها المشروع، ويكون هناك طلب على المنتج وحاجة الناس إليه، وألا يكون متكررا ويوجد منه الكثير في المكان نفسه؟.

لماذا أقيم هذا المشروع:

وما هو الهدف من قيامه، وهل ينحصر الهدف في تحقيق مكاسب مادية فقط، أم أنه يعتبر خدمة للمجتمع ككل، أو المجتمع المحيط بمكان المشروع، أو أنه يقتصر على خدمة فئة معينة من الناس؟

أين أقيم المشروع:

ما هو أنسب موقع لإقامته، هل في الريف، أم في الحضر، هل في منطقة كثيفة السكان، هل يتدخل ثمن الأرض المقام عليها المشروع في المكان، أي هل يفضل قيام المشروع في مكان ما، ثمن

الأرض فيه منخفض، ولكنه بعيد نسبيا ويتغلب على مشاكل النقل بتوفير وسيلة لنقل المنتج، أم يقام في مكان ثمن الأرض فيه مرتفع وقريب من الأسواق، وبذلك نوفر من تكاليف النقل، وهل العمالة متوفرة في المكان المقام عليه المشروع، وفي حالة إقامته بعيدا عن المدينة.. هل أستطيع تحمل تكاليف انتقال العاملين للمشروع ومنه لمحال إقامتهم؟

متى أقيم المشروع، ومتى أبدأ تسويق المنتج:

متى أقيم المشروع، وما هو أفضل وقت لطرح إنتاجه في السوق، هل يكون الإنتاج موسميا أم على مدار العام؟ ويتوقف ذلك طبعا على نوع السلعة المنتجة أو طبيعة الخدمة المقدمة.

لمن توجه منتجات المشروع:

لمن أقوم بإقامة هذا المشروع، للرجال أم للنساء أم لكليهما، أو ربما لجميع الأعمار والأجناس، هل المنتج موجه لفئة اقتصادية معينة من الناس، أم لجميع الفئات؟

كيف أقيم المشروع هندسيا وفنيا:

كيف تتم إقامة المشروع من الناحية المعمارية، ومن ناحية ما يلزمه من تجهيزات ومعدات، وهل يلزمه تيار كهربائي ذو فولت عال، أم يكفي التيار العادي المستخدم في المنازل؟

من يستطيع تنفيذ المشروع:

من يستطيع إقامة المشروع وتنفيذه، مهندس أم مقاول، أم ناس ذوو خبرة، وما هي مستويات العاملين المطلوبين ونوعيتهم، وما مدى توافر هذه النوعية من العمالة؟

كم يتكلف المشروع تقريبا:

كم تكون التكلفة، وهل الإمكانات تسمح، أم هناك حاجة للاقتراض، وما هو مصدر الاقتراض، بنك عقاري، أم بنك تنمية صناعي، أم بنك تنمية زراعي، أم الصندوق الاجتماعي؟

الأسلوب العلمي المستخدم في **دراسة الجدوى:**

يستخدم في دراسة الجدوى بصفة عامة الأسلوب العلمي لحل المشكلات، أو الأسلوب المنطقي، والذي يتمثل في الخطوات التالية، ووفق تتابعها:

أ- تحديد موضوع دراسة الجدوى وصياغتها.

ب- مرحلة جمع المعلومات والبيانات بعد تحليل الموضوع إلى عناصر مثل:

- الجانب المعماري.
- جانب التجهيزات والمعدات.
- جانب هيكل العمالة.
- جانب الإدارة.
- جانب الخامات اللازمة ومصادرها.
- جانب دراسة سلوك المستهلك الموجه إليه المنتج.
- جانب التسويق والدعاية والترويج.
- جانب التمويل ومصادره.

فيتم جمع المعلومات من مختلف المصادر عن جميع هذه العناصر.

ج- تحديد بدائل الحلول.

د- تقييم البدائل واختيار البديل الأمثل.

هـ- مرحلة التجريب باختبار البديل الذي تم تحديده.

دراسة الجدوى، هي تقويم لمدى صلاحية المشروع:

يمكن القول بأن دراسات الجدوى عبارة عن تقويم يبين مدى صلاحية المشروع للتنفيذ العملي أو لعدم التنفيذ، لأنه لا يكفي أن يكون المشروع ناجحا فقط، ولكن لابد أن يحقق عائدا وأرباحا معقولة من المبالغ المستثمرة في إقامته، وأن يتم تسويق وتصريف منتجاته أولا بأول، حيث لوحظ من خلال سنوات الانفتاح الاقتصادي أنه قد تم إقامة الكثير من المشاريع دون دراسة جدوى أو تخطيط، وظهر في المجتمع فئة من غير المختصين بدراسات الجدوى؛ كان همها وعملها مع هيئات الاستثمار وأجهزة الدولة هو عملية تخليص الأوراق والاعتمادات والرخص فقط، دون أي دراية بالدراسات الحقيقية، وكانت النتيجة هي فشل المشروعات التي تم إقامتها على عجل مع تحقيقها خسائر فادحة.

الدراسة الإدارية والهيكلية:

الواقع أن هذه الدراسة تلزم فقط المشروعات الكبيرة والمتوسطة، أما المشروعات الصغيرة التي تستلزم عاملين أو ثلاثة، فلا داعي لها. أما المشروعات الكبيرة والمتوسطة فيلزم أن يكون المدير المسؤول من تخصص نوع النشاط الذي يدرس إقامته، بمعنى أن يكون مهندسا زراعيا في حالة المشروعات الزراعية (تربية دواجن- تسمين ماشية- ألبان- صناعات غذائية - زهور وزينة- عسل النحل...الخ) وهكذا بالنسبة للمشاريع الهندسية والتجارية...الخ.

ويكون تخصص العمالة الفنية تخصص زراعة أيضا في المشاريع الزراعية (دبلوم زراعة) والمشروع الصناعي تكون العمالة الفنية فيه وفق المهنة (تخصص كهرباء، ميكانيكا، حاسب آلي، أعمال بناء، زخرفة، إلكترونيات، نجارة، أثاث، خرسانة، آلات دقيقة، ملابس جاهزة، غزل

ونسيج...الخ)، من حملة دبلوم المدارس الثانوية الصناعية.
ويعاون المدير جهاز متخصص من الكفاءات الفنية والإدارية والمالية والقانونية. ولا يهمل عمال الخدمات الفنية والإدارية، ويفضل أن يتم تدريب الجهاز الفني والإداري قبل البدء في العمل بثلاثة أشهر، على الأقل.
ويجب أن يلم المدير بمهارات الإدارة، من تخطيط وتنظيم ومهارات القيادة والتوجيه والرقابة، ومهارة حل المشكلات الطارئة وكيفية التغلب عليها، مثل انقطاع التيار الكهربائي وغياب بعض العمال المفاجئ، وكذا مشاكل عدم توريد الخامات في الميعاد المحدد، وتصريف المنتجات.

دراسة الربحية والربحية الاجتماعية:

يحتسب العائد المتوقع بنسبة من رأس المال المستثمر، كما يمكن احتساب نسبة مجمل الربح بقسمة مجمل الربح على رقم المبيعات، ويحسب معدل صافي الربح بقسمة صافي الربح على رقم المبيعات.
أما الربحية الاجتماعية في المشروعات الكبيرة، فتعني مدى تحقيق المشروع لفوائد تعود على المجتمع المحيط وتشمل هذه الفوائد:
أ- تحقيق عائد مادي مناسب (أرباح).
ب- تشغيل أكبر عدد ممكن من الشباب العاطل عن العمل.
ج- توفير سلعة أو خدمة ليست موجودة في المجتمع المحيط بالمشروع.
د- توفير استيراد سلعة أو خدمة ما على الدولة، وبالتالي توفير العملة الصعبة اللازمة للاستيراد، وتوجيه هذه العملة إلى مشاريع أو أوجه أخرى أشد حاجة إليها.
أما الربحية الاجتماعية في المشروعات الصغيرة فتقتصر على تشغيل صاحب المشروع لعدد ضئيل من العمال.
محتويات ملفات دراسات الجدوى الهندسية والفنية والدراسة المالية والتمويلية للمشروع.

ملف دراسة النواحي الهندسية والفنية للمشروع:

الهدف:

تحديد المراد إنتاجه من سلعة أو خدمة ما، وما هو المتوقع تحقيقه للمجتمع من وراء هذا المشروع.

موقع المشروع:

ويراعى في موقع المشروع ما يلي:
أ- توافر دواعي الأمن والأمان وإمكان تزويده بوسائل الدفاع المدني والحرائق والأمن الصناعي.
ب- أن يكون الموقع مناسبا لنوع النشاط.
ج- أن يكون بعيدا عن مصادر التلوث المختلفة، ومحققا للحفاظ على البيئة.
د- أن يكون قريبا من أسواق تصريف المنتج، وقريبا من التجمعات السكانية.
هـ- أن يقع على طريق المواصلات والطرق الممهدة.
و- أن يتوافر فيه جميع الخدمات الأساسية من مصادر المياه - الكهرباء- الصرف الصحي والصناعي - الاتصالات السلكية واللاسلكية...الخ.

الطاقة الإنتاجية:

تحسب الطاقة الإنتاجية للمشروع في الساعة واليوم والشهر والسنة. كما يحسب الحد الأدنى والحد الأوسط والحد الأقصى المتوقع إنتاجه، وبالتالي الطاقة التخزينية وعدد وسعة المخازن اللازمة لتخزين السلعة المنتجة.

الآلات والمعدات المطلوبة:

يحدد عدها كمًا ونوعا، وقدرتها على تحقيق الطاقة الإنتاجية للمشروع، ومصادر الحصول عليها (محليا أو أجنبيا).

المباني والمنشآت اللازمة للمشروع:

وتنحصر فيما يلي بالنسبة للمشروع الكبير والمتوسط:
أ- المبنى الرئيسي للإنتاج (المصنع- الورشة...الخ).
ب- المخازن المطلوبة (أنواعها وسعتها).
ج- المبنى الإداري والمرافق الإدارية.

ملف الدراسة المالية والتمويلية للمشروع:

تتضمن العناصر المالية والتمويلية للمشروع:
أ- التكاليف الاستثمارية.
ب- البرنامج الزمني.
ج- الإنفاق الاستثماري خلال عمر المشروع.
د- تمويل المشروع.
هـ- مصروفات التشغيل السنوية (رأس المال العامل Working Capital).
و- إيرادات التشغيل السنوية.

العمالة والأجور:

يتم عمل جدول عمالة يبين متوسط الأجر السنوي وبيان الأجور النقدية والعينية، والمزايا والتأمينات، عند التشكيل الكامل للمشروع.
ويشمل الأجر ما يلي:
أ- الراتب الشهري بحوافزه وبدلاته.
ب- المزايا العينية (تكون من نوع المنتج مثل الملابس والمواد الغذائية).
ج- التأمينات على العاملين.

منهجية العمل الخيري عند الدكتور عبدالرحمن السميط

صلاح فضل توقه
باحث في العمل التطوعي

يستحق الدكتور عبدالرحمن السميط، عن جدارة، أن يكون رائد العمل الخيري في العالمين العربي والإسلامي في هذا العصر، فخلال عمره، الذي ناهز خمسة وستين عاما، قدم كثيرا من وقته، بل جل سنوات عمره، في نشر الدعوة الإسلامية، وخدمة المسلمين وغير المسلمين، ولا سيما في قارة أفريقيا، التي حمل على عاتقه من مشكلاتها ومآسيها ما تنوء بحمله الجبال، ولكن السميط حملها، وتحملها، استشعارا منه بمسؤولية المسلم تجاه إخوانه المسلمين مهما باعدت بينهم المسافات، أو فصلت بينهم الحدود، مقتفيا في ذلك حديث النبي ﷺ عن النعمان ابن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد؛ إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (١).

تعتبر هذه النقطة تحديدا (جسدية الأمة) القاعدة التي انطلق منها الدكتور عبدالرحمن السميط في عمله الخيري والإنساني، والتي تفسر لنا أيضا تفانيه العظيم في هذا المجال، وريادته المستحقة له، وتميزه فيه.

فقد لفت انتباه الدكتور السميط أثناء استكماله دراسته العليا للطب في جامعتي ليفربول البريطانية وماكجل الكندية، حجم الأعمال الخيرية الموجهة لمصلحة الفئات المستضعفة والمعوزة في تلك المجتمعات، كما لاحظ أيضا أن هناك جهودا مبذولة وموجهة إلى الخارج، خصوصا في دول القارة الأفريقية، في صورة حملات، تحمل في ظاهرها الجهود الإغاثية بينما باطنها يحوي أخطارا محدقة، ولا سيما بالمجتمعات المسلمة، التي توضع الخطط من أجل تنصيرها، وتعتبر مثل هذه الحملات الإغاثية من الأدوات الرئيسية المهمة لتنفيذ هذه المخططات.

ولذلك، قرر مواجهة هذه الأخطار، والحد من آثارها المحتملة على عقيدة المسلم، والمجتمعات المسلمة. وكان سبيله إلى ذلك هو العمل الخيري، الوسيلة نفسها التي يستخدمها أعداء الأمة لاختراق عقول أبنائها وتبديل معتقداتهم وقيمهم.

ورغم العاطفة الجياشة للدكتور السميط تجاه أمته وأبنائها وقضاياها، فإنه تخطى مرحلة العمل المدفوع بنوازع الحب والرحمة والشفقة، وهذا وإن كان في مجمله أمرا حسنا ومحمودا، إلا أنه لا يقيم عملا يرجى منه بناء جيل ورفعة أمة، فهذا لن يتحقق إلا عن طريق عمل منهجي قائم على أصول شرعية ومنهجية علمية، وهذا ما قام به على أرض الواقع. ولذلك، فإن ريادة الدكتور عبدالرحمن السميط للعمل الخيري في العصر الحديث، لم تأت من فراغ، ولم تكن وليدة الصدفة، وإنما كانت نتيجة لمنهج اختطه لنفسه، وتابعه بخطوات وإجراءات مخططة ومحددة ومضبوطة شرعيا بأحكام الشريعة الإسلامية ومتطورة علميا بمواكبة أحدث ما وصل إليه العمل الخيري، علميا وفنيا.

ومن خلال تحليل سيرة السميط نستطيع أن نضع أيدينا على أهم ملامح هذا المنهج.

تكريم أمير البلاد لجهود السميط في الدعوة الإسلامية

التأصيل للعمل الخيري

كان الدكتور السميط على قناعة كاملة باحتواء الدين الإسلامي ونصوصه الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة على قواعد العمل الخيري وأصوله، وهو ما يجب أن نعود إليه في تأصيلنا للعمل الخيري، وتفعيله على أرض الواقع. وكان يرى أن الإسلام سبق بهذه الأصول غيره من الملل السابقة عليه، كاليهودية والنصرانية. ولم تستطع أن تجاريه في ذلك النظريات والفلسفات الوضعية التي جعلت من خدمة الإنسان محورا لها، كما أدعت في ذلك الشيوعية.

وكان عمل الدكتور السميط الخيري هو تطبيق لهذه الأصول النظرية التي وردت في الكتاب والسنّة، والتي تتحدث عن عمل الخير وأنواعه، وأهميته، وجزاء فاعله في الدنيا والآخرة.

دعوة إلى الله

لم تقف جهود الدكتور السميط عند العمل الخيري وجوانبه المختلفة التي تظهر في صورة مشروعات ومساعدات اجتماعية، وإنما جعل من العمل الخيري وسيلة وطريقة للدعوة إلى الإسلام، ومواجهة خطط المنصِّرين في الدول الإسلامية، ولا سيما في أفريقيا، التي أفزعه ما يفعله المنصرون بها، فشد إليها الرحال، وأعطاها من عمره وجهده ما لم يعط لغيرها، ولم يعطها غيره مثل ما أعطاها الشيخ السميط، وكأن الله قد اطلع على صدق نيته تجاه دينه وأمته ففتح الله على يديه قلوب الملايين فدخلوا في دين الله أفواجا، حتى لقب بفاتح أفريقيا، كما بنى بها المئات من المساجد، والمدارس، والمستشفيات، والمراكز الإسلامية الشاملة.

وفي هذا الصدد، تشير كثير من الإحصائيات المنشورة عن جهود الشيخ الدعوية إلى أنه أسلم على يديه:

- مئات الألوف من القبائل الوثنية، والقبائل النصرانية.
- الملايين من الأفراد.

كما أنه صحح المعتقدات الباطلة، التي يعتنقها بعض من ينتسبون إلى الإسلام اسما لا إيمانا واعتقادا، وكان سببا في عودتهم من جديد إلى حظيرة الإسلام. كما اهتدى على يديه كثير من أبناء الأسر المسلمة الذين راحوا ضحية للمنظمات التنصيرية، فأعادهم إلى الإسلام من جديد.

ولم تقف جهود الدكتور عبدالرحمن السميط الدعوية عند هذا الحد فقط، وإنما قام بإعداد وتدريب الدعاة ليقوموا بالدعوة بين قومهم وقبائلهم، وفي هذا الأمر نجاح كبير للدعوة، حيث إن الداعية المنتمي إلى هذه الشعوب يكون أدرى بحال قومه، وأقدر على التواصل معهم بلغتهم، وأكثر استيعابا لعاداتهم وتقاليدهم، مما يساهم في نجاح الدعوة وتقدمها بين هذه الشعوب، وهو ما فطن إليه الشيخ السميط فوظفه لخدمة الدعوة الإسلامية.

كما طبع الشيخ السميط الآلاف من الكتب الإسلامية بمئات اللغات المحلية ووزعها على أبناء القبائل، وكان السميط حريصا على إيصال الإسلام إلى كل مكان في أفريقيا، فأنشأ العديد من الإذاعات باللغات القومية والمحلية، لمخاطبة الناس، ولا سيما الذين لا يستطيعون القراءة، فكانت هذه الإذاعات منبرا قويا لإيصال رسالة الإسلام إلى هذه الشعوب.

فلم يكن تحرك الشيخ -رحمه الله- بين هذه الشعوب تحركا عشوائيا، أو بدافع العاطفة، إنما كان تحركه ودعوته بين هذه القبائل والشعوب، بشكل مدروس قائم على معرفة طبيعة هذه الشعوب من حيث ماهية الأديان التي يعتنقونها (يهودية - نصرانية - وثنية)، والعادات والتقاليد والثقافات والأفكار السائدة بها.

ونشير أيضا إلى درس نتعلمه من المنهج الدعوي للشيخ السميط -رحمه الله- وهو «التسامح» مع الآخر المخالف في العقيدة، وهذا التسامح في حد ذاته دعوة قائمة بنفسها. فالتسامح وسيلة دعوية، وخلق إسلامي حميد، إن أخلصناه لله سيكون سببا في فتح القلوب لدين الله، وهذا ما قام به الشيخ في أفريقيا، فمما يذكر له أن الله فتح على يديه قلب أحد قادة القبائل النيجيرية، وهو سلطان إيسالي، وقد أراد أن ينهي وجود النصارى في قبيلته ويهدم كنائسهم، ولكن الشيخ السميط رفض هذا العمل، وبين له أن ذلك ليس من هدي الإسلام، بل إن الإسلام يكفل حرية العبادة لهم ولا يجبر أحدا على الدخول فيه.

ومما يؤثر للشيخ أيضا أنه في دعوته للإسلام، لم يكن يتحدث عن النصرانية أو يهاجمها، كما يفعل المنصرون في مهاجمتهم للإسلام، ولكنه كان يصون لسانه عن ذلك، ويركز كلامه على بيان محاسن الدين الإسلامي، وبراهين أنه الدين الحق ورسوله ﷺ هو الرسول الخاتم.

تعظيم مشاركة المرأة

قد يعتقد بعض الناس خطأ، أو ظلما وجحودا، أن الإسلام ظلم المرأة ومنعها كثيرا من حقوقها، ومنها حقها في المشاركة المجتمعية والعمل التطوعي، ولكن هذه كلها أكاذيب ودعاوى باطلة، نسجت في عقول أظلمها وأعياها الحقد على الإسلام، والجهل به كعقيدة ومنهج حياة.

وقد أكد الشيخ -رحمه الله- على أهمية مشاركة المرأة في خدمة قضايا الأمة والنهضة بها، انطلاقا من فهمه وفقهه لمكانة المرأة في الإسلام، فكانت زوجته، السيدة أم صهيب، رفيق دربه، وشريكه في عمله الخيري والدعوي.. اصطحبها معه، حالا ومرتحلا، في مجاهل أفريقيا وأدغالها، داعية إلى الإسلام، ومعلمة لبني جنسها من الأفريقيات، أصول الإسلام ومبادئه، عن طريق عقد دورات تعليمية، ودروس تثقيفية عن الإسلام وحضارته وتاريخه، بالإضافة إلى إعدادها فرق عمل نسوية لتواصل الدعوة والعمل الخيري فيما بعد.

العمل الخيري أداة للتنمية

أن تعطي المحتاج أو الفقير أموالا، أو طعاما، أو ملبسا، أو غير ذلك مما يحتاج إليه، فليس هذا هو الهدف الحقيقي للعمل الخيري، ولكن الأمر عكس ذلك تماما، فهدف العمل الخيري هو القضاء على كل ما يعوق الأفراد ويمنعهم من المشاركة الفاعلة في بناء مجتمعاتهم وخدمة أمتهم، وهذا هو جوهر العمل الخيري في الإسلام، والذي ارتكن إليه الدكتور عبدالرحمن السميط في عمله التطوعي، وهو ما يطلق عليه في أدبيات العمل الخيري حاليا «الأبعاد التنموية للعمل الخيري». لم يهدف الشيخ إلى إعطاء الفقراء مسكنات تستمر فترة، ثم ما تلبث مشكلاتهم أن تعود، ومن ثم يمدون أيديهم من جديد، ويبحثون عمن يقضي حاجاتهم، بل كان يعتمد على إقامة مشروعات تتناسب مع البيئة التي يعمل بها من جهة، ومن جهة أخرى تتناسب مع قدرات طالبي المساعدة. ولهذا لم يكن الشيخ السميط يعتمد في مساعداته للفقراء على العطاء النقدي، أو العيني، وإنما كان يدرس حالة طالب المساعدة تفصيليا، ثم يقيم مشروعا يدر عليه دخلا، ويكفيه ذل المسألة، مثل: «الورش الصغيرة، محلات البقالة أو الملابس، المزارع السمكية، مشاغل الحياكة».

وهذا التوجه كانت له آثار اجتماعية ودعوية، تتمثل في القضاء على الفقر وآثاره، ودعم الاقتصاد المحلي للقبيلة، وهذا ما لم تقم به البعثات التنصيرية، التي كانت تعتمد دوما على ربط المحتاج بها أسبوعيا، حيث تصرف المساعدات بحضور القداس والصلاة في الكنيسة. ولا شك في أن هذا التوجه التنموي كان له أكبر الأثر في تعميق الإسلام في النفوس، وبيان اختلافه عن الملل الأخرى، وتقبل دعوة الشيخ السميط للدخول فيه.

الشفافية ودقة المحاسبة

من المبادئ المعمول بها في قطاع المنظمات الخيرية غير الربحية مبدأ «الشفافية ودقة المحاسبة»، وهو ما كان يطبقه الشيخ انطلاقا من أصوله الإسلامية، حيث إن المسلم مسؤول أمام ربه عما ولي عليه من أمور الناس «كلكم رع وكلكم مسؤول عن رعيته» (٢) كما جاء في حديث النبي ﷺ. وكان يدرك ثقل المسؤولية الملقاة على عاتقه، وعظم الأمانة التي يحملها، لذلك كان حريصا على دقة المحاسبة المالية، وأن يوضع كل درهم في موضعه، وأشد ما يؤرقه ألا يكون الانفاق في غير محله. لذا كان يشرف بنفسه ويتابع دقائق الأمور في مشاريعه الخيرية ويتفقدها بنفسه ليطمئن قلبه على حسن سيرها.

ومما يؤثر عن الشيخ السميط قوله «أموال الناس التي دفعوها لعمل الخير لا يمكن أن أفرط في ريال واحد منها».

وهذه الدقة المحاسبية والشفافية في عمل الشيخ أفضت إلى نتيجة متوقعة، وهي ثقة المولين والمتبرعين، وإيثارهم مؤسسة الشيخ وما تقوم به من مشاريع عن غيرها، لأنهم يرون ثمرة تبرعاتهم في مشاريع قائمة تغطي كل مجالات الحياة تقريبا، وفي مقدمتها خدمة الإسلام ونشره.

إنسانية العمل الخيري

يؤكد الإسلام على مبادئ الرحمة، والشفقة، ومساعدة المحتاجين، وتفريج كربات المكروبين، بغض النظر عن الدين أو الجنس أو اللون. وتظهر تطبيقات هذه المبادئ وغيرها من الخصائص الإنسانية، في ممارسة العمل الخيري، ولعل هذا الجانب لا يحتاج إلى تدليل عليه في منهجية العمل الخيري عند الشيخ السميط، فكل أعماله الخيرية كان هدفها الإنسان فقط.

ولكني أتوقف عند موقف يحمل دلالات عظيمة، في تجرد الشيخ السميط وسعيه لخدمة المحتاجين، حتى ولو كانوا ممن آذوه، وأساءوا إليه في فترة من الفترات، فمعروف أن الشيخ السميط اعتقل أثناء الغزو العراقي للكويت عام ١٩٩٠، ونقل إلى سجون بغداد، ولاقى هناك أشد أنواع العذاب والتنكيل، لدرجة نزع لحم وجهه ورجليه، ورغم تجربة اعتقاله المريرة هذه، إلا أنها لم تكن حائلا بينه وبين مد يد العون لإخوانه العراقيين ونجدتهم مما ألم بهم بعد غزو قوات التحالف الأنجلو أمريكية، وسقوط النظام العراقي، حيث أعد قافلة إغاثية لتقديم مساعدات عاجلة للشعب العراقي لتخفيف آثار الحرب.

لقد كانت إنسانية العمل الخيري معلما واضحا في عمل الدكتور عبدالرحمن السميط.. فضح أدعياء الإنسانية والمتاجرين بها، وكشف عن زيف دعاويهم، خصوصا في أفريقيا، التي أسلم كثير من أبنائها على يديه، بسبب هذه السلوكيات التي أعلت من قيمة الإنسان كإنسان. وهذه الظاهرة استرعت انتباه أحد القساوسة المنصرين، كما يروي الشيخ نفسه فيقول: «جاءني قسيس كاثوليكي أوروبي وقال لي: أنا وأبي ولدنا هنا، وقد جاء جدي إلى هنا منذ مئة عام تقريبا. وهدفنا التنصير، ولكن لم يتنصر إلا أعداد قليلة، بينما أنتم أمضيتم هنا بضعة أيام وأسلم على يديكم المئات».

مأسسة العمل الخيري

إدراكا منه لحجم العمل المطلوب لمقابلة حاجات الأمة ومواجهة مشكلاتها، ومساعدتها في الرقي والتقدم، انتقل الدكتور عبدالرحمن السميط من مرحلة العمل الفردي إلى مرحلة العمل المؤسسي، الذي يعتمد على جماعية الأداء، والشورى عند اتخاذ القرارات، والارتكان إلى القواعد الشرعية والأسس العلمية المعمول بها في هذا المجال. ونذكر في هذا الصدد أنه أسس «لجنة مسلمي أفريقيا» عام ١٩٨١، والتي تحولت فيما بعد (١٩٩٩) إلى «جمعية العون المباشر»، علاوة على عضويته في كثير من الهيئات والمراكز والجمعيات العاملة في مجال الإغاثة والعمل الخيري.

هذه هي أهم ملامح المنهجية في العمل الخيري عند الدكتور عبدالرحمن السميط -رحمه الله- تقصيناها رغم عدم وجود مراجع علمية موثقة لجهوده. وهذا الجانب يتطلب بذل كثير من الجهود من المهتمين بالعمل الخيري، ولعل جمعية العون المباشر تتبنى مثل هذه الأعمال مستقبلا.

هوامش

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) جزء من حديث - رواه البخاري.

كما تم الرجوع إلى مواقع

http://direct-aid.org/cms/

http://ar.wikipedia.org/wiki

مكتبة بايزيد في إسطنبول

التحرير
تصوير: هدايت الله نثار

المكتبات منارات العالم فيها علوم وتجارب وخبرات وبعضها يضم مخطوطات تحمل عبق التاريخ الفكري و مكتبة بايزيد الوطنية إحدى أهم المكتبات المنتشرة في إسطنبول تضم على أرففها مليون كتاب، منها ١١ ألف مخطوطة باليد، تاريخ بعضها عمره ١٢٠٠ عام.

تقع المكتبة في ساحة بايزيد بمدينة إسطنبول، بين سوق المجلدين التاريخي وجامع بايزيد.

وقد زارت «الوعي الإسلامي» هذه المكتبة التي تعتبر أول مكتبة عامة في فترة الحكم العثماني، شيدت بهدف إفادة الناس العاديين. وتحظى بأهمية عالية في تركيا.

والكتب هنا تنقسم إلى قسمين: منها ما تحمل الدلالة على اسم ولي الدين، شيخ الإسلام في وقته، إذ تم نقل كتبه إلى المكتبة بعد موته، وأصبحت وقفا، ومنها ما تحمل الدلالة على اسم السلطان بايزيد. وتمثل تلك الكتب في مجموعها تاريخ تطور الطباعة وكيفية انتشار المطبوعات في منطقة الشرق الأوسط. كما تمثل تلك المخطوطات تطور الورق خلال الفترة الممتدة بعد عام ٢٨٠ هجرية.

أما تاريخ إنشاء المكتبة نفسه فيعود إلى سنة ١٨٨٤م، حيث تم افتتاحها بعد تحويلها من مدرسة لتعليم طب الأسنان إلى مكتبة تخدم العرب والترك.

ولكن لاتزال المكتبة يعوزها الدعم المادي لإنقاذ المخطوطات من التلف، فالمكتبة حاليا تتبع الوقف الخيري، والمبالغ المخصصة لها غير كافية.

تحتاج المكتبة أيضا إلى مختبرات لإعادة الروح إلى المخطوطات، عبر عمليات كيميائية لتثبيت الحبر، وورشة خاصة لترقيع وترميم الأوراق الممزقة.

بعض الباحثين العرب قضوا في تلك المكتبة أوقاتا مفيدة، فهناك قسم من المخطوطات عمره ألف عام، بعضه يعود للتراث العربي كمخطوطة سحيم بن وثيل الرياحي التميمي، الشاعر الجاهلي الذي عاصر الإسلام.

تقع المخطوطات في الطابق الثاني من المكتبة، ويشرف عليها موظفون أتراك يتكلمون العربية، ولكن يبدو أن المكتبة في حاجة إلى هيئة من الموظفين يتقنون اللغات الثلاث، العثمانية والعربية والتركية الحديثة،

بأمر السلطان

ذكر الموقع الإلكتروني لمكتبة بايزيد بأن هذه المكتبة التاريخية شيدت بأمر من «السلطان عبدالحميد الثاني»، وقد تم تخصيص ميزانية شخصية وحكومية لتشييدها في عام ١٨٨٤.

لأن الفهارس بالأحرف التركية الحديثة.

تم ترميم القسم الخارجي لمبنى المكتبة ذات الطوابق الثلاثة، في عام ١٩٧٤م، وانقسم خلاله إلى مخزن للكتب وقاعة للمطالعة. تحتضن هذه المكتبة التاريخية أكثر من مليون نسخة كتاب، منها ٤٠ ألف كتاب غير موجود في الأسواق والمكتبات، وأرشيف كامل للصحف الصادرة في تركيا.

كما أنها تضم أرشيفا كبيرا للأفلام والأقراص المدمجة والشرائط الصوتية والمرئية والبطاقات البريدية والطوابع والملصقات.

ومنذ أشهر قريبة بدأت عملية ترميم هذه المكتبة في قسمها الداخلي في مساحة ١٢٠٥ أمتار مربعة، وتتواصل هذه العملية دون إحداث تغييرات في عمارة هذه المكتبة، ومن المقرر صنع واجهات زجاجية لوضع الكتب القيمة فيها؛ بغية زيارة أعضاء المكتبة، كما حلت الخزانات الفولاذية المتكونة من ٦ طوابق محل الخزانات الخشبية القديمة التي كانت تحتضن كتب هذه المكتبة.

من المخطوطات النادرة

هناك العديد من المخطوطات التي يمكن اعتبارها نادرة، نظرا لقدم المخطوطة من جهة، ومن جهة أخرى لأن تلك المخطوطة لها أهميتها في

الدوائر الإسلامية والفقهية.. ومن أبرز هذه الآثار:

أولا: الآثار الباقية عند القرون الخالية. ومذكور في مكان آخر باسم: الآثار الباقية في علم النجوم. يحمل الرقم٤٦٦٧ بايزيد. المصنف محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي. والكتاب قديم وكبير متكون من ٣٤٠٣ صفحة، ويعود تاريخ النسخ إلى عام ٦٠٣ للهجرة.

والكتاب المخطوط يتحدث عن علوم الفلك، ولكن الصفحة الأخيرة مشكوك في أمرها، لأن عمر المخطوطة في تلك الصفحة الأخيرة يعود إلى عام ٧٠٣ للهجرة.

ثانيا: العقد الفريد في تاريخ الملك السعيد. يحمل الرقم ٢٤٣٨، وهو يعود إلى «أبوسالم كمال الدين محمد بن طلحة بن محمد بن الحسن القريشي»، ويسمى في الكتاب أيضا باسم: «أبي المسلم الشيخ محمد بن طلحة القريشي» (المفتي الرحال) المولود سنة ٥٨٢ والمتوفى سنة ٦٥٢ للهجرة، أنجز كتابة المخطوطة في العشر الأواخر من شهر رمضان سنة ٧٤٣ للهجرة، والكتاب مذهب ويتكون من ٢٨٢ صفحة.

ثالثا: الفلاحة النبطية. تحمل هذه المخطوطة الرقم ٤٠٦٤، والكتاب نقل من لسان الحرانين إلى العربية، والناقل أبوبكر أحمد بن علي بن قيس الكسداني، المعروف بـ«ابن وحشة» عام ٢٩١ للهجرة، وهناك تاريخ آخر على الكتاب هو ٣١٨ للهجرة.

رابعا: شرح الهداية. الجزء الثاني. الكاتب تحت اسم دهلوي، والكتاب بخط محمد بن أحمد بن محمد الجندي، الملقب بـ«الصدر» وتم النسخ يوم الجمعة الثاني عشر من شهر ذي الحجة سنة ٥٩٥ للهجرة ببخارى.

خامسا: تذكرة أولي الألباب. تحت رقم ٤٢١٤ بايزيد، لداود الطائي، بينما في النسخة الأخرى من الكتاب مكتوب داود الأنطاكي، تحت اسم «تذكرة داود في الطب» وتاريخ نسخ المخطوط الذي يتناول الأعشاب الطبية وفائدة كل منها هو ١١٠٤ للهجرة.

السلطان العثماني بايزيد الثاني

السلطان بايزيد الثاني (١٤٤٧م-١٥١٢م)، هو ابن السلطان محمد الفاتح، وهو والد السلطان سليم الأول، وجد السلطان سليمان القانوني. كان هذا السلطان تقيا، ورعا، لم تفته أبدا أي صلاة مفروضة.

وكما يذكر موقع رسائل النور، فقد كان من عادة السلطان بايزيد الثاني أن يجمع في قارورة ما علق في ثيابه من غبار وهو راجع من أي غزوة من غزوات جهاده في سبيل الله.

وفي إحدى المرات عندما كان السلطان يقوم بجمع هذا الغبار من على ملابسه لوضعه في القارورة، سألته زوجته كولبهار: لم تفعل هذا يا مولاي؟ وما فائدة هذا الغبار الذي تجمعه في هذه القارورة؟ فقال: سأوصي بعمل طابوقة من هذا الغبار، وأن توضع تحت رأسي في قبري عند وفاتي، فإن الله سيصون من النار يوم القيامة جسد من جاهد في سبيله. ونُفِّذت فعلا وصيته، إذ عمل من هذا الغبار المتجمع في تلك القارورة (غبار الجهاد في سبيل الله) طابوقة، وضعت تحت رأس هذا السلطان الورع عندما توفي سنة ١٥١٢م، وقبره موجود حتى الآن بجانب الجامع الذي بناه (جامع بايزيد)، رحمه الله تعالى.

د. علي السمان رئيس الاتحاد الدولي لحوار الثقافات:

مجدنا الحضاري سيعود مع الإرادة الحقيقية

إسلام لطفي
القاهرة - دار الإعلام العربية

شدد رئيس الاتحاد الدولي لحوار الثقافات والأديان الدكتور علي السمان، على أن المجتمع الإسلامي يشهد حالة انقسام كبيرة؛ بسبب ابتعاده عن مفاهيم الدين الصحيحة، لافتا إلى أنه على الرغم من ذلك الوضع، توجد بعض المؤسسات تسعى إلى زرع المفاهيم الصحيحة والسليمة للتقارب بين المجتمعات. وإلى نص الحوار..

● ما تقييمك للمجتمع الإسلامي في الوقت الحالي؟

- المجتمع الإسلامي في كثير من جزئياته يعاني من حالة انقسام وخلاف. وهنا لا بد من التأكيد على أن الدول الإسلامية، التي لها وزن في المنطقة، من الضروري أن تعطي وزنا أكبر للتقارب. ولدي أكثر من تجربة في هذه الدول، خصوصا في الكويت، أيقنت من خلالها بوجود مساع صادقة لتدعيم التعاون الإسلامي، وبخاصة على المستوى الثقافي.

● بحديثك عن الانقسامات.. هل يمكن تلخيص الأسباب التي أدت إلى الوضع غير الحميد الذي تعاني منه المجتمعات الإسلامية والعربية على السواء؟

- الأسباب الرئيسية تكمن في ابتعاد المجتمعات عن الإسلام بمعناه البسيط والنقي، الذي هو الإيمان، قولا وعملا. أيضا من أسباب الانقسام ابتعاد هذه الدول عن الحوار وعن قبول الآخر، وقد انتهيت من كتاب يسمى «الأديان السماوية الثلاثة.. قبول الآخر وحوار السلام»، فهذه المبادئ حل محلها التنافس والخلاف، ولكن على الرغم من ذلك فإن الاتجاهين موجودان، فهناك من يريد التقسيم والهجوم وهناك من يعمل بأقصى جهد ممكن؛ من أجل الحوار وقبول الآخر للارتقاء بالمجتمع.

● إلى أي طريق تسير الأمة الإسلامية في ظل حديث الكثيرين عن أن الأمة تعاني التحجر الفكري؟

- التحجر الفكري مبدأ عام، ففي حالة إصابة الإنسان بالتحجر، لن يؤثر ذلك فقط في فكره الديني، بل سيكون حاجزا ضد التطور وضد التنمية بصفة عامة على مختلف مستوياتها، وأساس التحجر يبدأ من مستوى الكتاب المدرسي، بينما نحن في حاجة إلى مستوى آخر، وإلى إعادة صياغة؛ لأن كل شيء يبدأ بالكتاب. والتطور والتحجر أيضا منبعهما البيت والمدرسة وشاشة التلفزيون التي نراها، لذا أسميها دائما «المدرسة الشعبية

المجانية»، فإذا أدى القائمون على الإعلام والأسرة والمدرسة دورهم في محاربة التحجر، وصياغة مناهج تعليم جديدة بأساليب تساهم في التطور، فساعتها يمكننا التخلص من براثن التحجر الفكري. أما في حال استمرار الأمر على ما هو عليه، فستحرم الأجيال المقبلة من التطور والازدهار فكريا. وعلينا أن نؤمن في نهاية المطاف بأن الإسلام هو دين السماحة، والتحجر يمنع ممارسة دين السماحة.

● متى يستطيع المسلمون إعادة مجد حضارتهم مرة أخرى؟

– إذا وجدت إرادة حقيقية لدى أبناء الأمة الإسلامية، إضافة إلى أن ذلك يحتاج إلى ثقافة وتنمية ودعم الإرادة، فإذا تحقق ذلك فسنستطيع أن نتخطى كل الحواجز التي تعوق نهضة أمتنا، إضافة إلى ذلك لا بد من وجود قادة فكر إسلاميين يكونون بمنزلة «عنصر تنشيط» يدفع إلى هذا الاتجاه، ويوضحون لنا ما يجب أن يخرج من قيم الدين لمصلحة البشر، وإذا لم نجد هؤلاء العلماء المخلصين فسنستمر في الانحدار.

● وهل هناك آليات يلزم توافرها لقيام هذه النهضة؟

– كما أشرت من قبل ينبغي أولا الاهتمام بالكتاب المدرسي، ولا بد أن يكون هو المحور في النظرة المستقبلية، ولا بد من ترسيخ الثقافة البناءة، ثم يأتي الاهتمام بثقافة الحوار مع الآخر. أذكر وأنا أعيد تنظيم مؤسسة الحوار التي قمت بإرسائها وكانت تسمى مؤسسة «حوار الأديان»، ولدت في باريس، وأصبحت حاليا مؤسسة «حوار الثقافات والأديان»، فلا يمكن أن نصل إلى مفهوم الأديان الحقيقي من دون حوار ثقافات. والأسرة يجب أن تدفع نحو معايير تربية الطفل على أساس عناصر النهضة البناءة، وتستطيع العائلة أن تنقلها إلى الأجيال الجديدة، والأسرة

أسباب سياسية واقتصادية واجتماعية وأفكار قديمة وراء تنامي الإسلاموفوبيا

من العناصر التي يمكن أن تساهم في الوصول إلى النهضة، بينما الخطر الأكبر أمام هذه النهضة هو الأمية، والفرقة، وغياب روح المحبة.

● هل هناك أمل في ثورة معرفية مقبلة؟

– بالطبع، فالوضع الطبيعي أنه بعد الثورات ذات الطابع السياسي والتحرري، يجب أن تذهب إلى عنصر مكمل، وهو دعم نهضة المجتمع وثقافته، وهذا من الممكن أن يحدث، سواء بالإرادة الذاتية، أو المجتمعية. ويجب على المثقفين أن يقوموا بدور قوي لمحاربة قوى الظلام والإظلام التي تجعل الأمور ضبابية على المواطن العادي في رؤية الحقيقة والواقع، وأهم شيء رؤية المستقبل.

● هناك جدل يدور حول: هل الإسلام دين دولة أم دين أمة؟

– هذا جدل قديم. إذا أخذنا الدول الإسلامية ككل فسيكون دين أمة. وهذا الجدل مأساوي، لأنه يقوم على التقسيم، إننا دول إسلامية، لكن ما يهم هو أن الدول يربطها رباط تعاون ورباط حضاري وثقافي، مما ينتج عنه أمة واحدة.

● هل يدير الغرب صراعا خفيا على الإسلام باسم حقوق الإنسان؟

– في الواقع، أهملنا كثيرا في إيجاد الردود المناسبة في ذلك الوضع. وأحيانا الإنسان يقول إن هناك قضية في هذا الصراع، وهناك البعض، وليس الغرب كله، يريد شرا بالإسلام، فهناك اتجاه لجعل الإسلام خطرا وبعيدا عن فكرة التعاون والتعايش مع الغرب. لكن في الطرفين، الإسلامي والغربي، هناك من يعملون من أجل التقارب. وإذا عدنا إلى حقوق الإنسان، فعلينا مسؤولية كبيرة لأننا لم ننقل إلى الغرب المكان الحقيقي له.

● ما الأسباب التي أدت إلى تنامي الإسلاموفوبيا؟

– هناك أسباب تختلط فيها السياسة مع عودة بعض الأفكار القديمة، فنجد أن الإسلام في فترة العثمانيين تقدم في الغرب حتى حدود النمسا، والغرب يعود دائما إلى هذا الوضع، وكأن الإسلام سيقترب ويحتل مكانا أكبر مما ينبغي. وأيضا الإسلاموفوبيا جاء لأسباب بعضها اقتصادي وبعضها اجتماعي وأيضا سياسي. وفي بلاد الغرب أحزاب أقصى اليمين تعيش على دعم العنصرية والتطرف في الفكر، فعندما تعادي الإسلام يكون ذلك نوعا من الشعبية لها. وتنامت الظاهرة أيضا بسبب طريقة تعامل بعض الجماعات وفكرها والتي تدفع إلى كره الإسلام.

● كيف يمكن أن نرسخ مفاهيم التعايش السلمي وقبول الآخر؟

– بدعم وجود هذه الأفكار في نظمنا التعليمية، والثقافية، والإعلامية.

● هل يمكن أن تتغير حالة الكراهية والاحتقان ضد المسلمين؟

– إذا تغيرت نظرة الغرب في عدم الاستمرار حتى لا نذهب إلى حرب صليبية جديدة، أيضا إذا غير المسلمون نظرتهم وتركوا الفكر المتطرف؛ ليصبح المتحدث ولسان حال الأمة الإسلامية هو سماحة الإسلام.

● كيف ترى الحرية في الغرب وإساءة فهمها؟

– الحرية ستظل باستمرار موضوعا خلافيا، فالحرية في الغرب تريد أن تكون بلا حدود ولا شروط، والحرية في الشرق والبلاد الإسلامية لها سقف، وهي حماية تراثنا ومبادئنا وقيمنا الإسلامية، عكس الغرب الذي لا يريد هذه الحدود.

القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (٢٠)

عبدالله أيت الأعشير
مفتش منسق جهوي لمادة اللغة العربية - المغرب

إحدى المشكلات المزمنة التي يعانيها المشهد اللغوي العربي، تتجلى في الثنائية والازدواجية اللغويتين، اللتين جثمتا بكلكليهما على المجتمعات العربية؛ فهناك العاميات، والأمازيغية من جهة، وهناك اللغات الأجنبية من جهة أخرى. وإذا كان هذا التعدد اللغوي من الحتم المَقضي في كثير من المجتمعات الإنسانية، فإنه في البلاد العربية يَفرض على البصراء من رجال السياسة، والدين، والعلم، والمعرفة، اتباع سبيل ناهجة لا قحم فيها، لأجل إسناد الأدوار والوظائف الملائمة لهذه المستويات اللسانية التي تمور بها تلك المجتمعات، لأجل إرضاء المختلفين واحتواء الفرقة، بكيفية تجعل التعدد عامل قوة ينمي اللغة الفصحى ويثريها بمزيد من الألفاظ والعبارات التي تجدد لها أثوابها، ولاسيما بالنسبة إلى ميادين الحِرف والصنائع والتقنية والسياحة التي لم تمتد إليها العبقرية العربية، عندما كانت تنظر بعين الريبة إلى تلك الحِرف التي لا يمتهنها إلا أبناء السراري والهجناء.

الحقيقة التي لا يستراب فيها أن شياطين الدفاع عن العاميات الذين زعموا الإتيان بفائدة تنجي العرب من الغثائية، قد جاءوا بآبدة ألهتنا عن الخطط المكينة التي تهدي إلى التي هي أحسن لنا وللغتنا ومستقبلنا. إنهم جماعة من الأغتام الحائرين

الذين يقّفون ما ليس لهم به علم منج من التيه والخبط والضلال، غايتهم التحلق حول الموائد الغربية؛ يقتاتون من خشارتها، فيروجون لأفكار دبرية مفسكلة، نبتتها شيطانية نكد، ليس فيها رطب ولا جنى، فكان لابد من استئصالها من الأرض العربية العذية؛ لتنمو أزاهير الفصحى ويعم خيرها الآفاق، وتعود العجمة والعاميات من حيث أتت، لم تصب من الفصحى قطميرا، كما كان الشأن بالنسبة إلى الدعوات المنكرة الآنفة في الشرق العربي؛ التي كانت تدعو إلى استبدال اللغات الأجنبية بالفصحى، أو كتابتها بالأحرف اللاتينية، لكن زبدها الصاخب تكسر على صخرة الفصحى التي حفظها الله تعالى من فوق سبع سموات.

وبما أن التدابير لصيانة الفصحى من لوثات العجمة والعاميات ظلت خجولة غير مسنودة بدراسات علمية دقيقة تبيد الآراء الملهوجة، وتحاصرها في الزوايا الضيقة المغطشة، فإن مناصرة العامية التي يهرول نحوها بعض المنشئين الأغتام في المغرب الذين يهرعون على آثار لويس عوض ومن لف لفه، غايتهم هزيمة الفصحى، وما تدل عليه من أبعاد لا تقتصر على اللسان، لأن اللغة ليست اللسان فقط، بقدر ما هي جماع مكونات الإنسية العربية من تراث ومعتقد وتفكير وحضارة ورموز وقيم وتوازن وذاكرة جماعية مؤسسة لحلول ناجعة تحافظ على الكيان الموحِّد الموحَّد، الذي ضمن للفصحى الخلود ما توالى الملوان.

ولكي تتجنب هذه الورقة اللغوية السقوط في حبائل أنصاف الحلول التي لم يخمرها إطالة الانتقار ومكابدة البحث، فإنني أؤكد أن الدفاع عن الفصحى بالنية الصادقة المرتكزة على العلم الموثوق، والحق المبين، والآراء المحكمة المحصدة المنتجة، أشد وأكثر أثرا في طرد الآراء الكسولة التي تدعو إلى تثبيت سلطان العاميات واللغات الأجنبية في المجتمعات العربية، بدعوى التيسير والتسهيل والدخول إلى أندية العولمة التي حلأت الفصحى ومنعتها من ارتياد آفاقها، وصنع المعرفة والتقنية والخبرة والمهارة بالفصحى والفصيحة. وهنا يجب الاستفادة من الدروس البليغة التي تبديها لنا الأيام في تطور الشعوب والأمم التي بلغت قرن الكلأ في العناية بلغاتها الوطنية الموحدة، التي صنعت بها مجدها المادي والمعنوي؛ لم تفتر لها عزيمة في الحدب عليها وإعلاء شأنها وصيانتها من التحريف والتزوير والتبديل، كما هو الشأن بالنسبة إلى فرنسا التي أبادت لهجات أقاليم «الألزاس واللورين وبروتون وكورسيك»، لأنها تهدد الوحدة الوطنية الفرنسية، كما تهدد السلم اللغوي الذي تضمنه الفرنسية الموحدة، لغة العلم والمعرفة والتكنولوجيا والسياسة والاقتصاد والآداب.

هذا هو الدرس البليغ الذي يعلمنا أن الأخذ بمبدأ الشيوع لقبول الألفاظ وإلحاقها بحظيرة الفصحى يعد تنازلا خطيرا عن الصحة والسلامة وضمان التواصل المفيد، لأن القواعد والأنظمة هي التي تضمن للغة السلامة، أما الشيوع وكثرة دوران اللفظة على الألسنة غير الفصاح، فإن ضرره أكبر من نفعه، لما يشيعه من البلبلة والعبث بما تقوله الكلمات واضطراب الأذهان وفساد المعاملات، كما تؤكد هذه العبارة اللاحنة التي تكررت في الكتب المدرسية، وعلى أفواه مدرسي مادة التاريخ حتى تكرجت، حيث يقولون في عبارة ملهوجة ناكبة عن المراد: أخيرا انتصر الرومان على العرب في الأندلس. وهم يقصدون من كلمة «الرومان» لفظة «الروم» مع العلم أن بين اللفظتين من التباعد ما بين الضب والنون. قال الجوهري: «رومان بالضم اسم رجل. والروم هم من ولد الروم بن عيصو. يقال: رومي وروم، مثل زنجي وزنج، فليس بين الواحد والجمع إلا الياء المشددة» (١).

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣..﴾(الروم:١-٣). الروم اسم جنس جمعي لا علاقة له بلفظة «الرومان» التي تدل على اسم رجل، فما لهؤلاء الناكبين عن الفصحى، جاثمين في اللهجات كأنهم لم يغنوا في الفصحى! ولكي أثبت أن أمر هؤلاء الداعين إلى هجر لغة القرآن الكريم ليس برشيد، وأن أقوالهم لم تزدهم غير تخسير، أجتزئ كلمة قرآنية أخرى تثبت فساد أقوالهم عندما يجمعون كلمة «السجين» هكذا: «المساجين» علما أن هذا الجمع لم يسمع من فصيح يحترم نفسه ويحترم لغة القرآن الكريم الذي أورد لفظة: «المسجونين» قال تعالى: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ۝٢٩..﴾ (الشعراء: ٢٩) قال ابن منظور المصري: «رجل سجين: مسجون، وكذلك الأنثى بغير هاء، والجمع سجناء وسجنى. وقال اللحياني: امرأة سجين وسجينة، أي: مسجونة من نسوة سجنى وسجائن» (٢).

هذا أوان الانتهاء الذي يثبت أن القرآن الكريم نور العربية الساطع، وسيفها القاطع، الذي يجتني من الألفاظ أنوارها، ومن المعاني أثمارها، وقد قصدت الإشارة إلى الكلمتين الآنفتين أجلو بواسطتهما جواهر الصحة التي ضرب اللحن بسور بيننا وبين الصحة، فساءت أحوالنا ومعاملاتنا تبعا لسوء استعمالنا لما تقوله كلمات اللغة.

الهوامش

١- الصحاح. تاج اللغة وصحاح العربية. إسماعيل ابن حماد الجوهري. تحقيق أحمد عبدالغفور عطار. الجزء ٥. ص ١٩٣٩. ط٤. كانون الثاني/ يناير ١٩٩٠. دار العلم للملايين. بيروت. لبنان.

٢- لسان العرب. أبوالفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي. المجلد ١٣. ص ٢٠٣. ط٣. ١٤١٤هـ/١٩٩٤م. دار صادر. بيروت. لبنان.

جائزة (بوكر).. دماء زرقاء في عروق الثقافة العربية

محمد أبوالسعود الخياري
باحث وناقد أدبي

يعلن في التاسع والعشرين من أبريل المقبل اسم الروائي العربي الفائز بجائزة البوكر السابعة، بعدما تداولها سبعة روائيين في المواسم الستة الماضية.. توزعوا على خمسة أقطار عربية.

وكانت إدارة الجائزة قد أعلنت في العاشر من فبراير الماضي القائمة القصيرة لجائزة العام الحالي ٢٠١٤م، حيث اختيرت ست روايات هي: رواية «الفيل الأزرق» للمصري أحمد مراد، ورواية «لا سكاكين في مطابخ هذه المدينة» للسوري خالد خليفة، ورواية «فرانكشتين في بغداد» للعراقي أحمد سعداوي، ورواية «طائر أزرق نادر يحلق معي» للمغربي يوسف فاضل، ورواية «طشاري» للعراقية إنعام كجه جي، ورواية «تغريبة العبدي المشهور بولد الحمرية» للمغربي عبدالرحيم لحبيبي.

وقد تشكلت لجنة التحكيم من الناقد والأكاديمي السعودي سعد البازعي رئيسا، مع عضوية كل من: عبدالله إبراهيم الناقد والأكاديمي العراقي، محمد حقي صوتشين الأكاديمي التركي المتخصص في تدريس العربية وترجمة أدبها إلى التركية، أحمد الفيتوري الصحافي والروائي والمسرحي الليبي، زهور كرّام، الأكاديمية والناقدة والروائية المغربية.

أُطلقت الجائزة العالمية للرواية العربية رسميا في أبوظبي في أبريل ٢٠٠٧. وهي ناتجة عن تعاون بين «مؤسسة بوكر» البريطانية و«مؤسسة الإمارات» التي تتكفل بدعم الجائزة ماديا وإعلاميا، بالإضافة إلى «معهد وايدنفيلد للحوار الاستراتيجي».

والجائزة تمنح لرواية عربية تصدر في العام نفسه، وتتم مكافأة كل من الروايات الست التي تصل إلى القائمة النهائية بعشرة آلاف دولار أميركي، بالإضافة إلى خمسين ألف دولار أميركي للفائز بالمركز الأول.

حول الجائزة الأم

وجائزة بوكر البريطانية هي جائزة أدبية مخصصة للأعمال الروائية الصادرة باللغة الإنجليزية، وقد أسست عام ١٩٦٨. تمنح لأفضل رواية صدرت في المملكة المتحدة أو في أي من دول الكومنولث أو من جمهورية أيرلندا.

وعن هذه الجائزة تفرعت جائزتان هما: جائزة بوكر الروسية التي أسست عام ١٩٩٢، وجائزة كاين للأدب الإفريقي والتي أسست عام ٢٠٠٠. وتحرص كل منهما على مراعاة تقاليد الشفافية للجائزة الأم، ولحقتهما الجائزة العالمية للرواية العربية في ٢٠٠٧.

شفافية صدمت ثقافة (الشلة)

وعلى الرغم من أن الجائزة تمنح سنويا لرواية عربية، وتمولها مؤسسة عربية هي هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة في «أبوظبي» الإمارات العربية المتحدة؛ فإنها محتفظة بتقاليد الجائزة الأم (البوكر البريطانية)، لاسيما التعامل الشفاف مع الروايات المحكمة، دون أدنى اعتبار لاسم الكاتب أو تاريخه أو جنسيته؛ وهذه مزية فريدة جعلت الجائزة تنجح في اكتساب المصداقية لما تحدثه للوسط الثقافي العربي من إثارة المفاجأة تجاه الرواية الفائزة؛ للدرجة التي كانت الجائزة سببا في معرفة المثقفين -فضلا عن العامة- بروائي يبدأ خطواته الأولى.

وجبة عربية بطعم إنجليزي

أما الأثر السلبي في هذا الارتباط الفطري بالجائزة الأم فيكمن في مراعاة الانتماء للفكر والثقافة الإنجليزية للقائمين على الجائزة، سواء في مجلس الأمناء، أو في معظم لجان التحكيم في السنوات السابقة. فمثلا يضم مجلس أمناء الجائزة

أكاديميين في الأدب؛ المختصين منهم في الأدب العربي جميعا يعملون في جامعات أجنبية؛ فرئيس مجلس الأمناء بروفيسور «ياسر سليمان»، هو أستاذ الدراسات العربية الحديثة في جامعة كامبريدج، بريطانيا. والأمر نفسه مع «رشيد العناني» عضو مجلس الأمناء، والذي يعمل أستاذا للأدب العربي الحديث، جامعة إكستر، ومحررا لسلسلة «دراسات في الأدب العربي الحديث»، المملكة المتحدة.

ويضم مجلس أمناء الجائزة من بين أعضائه الاثني عشر- ثلاثة أعضاء بريطانيين؛ منهم رئيس مجلس إدارة الجائزة الأم (بوكر للرواية البريطانية) البريطاني «جوناثان تايلور»، حامل وسام الإمبراطورية البريطانية، من درجة قائد، ورئيس مجلس إدارة مؤسسة «بوكر»، و«إفلين سميث»، سكرتيرة الجائزة العالمية للرواية العربية، وهي في نفس الوقت سكرتيرة مؤسسة بوكر بالمملكة المتحدة؛ بالإضافة إلى الناشرة البريطانية «مارغاريت أوبانك» رئيسة تحرير مجلة «بانيبال».

واللافت أيضا أن من يمثل الأكاديميين العرب ويعمل داخل الجامعات العربية اختير متخصصا في الأدب الإنجليزي، لا العربي؛ مثل الدكتورة «ماري تريز عبدالمسيح» أستاذة الأدب الإنجليزي والأدب المقارن، جامعة القاهرة، والتي تعمل حاليا مديرة برنامج «الدراسات الأدبية والثقافية المقارنة» بجامعة الكويت.

فمجلس أمناء الجائزة الحالي (يتم تغييره كل ثلاث سنوات أو يجدد له مرة واحدة) لا يضم أكاديميا واحدا مختصا في الأدب العربي يعمل بجامعات الوطن العربي، كما يخلو من الروائيين العرب.

الفائزون أجيال ومدارس

وكان الروائي المصري بهاء طاهر قد فاز بالجائزة في موسمها الأول ٢٠٠٨ عن روايته التاريخية «واحة الغروب»، ومن مصر أيضا تبعه يوسف زيدان لينال جائزة ٢٠٠٩ عن روايته المعروفة «عزازيل»، وفاز السعودي عبده خال بها في ٢٠١٠ عن روايته «ترمي بشرر»، ثم اقتسم الجائزة روائيان في ٢٠١١؛ محمد الأشعري من المغرب عن روايته «القوس والفراشة» ورجاء عالم من السعودية عن روايتها «طوق الحمام». ثم كان العامان التاليان خالصين للشباب؛ فقد فاز بجائزة ٢٠١٢ اللبناني ربيع جابر عن روايته «دروز بلجراد.. حكاية حنا يعقوب»، وتبعه بجائزة ٢٠١٣ الروائي الكويتي سعود السنعوسي عن روايته «ساق البامبو».

مفارقات الفوز

ليس للروائي المخضرم تذهب الجائزة؛ فالسنعوسي صاحب جائزة ٢٠١٣ ذهب إليها بتاريخ روائي هين جدا، حيث حمل على ظهره رواية وحيدة سبق بها «ساق البامبو» هي «سجين المرايا»، وتجربة إنسانية تسير في أول المشوار بعمر لم يناهز الواحدة والثلاثين.. ورغم هذه الأسلحة الضعيفة استطاعت الرواية الثانية للسنعوسي بعالمها الإنساني والقيمي الرحب أن تتخطى قامات روائية كبيرة وعريقة؛ مثل واسيني الأعرج الروائي المخضرم والأستاذ بالسوربون والفائز بجائزة الشيخ زايد في الأدب عام ٢٠٠٧م.

تعقيب وأمنيات

تحقق الكثير من أهداف الجائزة المعلنة مثل الشفافية والموضوعية في الاختيار، وبث الحيوية في أوساط الروائيين والقراء على السواء، ودفع المواهب الروائية الشابة، وفتح آفاقا واسعة للرواية العربية لتلج أرضا جديدة وثقافات مغايرة، بقيام الجائزة بالتعهد بترجمة الروايات الفائزة وروايات القائمة القصيرة؛ بالإضافة إلى التكريم المادي السنوي الذي يتجه نحو ستة روائيين عرب كل عام.

هذه النجاحات والمكاسب تدفعنا إلى المطالبة بالاهتمام بفروع أخرى لأدبنا العربي، كالشعر والمسرح والقصة وأدب الأطفال، عسى أن تزدهر هذه الفنون على النحو الذي ازدهرت به الرواية والتف حولها جمهور القراء.. (طبعت رواية سعود السنعوسي «ساق البامبو» عشر طبعات خلال عام واحد بعدما اختيرت للجائزة ٢٠١٣).

أما المضمون الفكري لروايات الجائزة والبناء الفني فله حديث جديد، بإذن الله.

رؤية الزمان والمكان في الرواية السعودية المعاصرة

عبداللطيف خروبة
أديب مغربي

الزمان والمكان مكونين أساسيين في العمل السردي، فهما ركنان متلازمان لا يمكن الفصل بينهما، فلا يمكن تصور قصة من دون فضاءين، زماني ومكاني، تدور فيهما الأحداث، ولا فرق أن يكونا خياليين أو واقعيين. كما لا يمكن تصور قصة تجري في مكان دون الزمان، وحين «نقرأ قصة يجب ألا ننسى بأننا نقرأها في كتاب، وأن الأحداث أو الوقائع التي ترتسم في أذهاننا إنما هي أحداث أو وقائع تنتمي إلى الفضاء المتخيل» (١).

وهذان الفضاءان لهما قدرة كبيرة على الإيحاء بالعديد من المعاني القابلة للمناقشة والتأويل. وقد اتخذت رواية «عمر يظهر في القدس» لنجيب الكيلاني (٢) مادة لهذا الموضوع.

إن رواية «عمر يظهر في القدس» لكاتبها نجيب الكيلاني، انطلاقا من عنوانها وانتهاء ببنيتها وتشكيلها الجمالي والمعرفي، تمثل تجربة ثرية على مستوى الرؤية المتعلقة بالزمان والمكان، والعلاقة القائمة بينهما، وتفاعلهما في سياق معين. ولعل ما يسترعي الانتباه في هذه الرواية هو تناولها للعديد من القضايا، سياسية واجتماعية وعقدية وحضارية، وهي بذلك تنسجم مع أدب الكاتب الذي يعالج قضايا الأمة، ومنها قضية الاحتلال الصهيوني لفلسطين، ومعاناة أهلها من قساوة الاحتلال، الشيء الذي حول الحياة إلى جحيم لا يطاق، وعمق الإحساس والحاجة إلى الانعتاق والتحرر.

تدور أحداث الرواية حول ظهور الخليفة عمر رضي الله عنه من جديد في مدينة القدس، وما أثاره هذا الظهور من آراء مختلفة وتحولات في المواقف والمعتقدات للعديد من الشخصيات، ومن تحركات أمنية داخل سلطات العدو، من أجل مواجهته وإيقاف خطره، فأجبرته على الإقامة في المستشفى بعدما دخل إليه لعلاج مرض أصابه. وفي داخل المستشفى بدا قوي الإيمان، لم يخفه التهديد، ولم يخضع لأي إغراء، فكان يدعو من يقابله إلى الإسلام، فآمنت شخصيات متعددة، كما أنه انتقد العديد من الظواهر المشينة التي تعج بها المدينة. وتنتهي الرواية باختفاء عمر بعدما تم تهريبه من المستشفى، ووقوع الذين رافقوه في قبضة العدو.

١- الزمان: هذا المكون مهم جدا في الرواية، إلى درجة أن بعض الدارسين اعتبره موضعا للرواية أو بطلها (٣).

يقوم الزمان في رواية «عمر يظهر في القدس» على التطور الخطي في الغالب، فهو يبدأ بظهور عمر في القدس وما حصل معه من أحداث حتى نهاية الرواية باختفائه ووقوع مرافقيه أسرى في يد الأعداء، وإيداعهم السجن. فالزمان هو زمان الحاضر والمستقبل المأمول. فما يحصل من أحداث في الحاضر له تأثيره في الغد، فالحاضر يبدو غارقا في السلطة والسيطرة والقمع. وإن دورة الرواية الزمانية الحاضرة معروفة، أما الدورة المستقبلية فهي غير محدودة أو معروفة ولا محصورة، فهي مفتوحة على كل الاحتمالات، والمصير النهائي للأحداث غير محسوم، وهذا لم يعلنه السارد مباشرة، وإنما يستفاد ضمنيا من أحداث الرواية وتحركات الشخصيات في الزمان والمكان. فزمن تحقق الأمل، الذي هو الحرية، لا يزال بعيد المنال، ويحتاج إلى شخصيات مثل عمر رضي الله عنه في صبرها، وصمودها، وصدقها، وشجاعتها في إحقاق الحق، وفهمها للواقع وتشبعها بالعقيدة الإيمانية الصحيحة، لا تخشى في الله

شيئا، فتعمل على تحرير الوطن من الاحتلال. «نحن في حاجة إلى رجل مثلك، إلى الإيمان الممتزج بالطهر، القوة التي تخالطها الرحمة، العقاب المتضمخ بالعدل. يا أمل المساكين في عالم الضياع والعذاب» (٤).

إن الزمان بهذه الصيغة الخطية إعلان عن مسار حركة الشعب الفلسطيني ومعاناته الشديدة. فظهور عمر رضي الله عنه في الزمان الحاضر في مدينة القدس والتزامه بصورته المعهودة عليه، ما هما إلا رمز الخلاص من المعاناة، وهذا ما يحتاج إليه الإنسان الفلسطيني: «إنه.. الخلاص الأكبر، هو ما كنت أبحث عنه» (٥).

كما يظهر الزمان الحاضر الرغبة الملحة للصهاينة المحتلين في استمرار سحق الشعب الفلسطيني حتى تبقى لهم السلطة في القدس، وهذا يجعلهم ينكلون بكل من تسول له نفسه محاربة سلطة الاحتلال وكيانه، وحتى اليهود الذين تلين قلوبهم للمسلمين فهم يعرضون للقتل والتعذيب، وهذا ما حصل مع المخبرة راشيل عندما أحس العدو بأنها تميل إلى عمر «في مساء اليوم الذي دفنت فيه راشيل وُجد إيلي منتحرا في حجرته» (٦).

وعندما يعود الزمان إلى الوراء، عبر تذكر عمر لأيامه زمان الخلافة، إنما هو حنين السارد إلى عودة مثل ذلك العهد الزاهر، حيث تسود العدالة، وينتشر الحق، وينتهي الظلم. إنه يحيل إلى أن سبيل الهداية والرشد هو الذي كان عليه الأسلاف الصالحون، حيث التمسك بالدين، والتشبث بالمبادئ، والثبات على الحق، وهو السبيل للتخلص من العذاب والمعاناة. «جاء لرشدنا فنسير على هدى الله» (٧).

كما أن الاسترجاع كشف عن استمرار اليهود منذ زمن بعيد في دسائسهم وخداعهم، وكيدهم للإسلام والمسلمين: «هم دائما هكذا.. يلجأون إلى أخس الحيل وأدناها.. أنا أعرفهم من قديم» (٨).

إن الزمان يؤشر إلى أن ما وصل إليه الفلسطينيون من هزائم متوالية هو نتيجة للتعلق بالمناصب، والأنانية، وهذا ما بدا واضحا من قول خطيب المسجد: «ماذا سيكون موقفي أمام السلطات الإسرائيلية، سيتهمونني بالمشاركة في تدبير مؤامرة.. وأنا مسؤول هنا عن أسرتي وأولادي وأموالي» (٩).

ولعل الكاتب من خلال لجوئه أحيانا إلى الماضي إنما هو رغبة في حفز المتلقي على مواكبة الأحداث، والمقارنة بين الماضي والحاضر، الماضي حيث كانت القدس تنعم بالحرية، وكان المسلمون متألقين يرشدون العالم إلى الهداية والخير، وبين الحاضر الذي تشهد فيه شتى أنواع المعاناة، رغم التشدق بحقوق الإنسان. «القوة في أيديكم لقهر المساكين، والحرية دعارة، والعلم تحكيم للأنانية» (١٠).

ولأجل دفع القارئ إلى اختيار الموقف المناسب، والخط الذي ينبغي اتخاذه «لو بلغنا من العلم الدنيوي ما بلغتم، لما استغرقت هداية العالم منا أكثر من بضعة شهور، ولأخذنا الناس بالجادة. ويبدو أن زعماء العالم اليوم لا يستغلون ما وهبهم الله من قدرات إلا لجركم إلى الانحراف والخنوع والغرور» (١١).

ورغم ما يعانيه الناس من قمع وتقتيل وتشريد، فإن الأمل موجود دائما، رغم صعوبة مناله. فسيأتي رجل أو رجال مثل عمر ليحققوا الاستقلال، وهذا ما يظهر من قول السارد: «ماذا لو مات الخليفة أثناء العملية؟ الحدث الكبير ينتهي هكذا بسرعة، وتجهض آمالي العريضة» (١٢).

٢- المكان: يعمل المكان على تنظيم تفاصيل الأحداث، والربط بينها، والحفاظ على انسجامها. كما أن له تأثيرا عميقا في الشخصية، مما يخلق أبعادا دلالية. وإذا كان المكان العام في الرواية هو مدينة القدس وضواحيها، فإن هناك أمكنة متنوعة تفرعت عنها، ومنها ما هو مفتوح كالطريق المؤدي إلى القدس، أو شوارعها، وبواباتها. ومنها أماكن مغلقة، كالسجن والبيت والمستشفى ومكاتب المحققين.

وتبقى هذه الأماكن عديمة القيمة ما لم ترتبط بتحرك الشخصيات وبتجربة الحياة للسارد والفدائيين، وعمر، والاحتلال، وراشيل الفتاة الإسرائيلية، وإيلي، ودافيد المخبرين في الأمن الصهيوني، وضباط الأمن والمحققين، فهذا هو الذي يعطي للمكان حضوره، وبعده النفسي، وتأثيره في من يعيش فيه. «فالمكان سواء كان مدرسة، أو سجنا، أو مستشفى، يظل هيكلا ماديا مجردا من أي قيمة اجتماعية أو مؤسساتية معينة ما لم يكن حاضنا لتجربة إنسانية معينة» (١٣).

وتحركت الصحف والقنوات الإعلامية للحديث عن عمر، وإطلاق الإشاعات عنه من أجل تلطيخ سمعته، وإثارة الشك في نفوس الفدائيين حوله، وتحريض السلطات على اعتقاله والتحقيق معه ومعرفة حقيقته، وبالتالي التخلص منه لأنه يشكل خطرا حقيقيا على استقرار أمنها. «هل يخطر ببالك أننا سنشيع عنه أنه عميل صهيوني، يخدم أهدافنا المشتركة مع أمريكا. ولك أن تقدري الرد العنيف بين العرب والمسلمين قاطبة... ولسوف ننشر تصريحات محرفة على لسانه تتعلق بالدين والسياسة» (١٤).

لقد كان لكلام عمر الصريح والحقيقي مع الصحافيين والمحققين أثر بالغ، يهز كيان العدو مهما كانت سلطته، وشدته: «دارت رأس الصحافية، لمعت في عينيها دمعتان، ارتجف جسدها، صاحت مستجدة: هيا بنا يا أستاذ. أكاد أسقط إغماء، وأوشك أن أؤمن بهذا الرجل» (١٥).

والمعتقل، كمكان، لعب دورا بارزا في الرواية، حيث كان سببا في الكشف عن رسائل للفدائيين، غاب أمرها بعدما قبض على صاحبها وألقي في السجن. فعندما كان عمر في المعتقل همس إليه أحد الفدائيين بهذا السر،

الـذي كـان ينتظره الفـدائيـون منذ زمن طويل. «هذا نبأ سار كنا ننتظر هـذه الرسالة منذ وقت طويل. لقد انتظرنا حامل هـذه الرسـالـة طوال هذه الفترة دون جدوى، فرجحنا أنه قتل أثنـاء عبور خط النـار» (١٦). إن مدينة القدس بطبيعتها المحتلة، مكـان حاضـن لـلأحـداث ومنتـج لها من جهة، ومـن جهة ثانية هي مكان يعادي الإنسان، لأنه يفتقد فيه الأمن. ولـذلـك، فـإن التجربة المعيشية في المكان تجربة صعبة ومؤلمة، لأنه مكان للقمع والإحبـاط والتعذيب، فالعدو مـارس كل أشـكـال القمع والتعذيب في حق أهل القدس. «كم من امرأة، وكم طفلا، وكم شيخا الآن يقاسون الحـرمـان والجـــوع. فلسطين الآن مجموعة من المشردين أو المحاربين أو السجناء» (١٧).

كما يتميز المكان بالعديد من التقابلات، فالمنفتح يقابل المغلق: الطريق والبوابة يقابلان السجن ومكاتب التحقيق والمستشفى، والمكان البسيط يقابل المركب، فبيت السـارد البسيط في أثاثه وشكله، يقابله بيت راشيل الذي يبـدو عليـه الغنـى والـتـرف. وبهذا يتحول المكـان من البعد المـادي إلى البعد الاجتماعي والثقافي والسياسي في علاقة الإنسان به، فالمكان المفتوح يحمل على الراحة والطمأنينة والأمل: الطريق والقدس، في حين المغلق يحمل على السأم والملل والاشمئزاز والنفور: السجن ومكاتب المحققين والشرطة.

وقد قدم السارد الأماكن المتناقضة في بنية متحركة ومتحولة، حيث علاقة الإنسـان بالأمكنة تتحدد في كونها توفر له الحماية، أو تقهره. فالمكان تلتحم فيه فكـرة الألفـة والعدائية، الطمأنينة والخـوف. فتنـاول المكان بهذه الكيفية يعد موقفا يكشف آليات الصراع، وعمق التناقضات التي أدت إلى تصاعد نبرة السرد انطلاقا من استخدام المكان المغلق بوصفه مكانا منـحـازا ضـد الإنـســان، السـجـن/ الشـرطـة. فـالمـكـان المغـلـق محكوم بالسلطة وقوانينها غير الشرعية، ومعـامـلاتهـا الـوحشـيـة. فالسلطة الصهيونية هي سلطة القهر وانعدام العدل في التعامل مع الفلسطينيين، واختلاق الأدلة للزج بهم في السجن. «نـحـن أسـاتـذة العـالـم، ولـم نعد في حـاجـة إلـى عـربـي يعلمنا السلوك والآداب، أنت متهم بالتدخل في شؤون الآخرين» (١٨).

إن السجن كمكان يتميز بالمعاملة غير الإنسانية للمعتقلين، والتلذذ بمشاهد التـعـذيب: «دفـعـنـي السـجـان بغلظة وجفوة.. ثم صفعني على القفا.. ثم رفسني بحذائه الثقيل.. ثم صفعني علـى وجـهـي وأعـقـبـهـا بلكمة قوية سـددهـا إلـى فكي الأسـفـل ترنحت على إثرها.. وأخذني على حين غرة بصفعة مباغتة. وشهقت.. وأتبعها بركلة قوية في بطني.. تهاويت بعدها علـى الأرض عـاجـزا، والألـم يمزق أحشائي.. فجذبني من رباط العنق حتى انطرحت على الأرض تماما، وانـقـض علـي كلبـان مـدربـان أخذا ينهشان جسدي حتى مزقا سروالي وأسالا دمائي.. والزبانية يضحكون» (١٩).

فالمكان المغلق في الرواية يدل على قوة السلطة وشدتها، أمـا المكان المفتوح فيتوقع أن يدل على التحرر والانعتاق، إلا أنه على العكس، فالسلطة الجائرة تعم كل الأمـاكـن، مفتوحة أو مغلقة. ولـعـل هـذا مـا يـفـسـر قـلـق السارد وخوفه على المكان إذا هو استمر تحت الاحتلال، فضياع المكان هو بالضرورة ضيـاع لكيان الـفـرد وهـويـتـه وإطاره الذي لا يكون إلا به.

إن السلطة توحي بالعلوية والهيمنة، وتهدف إلى الإخضاع والإذلال، وتريد أن تجعل الشعب تابعا لأوامرها، منفذا لقوانينها. كما يظهر المكان بأنواعه، مغلقا أو مفتوحا، خوف المسلمين من الصهاينة، وعدم قدرتهم على فعل أي شيء: «تمتم عمر لقد هربا، وقلت لقد نجونا. لكزني عمر في ضيق قائلا: تصرفاتك لا تليق بمسلم، أنت شديد الخـوف» (٢٠). غير أن الـهـدف لم يتحقق، رغم الإذلال، فلا عمر رضخ، ولا السجين خضع لها، مهما اشتدت أنواع الإهانة والتعذيب.

خاتمة: اتضح مما سبق أن الزمان والمكان في الرواية مجالان حاضنان لمختلف أنمـاط سلوك الشخصيات وأفعالها، وأنهما قد مكنا من فهم كل تحركاتها وتصرفاتها في وضعياتها وتفـاعـلاتهـا المـخـتـلـفـة، سـواء كانت مـتـوافـقـة مـتـفـاهـمـة، أو متناقضة متضاربة الأهـداف، يعـادي بعضها البعض الآخر.

وبذلك فهما يحملان بعدا إنسانيا، ويرسمان معالم الشخصيات وتجاربها الحياتية. إن الزمان والمكان في هذه الرواية يعكسان الجراحات العديدة الناتجة عن ممارسات سلطة العدو ضد أهل الأرض المسلوبة. والملاحظ أنهما يتقاطعان مع الواقع في العديد مـن الـقـضـايـا: الاحـتـلال، الأرض، الحاضر والمستقبل. فالواقع شديد الاضـطـراب، والـصـراع محتد بين العدو وأهل الأرض المغتصبة.

الهوامش:

١- تقنيات السرد الروائي، ص٧١، يمنى العيد، ط١، دار الفارابي، بيروت ١٩٩٠.
٢- روايـة «عـمـر يظهـر فـي الـقـدس»، نجيب الكيلاني، ط١ بالمغرب، مؤسسة الرسالة ٢٠٠١.
٣- تحليل الخطاب الروائي، ص٨٠، سعيد يقطين، ط٣ المركز الثقافي العربي بيروت ١٩٩٧.
٤- «عمر يظهر في القدس»، ص١٥٦.
٥- نفسه، ص١٥٢.
٦- نفسه، ص٢٦١.
٧- نفسه، ص ١٣٨.
٨- نفسه، ص ١٦٠.
٩- نفسه، ص١٣٣.
١٠- نفسه، ص٩٦.
١١- نفسه.
١٢- نفسه، ص١٠٣.
١٣- «عالم الفكر»، ص٢٢٨، عدد٣، مجلد ٤١ يناير، مارس ٢٠١٣.
١٤- الرواية، ص١٦٨.
١٥- الرواية، ص٢٠١.
١٦- الرواية، ص٧٥.
١٧- الرواية، ص٧٢.
١٨- الرواية، ص٢٨.
١٩- الرواية، ص١٤٦.
٢٠- الرواية، ص٣٠.

مقام البداية والختام

محمد عباس علي
شاعر مصري

سعت القلوب إلى رباك فشدها ... نور يفيض على الوجود سلاما
محمودُ أنت، وأنت أحمدُ من سرى ... ومحمد المبعوث نورا .. داما
يمضي الزمان وأنت شمسٌ، نورها ... يأبى الغياب، كما الزمان أقاما
بدت الحياة على هداك سنية ... غراء تعبر بالضياء ظلاما
الله أكبر قد أنار طريقنا ... نورٌ أهّل فأيقظ النُّوَّاما
صلى عليك الله في عليائه ... وحباك فضلا في العلا ومقاما
فسموت فوق الحادثات، وبعضها ... جللٌ، يهز ممالكا وعِظاما
وملكت بالأخلاق أفئدة الورى ... فرأتك أهلا وارتضتك إماما
ومددت كفك بالسلام فأينما ... لاقيت سِلْما تدفع الأقداما
يا خير من عرف الزمانُ هداية ... ونقاءَ نفس أبهر الأياما
من سار خلفك لا يخيب رجاؤه ... فالأرض خلفك ترشد الأقواما
ويكون حبك للقلوب فريضة ... ويكون ذكرك للعقول مراما
وينال من صلى عليك شفاعة ... وكذاك عفو الله حيث أقاما
كنت الحبيب لمن رآك وإن جفا ... أو راح يجهر بالعداء خصاما
ودعوت قومك: لا إله سوى الذي ... للعالمين قد ارتضى الإسلاما
أرسيت بعدك للأنام شريعة ... للنور تمنح ساحة ومقاما
أرسيت للأيام عهدا قد جرى ... بين الشعوب وأرشد الحكاما
فالأمر شورى والرؤوس صغيرها ... مثل الكبير مهابة ومقاما
لا فرق بين الأعجمي وغيره ... مادام عفًا صالحا، قوّاما
إخوان دين، لا يفرق بيننا ... شرٌ يُغير ويقطع الأرحاما
مادامت الشورى سلاح كبارنا ... والعدل يرفع للظلوم حساما
ووهبت للخلد الرجال فكلها ... رمزٌ يجل ويبهر الأفهاما
ومضيت تسلك بالأناة مسالكا ... ترضي العقول وتقطع الأوهاما
أنت الحبيب وما لغيرك ينبغي ... ذاك المقام بداية وختاما

البوابة الكبيرة

مياسة النخلاني - قاصة من اليمن

جلس على رصيف الشارع، يراقب حركة السيارات بعينين مرهقتين، فالشمس تشق طريقها إلى كبد السماء بإصرار وعناد، وفي طريقها تصب على رأسه الصغير حمم سطوتها، مسح جبينه المتعرق بكم قميصه، وهو يبلل ريقه بلعابه الجاف، فرغم أنه يمسك بزجاجات ماء باردة تذيب قلبه الصغير لكنه لا يجرؤ على فتح واحدة منها.

بمجرد توقف السيارات على امتداد الشارع، إذعانا للإشارة الحمراء، زفر هواء ساخنا من صدره المثقل بهموم توازي الجبال ثقلا وحمل ما معه وجرى إلى وسط الشارع، يلوح بأكياس المناديل الورقية وزجاجات الماء البارد من نوافذ السيارات المتوقفة على عجل.

«ابتعد من هنا»..

قالها الرجل الجالس خلف مقود سيارة أكل منها الزمن وشرب، رمقه بنظرات احتقار لا تقل اهتراء عن صفيح سيارته الصدئة، وبمجرد أن حل اللون الأخضر في اللوحة المعلقة في وسط الشارع، ألقى ببعض الشتائم وانطلق مبتعدا.

وقف الصغير على الرصيف مشدوها ونظرة حزن ممزوج بغيظ مكتوم تسبح في عينيه الصغيرتين.

«وغد!»

رددها في أعماقه بصراخ صامت وهو يبتعد عن وسط الشارع دون أن يبيع أي شيء، توارى تحت إحدى الأشجار المتناثرة على طول الشارع، وضع بضاعته جانبا وراح يشتت ذهنه وغضبه بمراقبة ما حوله في محاولة يائسة منه لابتلاع غصة تأبى أن تغادر حلقه.

فتح أحد أكياس المناديل، أخرج منها المربعات البيضاء الواحدة تلو الأخرى، فتحها ومسح بها جبينه، ووجهه، ويديه، أمسك بآخر منديل، فرده وغطى به وجهه ليترك المجال لدموعه التي عجز عن حبسها أكثر أن تداعب خديه الأسمرين، كان صوت نحيبه المكتوم كفيلا ببث التعاطف في قلوب الحجارة التي تحيط به، لكن للأسف لم يجذب انتباه أحد ممن يغدون ويذهبون من أمامه، وكأنه نكرة لا تستحق ولو الادعاء بالتعاطف، عندما تعب الصغير من البكاء نظف أنفه ورمى بالمنديل جانبا.

كان مرهقا للغاية، فهاهي الساعة تتجاوز الحادية عشرة ظهرا، ولم يحالفه الحظ بعد ببيع ما يشتري به ما يسد رمقه، أسند رأسه لجذع الشجرة، أخذ نفسا عميقا وشغل نفسه بتتبع أشعة الشمس التي تسللت من بين الأوراق التي بدأ الخريف يعبث باخضرارها وينشر الشيب بين عروقها الفتية، رفع إصبعه الصغير وأخذ يعدها، وكلما أخطأ بالعد أعاد الكرة مجددا.

تابع العد دون كلل، فتناغم الأرقام المنسابة بارتعاشة من بين شفتيه الصغيرتين أعطاه شيئا من الهدوء والسكينة التي كان يحتاجها في تلك اللحظات.

«ماذا تفعل عندك»؟!

تنامى إلى سمعه تساؤل حنون قبل أن يصل إلى العدد مائة بثلاثة أرقام:

«كنت آخذ استراحة من العمل»..

قالها بوهن وهو ينهض من مكانه، وقف على قدميه يطالع الرجل الذي اقترب منه وابتسامة تعلو ملامح وجهه، وعندما صار الرجل بجانبه جثا على ركبتيه

«اقترب مني يا صغيري»

قالها وهو يفتح له ذراعيه بشوق، ودون أن ينبس ببنت شفة رمى بجسده الصغير في حضنه كما يفعل دائما.

لوهلة اختفت الضوضاء من حوله، وطغى عليها صوت دقات قلب متسارعة، تبدد نور الشمس الساطع، ولم يعد يرى إلا هالة الضوء المنبعثة من حضن دافئ.. سحب نفسه أخيرا وحدق في وجهه بعينين دامعتين، مسح دموعه براحة يديه، وقال بصوت باك:

«لماذا تركتني ورحلت بعيدا... لماذا»؟!

طبع والده قبلة طويلة بين عينيه، وأخرى على جبينه، وثالثة على خده، أمسك بيديه الصغيرتين، وأخذ يفرك

راحتيهما برقة ويزيل عنهما الأتربة التي علقت عليهما، حينها أدرك إلى أي مدى بدأت نعومتهما تختفي، وتحل محلها خشونة نحتتها قسوة الأيام بين ثناياهما. طبع عليهما قبلة طويلة ممزوجة بالدموع، وقال وهو يعاود ضمه إليه:

«يـــااه، كم كبرت يا صغيري خلال العامين اللذَين أعقبا فراقي لكم»..

كان دفء حضنه كفيلاً بإزاحة الغصة التي استوطنت حلقه لشهور طويلة، أغمض عينيه واستسلم لشعور جميل، عابق بالدفء، مضت لحظات قبل أن تلتقي عينيه بعيني والده مجددا، ليعاتبه مجددا على رحيله...

«لو كان بيدي ما تركتك يا صغيري لتقاسي كل هذا، لكنها إرادة الله، وعلينا أن نمتثل لها».. قالها وهو يمسح بقايا دموع علقت على أهداب صغيره الذي لا يتجاوز الحادية عشرة من عمره «آه لو تدري يا أبي كيف يسيئون معاملتي هنا، وكأني أشحت منهم، مع أني أكسب قوتي بعرق جبيني كما علمتني»، قالها بحزن لم يسع لمداراته.

«لا عليك».. قالها وهو يربت على كتفيه ليكمل بصوت حازم:

«أعلم جيدا أنك ستتخطى كل هذا، فأنت رجل يعتمد عليه، لا تدرك كم أنا فخور بك الآن، وسأظل كذلك.. فقط كن أقوى من كل تفاهاتهم ليلازمني هذا الشعور ويهون علي افتراقي عنكم»..

هز رأسه بسعادة وكأنه يعده أنه سيفعل، شعر بسعادة تتسلل إلى قلبه وهو يسمع مديح والده له، شعر حينها أن الزمن تحرك بسرعة متناهية للأمام، شهور بل أعوام توالت بثوان، وفي لحظة واحدة توسط صدره الصغير قلب رجل بالغ قادر على تحمل الشدائد، استصغر حينها الإهانة التي تلقاها قبل لحظات من رجل تافه، ويتلقاها كل يوم، ما عاد يعبأ بكل ذلك، فعليه وعد ينبغي أن يوفيه لوالده، وسيجعله فخورا به حقا..

«ابتعد من هنا، فهذا المكان يخصني»..

فتح عينيه بصعوبة بالغة، وراح يفركهما بيديه، محاولا تبين ملامح وجه صاحب الصوت الغاضب الذي أخرجه من حلم جميل، ودون أن يرد بكلمة واحدة لملم حاجياته، وغادر مسرعا يلوح بها من نوافذ السيارات قبل أن تختفي الإشارة الحمراء مجددا.

أوشكت شمس ذلك اليوم على المغيب حين قفل عائدا إلى البيت، تبدل حظه بعد أن زاره والده في تلك الإغفاءة البسيطة، باع كل ما لديه واشترى لوالدته وأخيه الصغير طعام العشاء، شعور غامر بالسعادة والأمان استوطن قلبه، فلا يزال دفء حضن والده يعبث بنبض قلبه عبثا جميلا.

توقف عند البوابة الكبيرة، التي تقع على مشارف الحي الذي يعيش فيه، وضع ما بيده جانبا، تجاوز البوابة، وعلى بعد خطوات منها من الداخل، جثا على ركبتيه وراح يمسح اللوح النظيف، وبوقار راح يقرأ الكلمات المكتوبة على اللوح.

محمد سعيد قاسم

تاريخ الوفاة ١٩٨٧/٧/١٢

صمت للحظات مستحضرا مشاعر عصفت به ذلك اليوم وكادت أن تنتزع قلبه الصغير من مكانه.

«أشتاق إليك كثيرا يا أبي»

قالها وهو يقاوم دموعا ترقرقت في عينيه، لم يراعوا يومها صراخه ولا توسلاته، وراحوا يهيلون التراب على جسد أبيه بصمت، وأخيرا حمل له الصمت ورياح المساء الباردة صوت أبيه الحنون، وهو يخبره بأنه يشتاق له أكثر، وأنه فخور به بحق.

رفع يديه، قرأ الفاتحة على روحه، ثم أخبره بكل ما حصل له خلال يومه بكلمات صامتة، وقبل أن يحل الظلام غادر المكان بهدوء كما دخله بهدوء..

وقبل أن يبتعد التفت إلى المساحة الشاسعة حيث ينام أحباب غيبهم الزمن بصمت على بعد خطوات من حيه الصاخب، ابتسم ثم واصل طريقه، شعر برغبة للعودة إلى مقاعد المدرسة التي تركها بعد رحيل والده، وصمم على تركها رغم توسلات والدته، سيعود ويعوض ما فاته، لكنه لن يترك والدته تتحمل العبء كله بمفردها، سيعمل ويدرس في آن واحد، مهما بدا الأمر صعبا سيجتازه، لأن الصعوبة لا تعني الاستحالة...

كان صباحا جميلا حين أخذ يطوي شوارع المدينة التي غادرها منذ أكثر من عشرين عاما، أوقفته الإشارة الحمراء، ولم يكد يفعل حتى وقف بجانب سيارته طفل صغير يعرض عليه أن يشتري منه زجاج ماء بارد بصوت خجول، ابتسم له وأعطاه ثمن الماء، وقبل أن ينصرف الصغير ناداه: «هل تشعر بالعطش»؟!

أومأ له الصغير بالإيجاب بحركة خفيفة من رأسه، فأعاد له الزجاجة، وطلب منه أن يعتبرها هدية منه، ثم حيا الطفل وانطلق مبتعدا تشيعه نظرات امتنان من الصغير الذي تسمر مكانه، وهو يضم زجاجه الماء إلى صدره وكأنه يحضن صديقا عزيزا على قلبه.

وبعد وقت ليس بالطويل وصل إلى مبتغاه، أوقف سيارته أمام البوابة الكبيرة، وقف مليا وتطلع في المكان الذي تغير كثيرا منذ أن زاره آخر مرة.. تجاوزها وراح يمشي بخطوات حذرة، وكأنه يخشى أن يزعج النائمين بزيارته غير المتوقعة، وبعد لحظات ترقرقت دموعه على خديه ثم أزاح بيده التراب الذي تراكم على الحجر، وقرأ ما كتب عليها بوقار ممزوج بحنين.

«اشتقت إليك كثيرا يا أبي»..

قالها وراح ينصت باهتمام، فإذا بالصمت يحمل له صوتا زادته الأيام حنانا وهو يخبره عن مدى شوقه له وامتنانه، لأنه لم يخيب ظنه به، ابتسم وهو يستحضر حضن والده الدافئ، وسريعا امتزج نحيبه بسكون المكان.

في المفاضلة بين الشعر والنثر

د. إبراهيم نويري
أستاذ جامعي من الجزائر

يتميز الإنسان عن غيره من الخلائق بخاصية التعبير والتصوير. فهو يجيد فن التعبير عما يعتلج في نفسه وفكره من تصورات وخواطر وآراء، وتصويرها بعدة وسائل، أبرزها اللغة والكلام؛ وفي حالات أخرى نادرة يلجأ بعض الموهوبين والمبدعين إلى النحت والتصوير بالريشة...إلخ.

لكن تظل اللغة الفنية المكتوبة هي الأداة الفذة التي تخلد آراء أصحابها، وهذه اللغة الفنية الراقية من جهة السبك والنظم قد تكون شعرا وقد تكون نثرا. وقد احتدم الجدال منذ أقدم العصور، كما سجل ذلك أدباؤنا ونقادنا القدامى، حول أي الفنين أسبق من الآخر من حيث الظهور؛ وأيهما الأكثر تأثيرا في السامعين والقارئين، وأيهما الأنسب في تهريب الآراء نحو عالم الخلود؟ لأن الإبداع هو محاولة لتهريب أجمل ما في روح وفكر الكاتب إلى الخلود والبقاء. فالمبدع يخشى أن تندثر بموته أفكاره وآراؤه فيلجأ إلى التعبير والعمل على حفظ ما دونه بأي وسيلة من وسائل الحفظ. وفي هذا المقال إطلالة على بعض جوانب هذا الموضوع الطريف، الذي لا تكاد الآراء تستقر فيه على وجهة نظر واحدة.

يذهب لفيف من الباحثين والدارسين والنقاد إلى أن النثر أقدم من الشعر، وكان أكثر منه وأغزر مادة، غير أن الرواة لم يحفظوا من النثر شيئا يذكر بالقياس إلى ما حفظوا من الشعر. لأن الوزن والقافية أعانا على حفظ الشعر وروايته، بينما خلا منهما النثر، فلم يحفظ منه إلا النزر اليسير، وعلى هذا النحو أخذ القدماء يفاضلون بين الشعر والنثر، ومضى ابن رشيق القيرواني مع غيره من النقاد القدماء في هذا اللون من المفاضلة، فقدم الشعر لأن الوزن والقافية يجعلانه أشبه بالدر الذي ينتظمه العقد، على حين يشبه النثر بالدر الذي لا نظام له.

بيد أنه ينبغي أولا الوقوف أمام المقصود من لفظ أو مصطلح «النثر» في عرف النقاد ودارسي الآداب. إن النثر المراد ليس كل كلام لا ينظمه وزن ولا قافية فحسب. لأن هذا يجعله متداخلا مع الكلام العادي الذي يستعمله الناس في معاملاتهم وفي تواصلهم اليومي في الحياة العادية. أي ذاك الكلام الذي تقضى به الحاجيات. فهذا اللون من النثر لا يعني مؤرخ الأدب في قليل أو كثير إلا من زاوية محدودة منه، لها صلة بلون آخر من الأدب هو «الأدب الشعبي».

إنما النثر الذي يعنى به النقاد والدارسون ومؤرخو الآداب هو النثر الذي يمكن أن يعد أدبا.. ذاك الذي يصح أن يقال إنه فن، فيه مظهر من مظاهر الجمال، وفيه قصد إلى التأثير في النفس، فالكلام المنثور إذا فقد هاتين الخاصيتين يصبح غالبا من الكلام العادي أو المبتذل الذي لا تنطبق عليه بحال لفظة النثر، كما هو في عرف مؤرخي الآداب، وفهم النقاد والباحثين والدارسين المتخصصين.

أيهما الأصل؟

كما يميل جمع من الدارسين والنقاد إلى القول بأن الشعر أقدم عهدا من النثر، وأنه أول مظاهر الفن في الكلام أو الحديث والتواصل، لأنه متصل بالحس

والشعور والخيال، وهذه الملكات تكاد تنشأ مع الفرد. فالشعر إذن ينبعث عن الحياة الإنسانية انبعاثا يوشك أن يشبه انبعاث الضوء عن الشمس والعطر عن الزهرة.

أما النثر فهو لغة العقل ومظهر من مظاهر التفكير، وتأثير الإرادة فيه أعظم من تأثيرها في الشعر، وتأثير الرؤية فيه أعظم من تأثيرها في الشعر أيضا، فليس غريبا أن يتأخر ظهوره وأن يقترن بمظاهر أخرى طبيعية واجتماعية لا يحتاج إليها الشعر.

رأي الدكتور طه حسين:

وفي هذا السياق من السجال والتباين في الآراء يقرر الدكتور طه حسين بثقة كاملة بأن الشعر دائما هو الأقدم ظهورا؛ ذلك أننا لا نعرف أمة قديمة أو حديثة ظهر فيها النثر قبل الشعر. أو ظهر فيها النثر مع ظهور الشعر (أي في وقت مواكب) وإنما الذي نعرفه في تاريخ الآداب عامة أن الأمم تأخذ بحظها من الشعر قبل كل شيء، وتنفق من حياتها عصورا طوالا يتطور فيها الشعر، لكنها لا تكون جاهلة للنثر في هذه المرحلة جهلا تاما، ونحن نرى ذلك مثلا عند اليونان والرومان وحتى لدى الأمم الغربية الحديثة.

فهي كلها تغنت ونظمت الشعر قبل أن تعرف النثر بأزمان طوال، وللقارئ أن يلتمس حقيقة ذلك من واقع الأمم والبيئات غير الراقية المعاصرة لنا، فسيجد ويرى أمما بسيطة أو بدوية تتغنى وتنظم الشعر وليس لها من النثر حظ.

ثم يحيل طه حسين القارئ على الأقاليم المصرية نفسها للتأكد من صواب رأيه، حيث يظهر الشعر العامي باللغة العامية، لكن النثر لا يظهر فيها إلا حينما تتعلم وترتقي في التعليم، وتأخذ بحظها من الثقافة والفكر والتحضر.

فالنثر إذن حسب هذا الرأي متأخر وحديث العهد قياسا بالشعر، وهو لا يظهر ولا يقوى عادة إلا حين تظهر في الجماعة وتقوى هذه الملكة التي نسميها العقل، وحين تظهر وتشيع هذه الظاهرة الاجتماعية التي نسميها الكتابة.

فالعقل يفكر ويروي ويحتاج إلى أن يعلن تفكيره وترويته، والكتابة تمكنه من أن يقيد تفكيره وترويته ويعلمها إلى الناس. ولابد من أن تظهر آثار هذه «القوة المفكرة» التي نسميها العقل في الشعر قبل ظهورها في النثر، حتى إذا ضاق الشعر بوزنه وقافيته عن تفكير العقل احتاج العقل إلى أن يتحلل في التعبير عن أغراضه من هذه القيود الشعرية من وزن وقافية ولغة خاصة، واعتماد على الخيال.

ومن هذه الحاجة التي يشعر بها العقل حين يضيق بها الشعر يظهر النثر، فيعتمد العقل على لغة التخاطب وأساليبه ليتحدث إلى الناس، ثم مايزال بهذه اللغة والأساليب يصلحها ويهذبها حتى ينشأ له فن جديد ليس شعرا وليس لغة تخاطب، وإنما هو شيء وسط بينهما، ويقوى هذا الفن شيئا فشيئا بمقدار ما يقوى العقل ويرقى حتى يتم تكوينه، فإذا هو لغة التاريخ والفلسفة والدين، وإذا هو مظهر من المظاهر الأدبية المتميزة الراقية.

ولنا رأي

بعد هذا العرض الموجز لرأيين متباينين في مسألة الشعر والنثر وأيهما الأقدم ظهورا من الآخر، يمكننا القول بأن ظهورهما متواكب ومتلازم؛ وما من أمة طالعنا آدابها وفنونها إلا وجدنا من أبرز فنون التعبير لديها: الشعر والنثر معا.

وفي كل أمة في القديم والحديث، نجد أنصارا وعشاقا للشعر، كما نجد أنصارا وعشاقا للنثر، ولعل الفارق الوحيد أن الغلبة تكون لأحد الفنين في مرحلة معينة، لكنها لا تستمر طويلا، حتى تميل الكفة للثاني وهكذا... وإذا أردنا مثالا على ذلك من تاريخ العرب أنفسهم، نجد أن الغلبة كانت للشعر طيلة العصر الجاهلي، لكن الكفة رجحت لصالح النثر في صدر الإسلام والعصر الأموي، ثم علا صوت الشعر من جديد خلال العصر العباسي الثاني على وجه أخص، وفي عصرنا هذا تراجع الشعر مرة أخرى، وفسح المجال للكتابة النثرية الفنية بشتى أشكالها، كالقصة والخاطرة والرواية والمسرحية والمقالة والسيرة الذاتية...إلخ.

وسوف يبقى لكل من الشعر والنثر في كل عصر ودهر وبيئة، عشاق ومنافحون ونوابغ، فليست المسألة إذن مفاضلة بقدر ما هي تنوع فطري في بروز المواهب التي أودعها الله الإنسان.

مسارات الإصلاح

أحمد عبد الجواد زايدة
باحث دراسات إسلامية

التفكير في فلسفة الإصلاح واستراتيجياته أمر محوري وفاصل في نهضة أي أمة وتحول وتغيير أي مجتمع، ومفكرو الإصلاح على اختلاف مشاربهم في حركات التغيير، هم الذين يدركون كيف ينتقلون من فلسفة لأخرى ومن استراتيجية لأخرى، ويستطيعون تقييم ما سبق من مناهج وسبل في اللحظات والأوقات التاريخية، وهم الذين يحسنون صناعة التاريخ، ويوجهون دفة الحياة..

عملية الإصلاح ومسارات صناعة العمران ليست مجموعة من الأعمال الصالحة ذات اليمين والشمال.. فلا هذه فلسفة الشرع ولا هذه روح الشعائر، ولا هكذا تقول علوم الأرض المادية المستحدثة! بل قد يكون مجموع المحصلة إفسادا لا إصلاحا! تنشغل بتفصيلات طيبة عن تحقيق مرتكزات أساسية كان من الواجب أن تلتف حولها التفاصيل.

مصطلحان أساسيان تحدث الكثير من العلماء والمفكرين حول مركزيتهما كمقومين من مقومات النهضة هما: «الفروض العينية»، و«الفروض الكفائية». والبعض عد غياب تصورات الفروض الكفائية أزمة من أزمات العقل المسلم، وسببا أساسيا لتأخر بناء الأمة ونهوضها؛ لكن ستبقى الأزمة الحقيقية في أن نعلم ونرسخ حقيقة فضل الفروض الكفائية على الفروض العينية، التي تتعلق بحقوق الأمة كلها؛ وفي هذا يقول الإمام الجويني في الغياثي تحت عنوان «منزلة فروض الكفايات»: «ثم الذي أراه أن القيام بما هو من فروض الكفايات، أحرى بإحراز الدرجات، وأعلى من فنون القربات، من فرائض الأعيان، فإن ما تعين على المتعبد المكلف لو تركه ولم يقابل أمر الشارع فيه بارتسام، اختص المأثم به، ولو أقامه فهو المثاب.

ولو فرض تعطيل فرض من فروض الكفايات، لعم المأثم على الكافة على اختلاف الرتب والدرجات، والقائم به كاف نفسَه وكافةَ المخاطبين الحرجَ والعقابَ، وآملٌ أفضلَ الثواب، ولا يهون قدرُ من يَحُلُّ محلَّ المسلمين أجمعين في القيام بمهم من مهمات الدين».

وأن يترسخ كذلك في ذهن المصلحين وذهن الأمة أن قيام مجموعة من الأفراد لا يعني إسقاط الإثم عن الباقين، لأن أزمات الأمة وجراحها المثخنة تكفي لجعل الفروض الكفائية فروضا عينية لعقود قادمة إن لم تكن قرونا! هذا بخلاف أن تأديتنا لبعض فروضنا العينية أصبح خاليا من مقاصدها الاجتماعية المرتبطة بمعاني الفروض الكفائية.

لم تعد أمثلة فروض الكفاية اليوم تتمثل في تغسيل الميت وتكفينه والصلاة عليه وأداء الجماعة، فهذه وإن كانت فروض كفاية، لاشك في ذلك؛ لكن هناك كثر يقومون بها ودون عناء.. وإنما الفروض التي لم تجد من يقوم بها حد الكفاية هي واجب شهود الأمة وإخراجها لصناعة عالمية الإسلام..

وعليه فقد ارتقت اليوم بعض الواجبات الكفائية لتصبح واجبات عينية على مجموع الأمة.. منها على سبيل المثال، لا الحصر: مسارات العمران، ومقومات النهوض، وتأسيس الحضارة مع تفصيل جزئياتها لأهداف صغيرة ومتوسطة وبعيدة المدى.. ويكاد يقطع الناظر في النصوص والواقع أنها من أوجب فروض الكفايات اليوم؛ وحين يتسع مفهوم «فروض الكفايات» ويتمدد ليشمل كل

هذه الواجبات.. حينها نكون على بدايات سلم النهوض والتغيير.

قد يضيق الاستبداد على الناس في قوت حياتهم وضرورياتهم كي يظلوا دائرين في فروضهم العينية كفاية أملهم ولا يفيقون للاضطلاع بمهام فروضهم الكفائية التي إن قاموا بها لما بقيت للاستبداد قائمة، عاجلا أم آجلا.. وهنا تبقى فئة من الناس تحاول الاضطلاع بهذه الفروض.. ونجاحهم ليس مقصورا فقط على إسقاط الإثم عن الأمة في قيامهم بتلك الفروض، وإنما في إشعار الأمة وتحميلها باستمرار مسؤولية القيام بهذه الفروض الكفائية.. وأن قيام هذه الفئة بها لم يسقط عن كاهل الأمة إثم التقصير وعدم القيام.. كي تتحول الفئة إلى أمة والأمة لا تهزم.. ولا تنحصر الأمة في فئة.. والفئة يمكن أن تهزم، وقد تكون هزيمتها أحيانا بالأمة التي قيدت عقودا في أغلال الاستبداد.. هذا مثال فقط للحديث الذي ذكرته أعلاه.

هل مسارات الإصلاح متعارضة؟

في أوقات الأزمات الحرجة التي تمر بها الأمم وتعاصرها المجتمعات.. في تلك اللحظات التي يسود فيها التخبط وتتصاعد فيها أسئلة الشك وتطفو فيها علامات أو «استفهامات» الفشل على السطح.. يغدو أحيانا جلد الغير خير مفر للهروب من مواجهة النفس.. لا إعادة التفكير.. أو يصبح في بعض الأحوال الجنوح للطرف المواجه ردة الفعل المتطرفة التي يحاول الناظر إقناع نفسه أن تغييرا نحو الأصلح قد قام به.. غير أن الحقيقة لا تبدو كذلك..

الحقيقة أن من اعتاد أحادية المسار اعتاد أيضا أحادية التشخيص وأحادية النتيجة.. واعتاد قبل هذا أحادية الخيار.. أي غياب الاستراتيجية.

ومن ثم فإن السؤال الذي يلح على المصلحين والفاعلين في إصلاح مجتمعاتهم: هل مسارات الإصلاح متعارضة؟ هل النتيجة التي تعايشها بعض مجتمعاتنا الآن نتاج اتباع مسار واحد -كالسياسي- مثلا وترك المسار الدعوي؟ أو العكس؟ أو ترك العمل الفكري التأسيسي؟ أو عدم امتهان وانتهاج الحرفية والمؤسسية؟ أو... أو... أو...؟

الحقيقة: إنها كل ذلك.. ولو أردت سببا حقيقيا لجزء أساسي من الأزمة فهو غياب التشخيص وغياب الاستراتيجية المتعددة وتوازي الخيارات وتعدد المسارات.

ليس هذا فقط بمنطق الحسابات والواقعية، بل بمنطق الدين الذي نتحرك من خلال مرجعيته، حيث ينص على هذا.. وفلسفة التشريع في كل أجزائها تدل على هذا.. التوازي والتكامل؛ عمران الإنسان، وعمران الاستخلاف، وعمران السلطان.. بتواز وعلاقات جدلية طردية لا تنفك. الإحسان مع الله والإحسان مع النفس والإحسان مع الناس؛ الوازع الفطري والوازع الدياني والوازع السلطاني.

يؤسس العمل الدعوي التربوي الوعي ويغرس القيم ويؤسس لرؤية وبوصلة معرفية أساسية لوحدة أهداف المجتمعات والأمة، ويحدد للناس منظومتهم القيمية التي بها يحددون معاييرهم؛ وأهل العمل السياسي يترجمون القيم والتصورات إلى سياسات ونماذج راشدة للحكم بما يخدم المنظومة القيمية والمعرفية التي جاءوا منها؛ وأهل العمل التنموي والخيري يقومون بتطوير مهارات الناس لسد حاجاتهم حالا ومآلا؛ والمفكرون يقومون بتأسيس العمل الفكري والأطروحات التي ينهل منها أهل الدعوة والتربية والسياسة.. وهكذا في استراتيجية محددة محاورها ومرتكزاتها، وتدور جميعها في فلك محدد ببوصلة واضحة.. مع تحديد أحجام وأوزان كل حقل ومجال بدقة شديدة.

فلماذا إذن لا ندرك هذا من البدء؟ ولماذا لا ندرك أن انغماسنا في طرف دون طرف لا يعني إصلاحا، بل يكون أحيانا إفسادا يؤدي لعكس النتيجة.. ثم نأتي حين نتعرقل ونسقط فنقول: أين الخلل؟! ونكرر علامات التعجب ونستفهم عن ردود الأفعال والنتائج! ولا ندري أن بعضا من هذا أو كثيره بما كسبت أيدينا، وأننا نجني ثمار «طريقتنا الخاطئة» في الإصلاح! ثم نأتي لنقيم الخلل فنتطرف في التقييم دون إنصاف، في حين أن سبل العلاج هي ما كنتَ تُنَبه عليه دائما.. ولكن «لا تحبون الناصحين» .. ويبدو أن عدم حب الناصحين قاعدة عامة على مستوى البشر والمؤسسات والكيانات والأمم..

نعيش بين أزمتين: بين مريض لا يدري أنه مريض، ولا يريد أن يسمع لنصح الطبيب؛ وبين معافى لا يريد أن يعمل وينفذ ما يراه من تصويب علات المريض وجبر ما يسببه مرض غيره.

الأول لا يعلم فيعمل بغير علم؛ والثاني يعلم.. لكنه لا يريد أن يعمل بما يمليه عليه علمه. الأول ينتظر الثاني والثاني يترقب الأول! ولا أحد يريد أن يغير قواعد اللعبة ولا أن يشق مسارا آخر في الإصلاح! في جدلية أشبه ما تكون بالهزلية التي لا تنتهي.. ويبقى السؤال: أي فارس يجسر بصهوة جواده هذه الهوة؟! أم سننتظر حتى يدفع الأول والثاني الثمن غاليا كي يتعلم الأول بماذا يعمل، ويلتزم الثاني بالعمل بما علم! وهو ما حدث ويحدث.. عسانا نتعلم.. تلك أزمة أمتنا الكبرى! ولله في خلقه شؤون، وفي أقداره وتصاريفه حكم.. ولله عاقبة الأمور.

بيوت الحكمة

هند عبدالحليم محفوظ
مدرس مساعد بكلية الدراسات الإنسانية جامعة الأزهر

يعرف دارسو الكلاسيكيات أن البلاغة، أي فن إلقاء الخطب، كانت السلاح الرئيسي في يد كل طامح في منصب سياسي في أثينا أو روما. أما في بغداد، عاصمة الرشيد، فإن السلاح الجديد الذي لا غنى عنه هو العلم، الذي لا سبيل إلى تطويره والتقدم فيه إلا بالترجمة. ومن هنا جاء اهتمام الخلفاء العباسيين برعاية حركة الترجمة.

ومنذ القرن الثالث الهجري نشأت مؤسسات عرفت باسم بيوت الحكمة، أو خزائن الكتب، أو دور العلم، وهي أشبه ما تكون بالدوائر العلمية، أو المؤسسات الأكاديمية في وقتنا الحاضر، فهي مكتبة للمطالعة، وهي معهد للترجمة، وهي مدرسة للتثقيف والتعليم، وهي مركز للرصد ومكان للنسخ والنقل.

وكانت أولى هذه الدور هي «بيت الحكمة»، الذي أنشأه الخليفة المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ، ٨١٣ - ٨٣٣ م) في بغداد، وفي عصره بدأت الترجمة من اليونانية إلى العربية مباشرة من دون المرور بالسريانية كلغة وسيطة. كما بدأ إصلاح الترجمات الأقدم والأقل دقة مما هو مطلوب. وكان المأمون يناظر مدعي النبوة والزنادقة وأصحاب الاتجاهات الفكرية المختلفة، وهذا يدل على سعة اطلاعه وقوة حجته. وهو الذي قرب الفلاسفة، وشجعهم، وأرسل إلى الروم يطلب الكتب، وسار كثير من الأمراء على دربه في اقتناء كتب العلوم وتقريب الحكماء. ويقر الدكتور شوقي ضيف رواية ابن النديم القائلة بأن المأمون هو الذي جلب الكتب من بلاد الروم، وقد قيل إن يوحنا بن ماسويه ممن نفذ إلى بلاد الروم. ويقول ابن نباتة في ترجمته لسهل بن هارون: «جعله المأمون كاتبا على خزائن الحكمة، وهي كتب الفلاسفة التي نقلت للمأمون من جزيرة قبرص، وذلك أن المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة أرسل إليه يطلب خزانة كتب اليونان، وكانت مجموعة عندهم في بيت لا يظهر عليه أحد، فأرسلها إليه، واغتبط المأمون وجعل سهل بن هارون خازنا عليها».

وكان المأمون بليغا في خطبه، وكانت معارفه الطبية واسعة جدا حتى قال له يحيى بن أكثم: «يا أمير المؤمنين، كأنك جالينوس في معرفتك بأمور الطب».

وكان المأمون، يطلب من المغلوبين الروم المخطوطات الإغريقية في مقابل توقيع معاهدات سلام، أو الإفراج عن الأسرى.

وحين تولى الخليفة هارون الرشيد أمور الخلافة عام ٧٨٦م، وكان قد تلقى العلم في بلاد الفرس وتحت رعاية يحيى البرمكي، وكان شغوفا بالعلوم والآداب، واعتبر بعض المؤرخين أن فترة حكمه كانت العصر الذهبي للترجمة، فقد رعى العلماء الذين درسوا أو ترجموا العلوم اليونانية، وأرسل من يجوب أراضي الإمبراطورية الرومانية بحثا عن المخطوطات الإغريقية. فجلبت مادة ضخمة أصلية في علوم الطب والفلسفة، ولا سيما أرسطو والأفلاطونية الجديدة. وقد اهتم بـ «بيت الحكمة» اهتماما كبيرا، وأوقف عليه الأموال الطائلة، ونقل إليه ما وجده من كتب في أنقرة وعمورية وبلاد الروم، وعهد بإدارته إلى يوحنا بن ماسويه.

ويرى المستعرب الأمريكي (من أصل يوناني) ديمتري جوتاس أن «بيت الحكمة» هو فكرة فارسية الأصل، شكلا ومضمونا. فالعبارة «بيت الحكمة» هي ترجمة لمعنى «المكتبة» في اللغة الفارسية. ويستند جوتاس في ذلك إلى ما قاله حمزة الأصفهاني المتوفى (٣٥٠ هـ - ٩٦١م)، وكان من أوسع المؤرخين معرفة بفارس قبل الإسلام. وقال في مقدمة كتابه «الأمثال الصادرة عن بيوت الشعر»: «إن الكتب النثرية التي حوت الرواية التاريخية التقليدية وقرارات الحروب وقصص المحبين

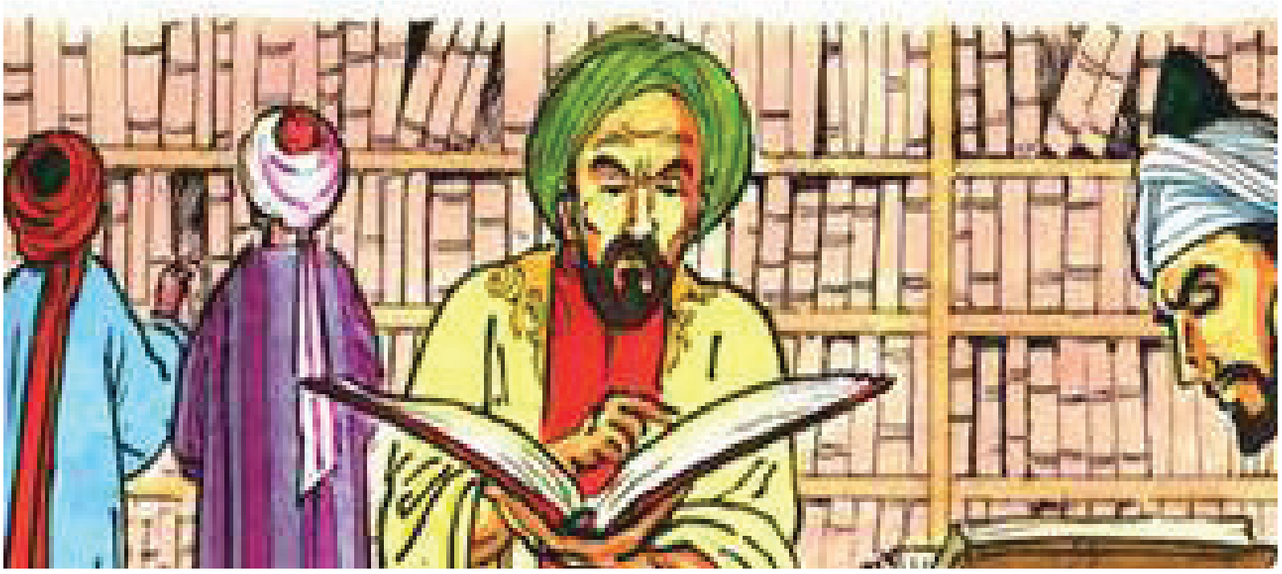

المشهورين قد أعيدت صياغتها شعرا للملوك الساسانيين وأودعت خزائن تسمى «بيوت الحكمة»، فهي إذن مكتبات ملكية». ويضيف جوتاس: «من المؤكد أن بيت الحكمة لم يكن مركزا لترجمة كتب يونانية إلى العربية. إن حركة الترجمة من اليونانية إلى العربية لم تكن أبدا من نشاطات بيت الحكمة. ومن المؤكد أيضا أنه لم يكن أكاديمية لتدريس العلوم القديمة أثناء القيام بترجمتها. كان بيت الحكمة في حقيقة الأمر مكتبا إداريا عباسيا. فقد نجح في تنظيم ثقافة الترجمة الفهلوية إلى العربية».

دار الحكمة بالقاهرة

كانت المنافسة بين الفاطميين والعباسيين على أشدها في ميادين العلم والتعليم، وخلال القرن الرابع الهجري أسس العزيز بالله الفاطمي (٣٨٦هـ) دار الحكمة بالقاهرة عام ٣٩٥هـ على نحو ما كانت عليه دار الحكمة في بغداد. وذكر المقريزي: «أن الحاكم بأمر الله نقل إليها من كتب قصره، ومن خزائن القصور المعمورة بما يقدر بستمائة ألف مجلد، وبلغ عدد كتبها فيما بعد مليونا وستمائة ألف مجلد، حتى أنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم منها».

وقد وصف المقريزي دار الحكمة وصفا جامعا، فقال: «ففي سنة خمس وتسعين وثلاثمائة فتحت الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة، وجلس فيها الفقهاء، وحملت الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة، ودخل الناس إليها، ونسخ كل من التمس نسخ شيء مما فيها ما التمسه، وكذلك من رأى قراءة شيء مما فيها، وجلس فيها القراء والمنجمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء، بعد أن فرشت الدار، وزخرفت وعلقت على جميع أبوابها وممراتها الستور، وأقيم قوام وخدم وفراشون وغيرهم وسموا بخدمتها، وحصل في هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التي أمر بحملها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة، ما لم ير مثله مجتمعا لأحد قط من الملوك، وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم، ممن يؤثرون قراءة الكتب والنظر فيها، فكان من المحاسن المأثورة أيضا التي لم يسمع بمثلها إجراء الرزق السني لمن رسم له الجلوس فيها، والخدمة لها، من فقيه وغيره، وحضرها الناس على طبقاتهم: فمنهم من يحضر قراءة الكتب، ومنهم من يحضر النسخ، ومنهم من يحضر التعليم، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر».

و«دار العلم» هذه غير خزانة العزيز بالله التي خصصها للكتب، وليست هي أيضا خزانة المخطوطات التي كانت توجد داخل القصور. وكان في تلك الخزانة مئات الكتب، وفيها نسخة العين للخليل بن أحمد، وتاريخ الطبري، والجمهرة لابن دريد. ويقول المقريزي إنها كانت تشتمل على ألف وستمائة الف كتاب، ويذكر ابن أبي مزاحم أنه كان بها ما يزيد على مائة وعشرين ألف مجلد. وقال ابن الطوير: «إن خزانة الكتب كانت تحتوي على عدة رفوف، والرفوف مقطعة بحواجز وعلى كل حاجز باب بقفل بمفصلات، وبها من أصناف الكتب ما يزيد على مائتي ألف كتاب».

أما بيت الحكمة القيرواني فقد أسسه إبراهيم الثاني الأغلبي (٢٦١ – ٢٦٦هـ) في مدينة رقادة، وجعل منه مكتبة ودار ترجمة، فحينما قامت دولة الأغالبة في تونس (١٨٤هـ) نافسوا عاصمة الخلافة التي كانوا يستمدون منها المدد والعون. وكان بيت الحكمة يشتمل على خزانة كتب، وقاعات لحفظ الآلات الفلكية. وكان هواة المخطوطات يأتون إليه من كل مكان لمطالعة المخطوطات ومراجعتها. وقد اتخذ الفاطميون من بيت الحكمة محلا لمجلس الدعوة الإسماعيلية ومناظرة علماء السنة. وكان الأمير إبراهيم الثاني الأغلبي يرسل في كل عام سفارة إلى بغداد، ويسند إليها مهمة البحث عن نفائس الكتب، واستجلاب العلماء من العراق ومصر.

السرد القصصي في القرآن الكريم

حسين المحمد
كاتب سوري

مفهوم السرد: كلام يقوم على دعامتين أساسيتين: الأولى، وجود قصة لها أحداث معينة. والثانية، أن يعين الطريقة التي تحكى بها تلك القصة.

إذن، السرد هو الطريقة التي تروى بها القصة، وما تخضع له من مؤثرات، بعضها يتعلق بالراوي أو المروي له، وبعضها الآخر يتعلق بالقصة ذاتها.

وطبعا القصة القرآنية بعيدة عن قواعد القصة العادية، لأن الموعظة فيها تقترن بالعرض، والقاص إذا فعل ذلك فقد تجنب الصواب. والقصص القرآنية قصص من نوع خاص، فهي ليست فنا خالصا يقدمه صاحبه لا يعني فيه الجانب الخلقي، إنما هي قصص صاغها الله سبحانه وتعالى لتكون مثلا وعبرة للناس. ولو نظرنا إلى العرض الفني في القصص القرآنية لوجدنا عجبا.. ولا عجب؛ فإنه متنزل من لدن حكيم خبير، إذ لا يعلو فهم بشري ضيق الأفق، مهما علا من الإبداع، إلى أن يصل إلى شمولية الخطاب الإلهي. وإن القرآن الكريم قد اعتمد طرقا متنوعة كان من أهمها ثلاثة طرق:

أولا – سرد القصة في سورة واحدة بتفاصيلها الكاملة، وكأنها عرض لسيرة ذاتية منذ الصغر حتى الكبر بتفاصيل دقيقة ومهمة، تجعل القارئ يعيش أحداث القصة بطريقة مشوقة جدا، كقصة سيدنا يوسف عليه السلام.

ثانيا – سرد قصص متفرقة لشخص واحد في أكثر من موضع، كقصة سيدنا موسى وقصة سيدنا إبراهيم، عليهما السلام، بحيث يعرض في كل مرة جانب معين للشخصية يروي أحداثا متفرقة.

ثالثا – عرض قصص وأحداث مكتملة في سورة واحدة، كقصة أصحاب الكهف وذي القرنين ويأجوج ومأجوج وسيدنا موسى والخضر، مع توضيح الفكرة والعبرة في كل قصة.

ومن روائع السرد القصصي في القرآن الكريم نلاحظ خصوصية النظر إلى الإله، حيث ينظر إليه من جانبين أساسيين:

الأول – جانب وظيفي: يشمل الأعمال والأفعال التي يقوم بها هذا الإله.

الثاني – جانب وصفي: يشمل الأسماء والألقاب والصفات الكمالية لله سبحانه.

ولا تقتصر الشؤون السردية على صياغة المتون فقط، بل تتعدى ذلك إلى أنماط السرد، موضوعية كانت أو ذاتية أو مشتركة، وأيضا الرؤى وبؤرها، وإلى أنواع الرواة ومواقعهم وأدوارهم في الخطابات وخصائص العناصر الفنية، كل ذلك كان مجسدا بأعلى درجاته في قصص القرآن الكريم، وهذا ما يعطي السرد القصصي في القرآن حلاوته وعدم الملل مهما تكررت القصة.

والعجيب في الأمر أن أحدث ما وصل إليه الفن القصصي هو النسق الذي سار عليه السرد في القرآن الكريم. وتنزه القرآن الكريم أن يكون قصصا مجردة إنما هي عبر وأمثال. وعليه، فإن هذا السرد اكتسب، بشموليته وبتعدد أشكاله، حصانة قوية جدا من كل أشكال الملل والتكرار كما في السرد القصصي العادي، وصدق الله إذ يقول: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ..﴾ (يوسف:٣).

فكانت كما أراد الله أحسن القصص، سردا وصوغا وعبرة وحكمة.

دور المرأة المسلمة في التنوير

د. الجيلالي سبيع
باحث ومفكر اسلامي

تعيش الأمة الإسلامية صحوة إسلامية مباركة، لا ينكرها إلا مكابر معاند، رغم الانتكاسات والابتلاءات الربانية المحصة المعروفة، وللمرأة المسلمة دور محوري في هذه الصحوة التي لا يمكن أن تستمر ويشتد عودها إلا بإعادة الاعتبار لشقائق الرجال، وإشراكهن فيها؛ الإشراك الحسن الذي يليق بخصوصيتهن.

وقد خبا الحضور المجتمعي للمرأة المسلمة بفعل تقهقر الأمة التي تنتمي إليها، لتستعيض عن بيعة النساء وغشيان ميادين الجهاد، بالليالي الحمراء أو الأعراف المكبلة تحت ذريعة سد الذرائع..

فما حقيقة وضع المرأة بعد تحريرها في عصر الرسالة؟ وما هي أسباب انحطاطها بعد ذاك التحرر؟ وأي دور يجب أن تتبوأه في التنوير الجديد؟ في ظل تباشيره عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام بغد الإسلام المشرق، حيث قال: «والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون» (صحيح البخاري).

١ – فقه المرأة المنحبس:

بعد انتكاسة سقوط الخلافة الراشدة تهاوت الأمة في دركات التخلف بالتدرج، وعلى جميع الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فكان ذلك دافعا لتبلور أنماط من التفكير تساير الأوضاع السائدة وتسدد وتقارب لتسير عجلة الحياة وفق ما انتقض من عرى الإسلام.

والفقه المنحبس لبوس جديد لبسه الفقه إبان انحطاط الأمة، وقد تميز في تعاطيه مع قضايا المرأة بتوسعه في استعمال سد الذرائع، فكان خوف الفتنة دافعا نحو الانكماش وإصدار فتاوى تضر بالمسلمة على الخصوص، وإن كانت تلك الفتاوى مرجوحة رجحانا بينا في أصلها ودلالتها.

تقول الدكتورة رقية العلواني في توصيف الحالة الاجتماعية والأعراف المتعلقة بالمرأة في عصور التقليد المتأخرة: «وأضحى سد الذريعة سلاحا مشرعا في وجه أي دعوة لاستعادة مكانتها التي بوأها إياها الإسلام، من دعوة إلى تعليمها أو مشاركتها في الحياة العامة، فالتعليم يقتضي خروج المرأة من بيتها وخروجها فتنة، فتمنع من التعليم سدا لذرائع الفساد» (١).

ويسوق القاضي أبوبكر بن العربي في أحكام القرآن في توصيفه لحالة نساء نابلس نصا ناطقا بحال المرأة في ظل سيادة الذهنية التحوطية جاء فيه: «ولقد دخلت نيفا على قرية من برية فما رأيت أصون عيالا ولا أعف نساء من نساء نابلس التي رمي فيها الخليل عليه السلام في النار، فإني أقمت فيها أشهرا، فما رأيت امرأة في طريق نهارا إلا يوم الجمعة، فإنهن يخرجن عليها حتى يمتلئ المسجد بهن، فإذا قضيت الصلاة وأقبلن إلى منازلهن لم تقع عيني على واحدة منهن إلى الجمعة الأخرى، وسائر القرى ترى نساؤها متبرجات بزينة وعطلة منصرفات

في كل فتن وعضلة. وقد رأيت بالمسجد الأقصى عفائف ما خرجن من معتكفهن حتى استشهدن فيه» (٢).

فهل مجد عصر الرسالة امرأة بمكثها في بيتها أم أنه انقلاب في تصور الحضور الفاعل للمرأة؟، وبالعودة إلى الدكتورة رقية في وصف الحالة الاجتماعية التي كانت تحكم الذهنية الفقهية آنذاك نجدها تقول: «أما على الصعيد الاجتماعي فقد برزت الذهنية التحوطية التي تتبنى مبدأ الأخذ بالأحوط، خاصة فيما يتعلق بأحكام المرأة. وتساند هذا المبدأ فكرة العمل بسد الذريعة. وسد الذريعة سلاح دفاعي يستعمل عند تغلب مظاهر الرذيلة في المجتمعات، والتخوف من الوقوع في المحظور والفتن» (٣).

وقد تهاوى الأمر إلى أن وصل إلى مبالغات خطيرة في تعامل المجتمع مع المرأة المسلمة، وفي مثال حي يغني عن التفصيل، قال الأستاذ إحسان حقي: «ولأخذ فكرة صحيحة عن الحجاب في باكستان قبل خمسين سنة... كان الرجل إذا أراد أن يتحدث عن زوجته لا يذكر اسمها، ولا يقول زوجتي، بل يقول «التي في داري»، ولم يكن يسمح للطبيب أن يرى المرأة إذا كانت مريضة، وليس له أن يمس جسمها، بل يربطون معصمها بحبل يمسكه الطبيب من الغرفة الثانية!! وأذكر بهذه المناسبة أن صديقا لي جاءني ذات يوم وهو مكتئب، فسألته عن سبب كآبته.. فقال لي: «إن أختي أصيبت بالكساح، فسألته عن السبب.. فقال: لأنها لم تخرج من دارها منذ خلقت!! ويقول إن هذا الرجل حكى لي قصة أخته لأنه درس في لندن، وإلا فغيره لا يحدثون الغريب في أمور كهذه !!» (٤).

٢ - إعادة دور المرأة في التنوير الجديد:

حين نتحدث عن الإعادة فهذا يعني أن المرأة كان لها دور وغابت أو غيبت عنه، ويعني كذلك أنها جزء من التجديد والتنوير، ولها ثغر لا تسده إلا هي، وفي حال غيابها يضل مفتوحا ليدخل منه الردى والهوان.

فبعد العصر النبوي والراشدي، العصران الذهبيان في مسيرة المرأة المسلمة، بدأ تراجع دور المرأة عبر العصور المتلاحقة بتراجع دور الأمة التي تنتمي إليها، فغابت عن ساحات العلم والمسجد والحضور المجتمعي والجهادي..

هذا وقد وجهت انتقادات كثيرة إلى الفقه الإسلامي في أمر احتكاره من قبل الرجال الذين صاغوه وفق مقاسهم، تقول الباحثة الفلسطينية رجاء بهلول مثلا: «لا يستطيع الإنسان المغالاة في التأكيد على فكرة أن كل قراءة لأي نص من النصوص هي قراءة غير بريئة، خصوصا في مجال الدراسات الدينية التي يسيطر عليها الرجال قديما وحديثا سيطرة شبه كاملة، إن لم تكن كاملة فعلا» (٥).

بل ويذهب زكي الميلاد إلى أن الرجال سيطروا حتى على الكتابات الخاصة بالمرأة وفقهها، ويقول في فقرة أسماها نقد الأدبيات الإسلامية حول المرأة: «يلاحظ أن أغلب الكتابات الإسلامية عن المرأة جاءت من الرجل، والذي تفوق من هذه الناحية على المرأة نفسها، وهذا ما يتكشف بصورة واضحة في الأعمال التوثيقية والببلوغرافية» (٦).

والحاصل من هذا الكلام بغض النظر عن سياقه ومرماه، غياب المرأة عن ساحة الفعل، وازداد الأمر فداحة عندما غابت حتى عن ساحتها الخاصة، فأصبح الفقهاء -ولا عيب- يفتون في أمر طهارتها ولباسها وزينتها وكثير من خصوصياتها، وهنا تلام حتى هي، يقول زكي الميلاد متمما كلامه السابق: «ومن جانب آخر، قد لا يتوجه النقد هنا بالضرورة إلى الرجل الذي عبر عن رأيه وباهتمام في موضوع المرأة، بقدر ما يتوجه النقد إلى المرأة ذاتها التي لم تتول قضاياها بالقدر الكافي، أو باهتمام يفوق اهتمام الرجل» (٧).

وسواء غابت المرأة أو غيبت عن ساحة الحضور والتأثير، فصلاح الأسرة والمجتمع مرهون برجوعها وتموضعها في ثغرها والذود عنه ببسالة وعلم وحلم وصبر وأدب رفيع، ولا حديث عن التجديد والتنوير والنهضة والصحوة الراشدة إلا من هذا المنطلق.

فالمرأة نصف المجتمع المعطل حاليا، وهي الخبيرة بشؤونها وقضاياها وتفصيلات حياتها، تقول الدكتورة حسناء القطني: «فما بال المرأة اليوم، وقد انطفأت شعلتها وخبت جذوتها، وضاعت بها السبل بين مناد بحبس المرأة في البيت بدافع الغيرة على دين الله، وبين جاهر بإباحية متنكرة للفطرة وعادية على الدين؟!

واعتبارا لمركزية وحيوية دور المرأة في أي نهضة أو قومة حضارية للأمة، لابد من مقاربة أصيلة لقضيتها، تنطلق من استحضار الإرث النبوي والنماذج التاريخية الراقية لنساء عالمات ومجاهدات ومربيات، كن جزءًا من أمة سادت وانطلقت في الآفاق دعوتها...

لا تتصور نهوضا للمرأة في ظل واقع سياسي يسود فيه الاستبداد، ووضع اقتصادي يتآكل بفعل الجشع والنهب، ويحكمه منطق الريع، وواقع اجتماعي وأخلاقي تنخره الأنانيات والكراهية وحب الانتقام، وتسوق فيه الرذيلة بأبخس الأثمان» (٨).

هذا الكلام يسلط الضوء على أسباب استمرار ضمور دور المرأة في البناء المجتمعي، ويوضح لها بداية الطريق، ويتجلى الأمر في النسج على الأساسات التي بنت عليها النساء الخالدات أمجادهن، نسج بطبيعة الحال يراعي الروح لا الشكل، يقول الدكتور مسفر القحطاني: «أعتقد أن دور المرأة في المرحلة الراهنة قد تقزم وانكمش نحو الخوف على الهوية والذوبان في الآخر، ما حجم دورها وأضعف إمكاناتها التي لا توجد في كثير من المجتمعات. إن ما نملكه من قيم إسلامية ومقاصد شرعية ومنهج رباني يكفل للمرأة قدرا من التأثير ودورا في الإصلاح» (٩).

وتبقى المرأة وأخواتها مدعوات إلى الجلوس على مائدة خصوصيتهن للإدلاء برأيهن وتصورهن حول النهوض بوضعهن ووضع مجتمعهن، وبدون ذلك يبقى التنظير لأي تجديد تنظيرا أحادي الجانب، لا يلبث حينا حتى يعلو صوت يخبره بأنه بعيد كل البعد عن تطلعاته وآماله وآلامه.

يقول الأستاذ خالد العسري: «إن انسحاب المرأة من الحياة العامة كان نتيجة عرف تراكم حتى صار حجابا عن قراءة النص القرآني والسيرة النبوية في شأنها... فعلى المؤمنة اليوم مهمات التحرر من قيود التاريخ، ومن قيود تقليد نحلة الغالبين، وما ذلك إلا بالمزاوجة بين فقه النص وفقه واقع المرأة في كل الميادين.

إن المرأة هي أدرى بشأنها وبخصوصياتها، بدءا بفقه طهارتها إلى مدى قدرتها على الانخراط في شؤون المجتمع الكلية. كما أنها الأقدر على التواصل مع أخواتها في كل مجال، لا يمنع التواصل فيه حياء، أو عدم تقدير للمصاعب والمعيقات، فلن يكون من متحدث عن أوضاع المرأة خير من المرأة نفسها» (١٠).

وإذا كان اهتمام المرأة بشأنها وتقديم الحلول المناسبة من جهتها هو الأصل، فإن هذا لا يعني ترفعها عن شقيقها الرجل وعدم طلب العون منه، فكثير من القضايا ذات الاهتمام المشترك بينهما ستفرض ذاك التعاون والتشارك، أما في خصوصيات المرأة فلا ضير من المشاورة والإعانة الإرشادية الحانية حتى يشب عمرو عن الطوق، يقول المرحوم محمد فاروق النبهان: «ويجب أن نشارك المرأة في طموحها نحو الأفضل، وفي تطلعاتها لحقوق إنسانية توفر لها الكرامة، كما نؤكد على وجود سلبيات أكيدة سواء على مستوى النصوص القانونية أو على مستوى العمل القضائي، إلا أن طرق التصحيح ليست واحدة، ولا يمكن أن يكون هدم الأسرة هو الطريق السليم للتصحيح، والبعد الديني هو العامل الأهم في استقرار الأسرة» (١١).

وكل ما قيل شذرات في موضوع يحتاج إلى جهد واجتهاد مفصل طويل، لنخرج بخلاصة مفادها أن دور المرأة في التنوير المجتمعي دور محوري ومركزي، يجب أن نعي أهميته وخطورته كما عليها أن تعيه هي. تعيه ونعيه في مختلف الميادين في بناء شخصيتها والسمو بها، في تربية أجيال الأمة والأسرة، وهي المهمة الأساس، في المشاركة الفعلية في النهضة التربوية والعلمية والفكرية والتقنية لأمتها... ولن يكون كل ذاك إلا بتغيير النظرة الفكرية من جهة، والنظرة التربوية كذلك، إذ لا يكرم المرأة إلا كريم ولا يهينها إلا لئيم عار عن الدين والمروءة.. والنظرة التنزيلية التي تعرف أن أي حركة نهضوية تحتاج إلى جناحين، جناح الرجال وجناح النساء، فإذا كسر أحدهما هوى طائر التجديد والتنوير ولو بعد حين، وإذا قويا معا وشد أحدهما أزر صاحبه حلقا بعيدا؛ تشرئب أعناقهما إلى تحقيق موعود ربنا جل وعلا حين قال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ (النحل:٩٧).

هوامش:

١- تقصد السيدة رقية بعصور التقليد المتأخرة الفترة المنحصرة بين بدايات العهد العثماني إلى العصر الحاضر، والمصدر هو: أثر العرف في فهم النصوص، قضايا المرأة نموذجا، د. رقية طه جابر العلواني، ص ١٤٣، ط ١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٢- أحكام القرآن، أبوبكر محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي، تحقيق رضا فرج الهمامي، ص ٣/٤٦٠، ط ١، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م، المكتبة العصرية، بيروت. وقد قال رحمه الله هذا الكلام في تفسيره لقوله تعالى ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ من سورة الأحزاب.

٣- أثر العرف في فهم النصوص، قضايا المرأة نموذجا، د.رقية طه جابر العلواني، ص ١٣٦.

٤- آراء في محاضرات، إحسان حقي، ص ١٢١، ط ١٩٨٥م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٥- «الاجتهاد: في سبيل فكر نسوي إسلامي» مساهمة رجاء بهلول في ملتقى جسور النساء المغربيات، ص ١١٧.

٦- الإسلام والمرأة، تجديد الفكر الديني في مسألة المرأة، زكي الميلاد، ص ٢٥.

٧- المرجع السابق، ص ٢٦.

٨- «المرأة: حضور وتأثير» مقال للدكتورة حسناء القطني بمجلة منار الهدى، ص ١١ و ١٤، العدد ١١، ربيع ٢٠٠٨م.

٩- الوعي المقاصدي، قراءة معاصرة للعمل بمقاصد الشريعة في مناحي الحياة، د.مسفر بن علي القحطاني، ص ١٧١، ط ١، ٢٠٠٨ م، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت.

١٠- «قراءة هادئة في موضوع المرأة الساخن» مقال للأستاذ خالد العسري بمجلة منار الهدى، ص ٢٠، العدد ١١.

١١- «أثر القيم الدينية في استقرار الأسرة في المجتمعات الإسلامية» مساهمة د.محمد فاروق النبهان في مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ص ٢١٢، الدورة الربيعية لسنة ٢٠٠١ م.

القراءة في الأسرة

محمد شعطيط
باحث دراسات أسرية

عرفت الأمة في عز نهضتها وتقدمها ولعا وشغفا شديدين بالقراءة، حتى أضحت بعض الحكايات التي تروى عن أصحابها في شدة تعلقهم بالكتاب والقراءة من النوادر التي يعجز عن بلوغها ذوو الهمم العالية من الأجيال الحاضرة. فهل من سبيل لإعادة المجد القرائي والعلمي إلى الأمة انطلاقا من اللبنة الأولى لها، وهي الأسرة، تربية وتعليما؟

لا شك في أن إشكالية العزوف عن القراءة هي إحدى أهم إشكاليات الأسر في العصر الحديث، فبعد انتشار وسائل الإعلام، وغرف الدردشة، ومواقع التسلية والترفيه، وقاعات الألعاب الإلكترونية الموجهة إلى الأطفال، قل أن تجد أحد أفراد الأسرة يحمل كتابا أو يتصفح جريدة، بل تجد الآباء والأمهات يشكون من غلبة النوم عند بداية القراءة في كتاب!

إن حل معضلة قومية مثل هذه يحتاج إلى تكاتف الجهود من كل الفاعلين والمتدخلين، سواء كانوا تربويين أو مصلحين اجتماعيين أو مراكز دراسات أو جمعيات مدنية أو غير ذلك. وحتى لا نجيد الشكوى وننكص عند تقديم النصيحة، نطرح بعض الأفكار التي يمكن أن تساهم في تشجيع الأسرة على القراءة ولفت انتباه أفرادها إلى الكتاب، سواء كان ورقيا أو إلكترونيا، خصوصا أن موضة العصر تميل إلى تفضيل الكتاب الورقي، بعد أن تبين، من خلال بعض الدراسات، أن فردا من ثلاثة، خصوصا في الدول الأوروبية، يفضل القراءة الإلكترونية على الورقية. ومن هذه الأفكار:

١ - تحبيب الكتب للأطفال منذ الصغر. فلا بأس أن يحضر الأب أو الأم بعض القصص الملونة المثيرة للانتباه مع اللعب التي تشترى للطفل، ووضعها في صوانه وتركه يكتشفها بنفسه. ولا بأس من ترك الطفل يلعب بها ويمزقها على ألا تحتوي على آيات قرآنية أو أحاديث. فمن خلال هذا التفاعل تنشأ علاقة خاصة بين الطفل والكتاب، وقد يحضر القصة ويطلب منك أن تقرأها وتشرح له مضمونها، وهنا يجب اغتنام هذه الفرصة لتقريب الطفل من صديقه الجديد (الكتاب). وليحذر الآباء ردة فعل سلبية في هذه اللحظة، كأن يكون الجواب «لا وقت لدي» أو «اذهب الآن وعد في لحظة أخرى»، بل يجب أن يكون رد الفعل لبقا وحكيما؛ حتى لا تتكسر إرادة الطفل ويخفت في قلبه باعث القراءة وحب الاستطلاع.

٢ - الاهتمام بمكتبة الأسرة وتزيينها وإظهارها بمظهر قشيب يسلب الألباب وينعش الروح، فالنفس مجبولة على حب الجمال. والكتاب الأنيق البهيج الخفيف الظريف يمتع العين قبل العقل. فالكتب المتناثرة هنا وهناك والمكتبة المبعثرة تبعث على الملل والنفور. وقد اشتهرت المكتبات الإنجليزية المنزلية بحسن تنظيمها وتنسيقها، بل صارت مفخرة للبيت الإنجليزي حتى قل أن تجد دارا إلا وفيها مكتبة بأبهى زينة وأحسن تنظيم. وهذا -للأسف- ما يدعونا إلى الاستغراب كيف يصير الكتاب في أمة «اقرأ» يتيما ويصير مبجلا عند غيرها؟! فالله المستعان.

٣ - تزويد المكتبة بكتب من شتى أنواع العلوم على أن تكون خفيفة، شهية، بهية، تؤتي فكرتها بجهد يسير وبحث قليل. فقد أظهرت الدراسات الحديثة أن الشباب في عصرنا ينفرون من الكتب الضخمة ويميلون إلى السهلة اليسيرة. وقد تنبه إلى ذلك كثير من الدعاة والمفكرين فأصدروا كتبا ميسرة تختصر أفكارهم في جداول وبيانات من دون اللجوء إلى الإسهاب في الشرح أو الإطناب في الطرح.

٤ - طبع مجموعة من عناوين المواقع الإلكترونية الهادفة على وريقات ولصقها على جدران المكتبة أو الصالة على فترات من دون مبالغة ولا إكثار مع تنويعها لتشمل مختلف ضروب المعرفة. فليس من الضروري أن يكون ابن العالم الشرعي نسخة عن والده. وكم من طفل أو شاب يود المطالعة في الشبكة لكنه لا يهتدي إلى المواقع المفيدة، بل قد يقع على بعض المواقع التي تضيع الجهد الكثير ولا يخرج منها بالفائدة المرجوة.

٥ - الاهتمام بميول كل فرد من أفراد الأسرة وإشباع رغباتهم بإحضار كتب أو مواقع أو إصدارات في شتى اهتماماتهم فهم على أية حال ليسوا نسخة طبق الأصل. وإرغام الطفل أو الشاب على القراءة في اهتمام إخوته نفسه إجحاف في حقه، وكبت لطاقاته. ولنا في وصايا الرسول الكريم ﷺ المختلفة لأصحابه وجوابه الأجوبة المختلفة عن السؤال نفسه قدوة حسنة وتربية نموذجية لمن كان يرجو الله واليوم الآخر.

٦ - تخصيص نزهة أسبوعية أو شهرية لورد يمكن تسميته بورد القراءة، يحضر كل فرد من أفراد الأسرة شيئا يقرأه على أن تترك لهم حرية الاختيار: كتاب، كمبيوتر، شبكة، ضبط قارئ إلكتروني.. على أن تتخلل هذه النزهة أنشطة ترفيهية من لعب وتنشيط وأناشيد أو غير ذلك.

هذا غيض من فيض مما يتسع له المقال، ولا شك في أن بعض هذه الأفكار تحتاج إلى تطوير وتفعيل وإنماء. والمهم في هذا الباب أن تحمل الأسرة هذا الهم في أن تغرس حب القراءة في نفوس أفرادها، ولن تعدم، إن شاء الله، من الوسائل الكفيلة بتحقيق هذا الهدف النبيل. ولتستعن بالدعاء، ومن الله الرجاء، وأمة «اقرأ» على خير إن شاء الله.

من معالم المدرسة النبوية في تعليم الأطفال

محمد شعبان أيوب
باحث في التاريخ الإسلامي

لم يكن من المستغرب أن يعترف كثير من الغربيين ممن اطلعوا على سيرة النبي ﷺ اطلاعًا منصفًا أنه فريد وعظيم بمقاييس العلم والتاريخ المادي المجردة، التي لا يرون غيرها، ولعل الأميركي مايكل هارت صاحب كتاب «الخالدون مائة أعظمهم محمد ﷺ» قد لخص هذه الرؤية المنصفة في مستهل كتابه ذلك بقوله: «لقد اخترت محمدًا ﷺ في أول هذه القائمة، ولابد أن يندهش كثيرون لهذا الاختيار، ومعهم حق في ذلك، ولكن محمدًا ﷺ هو الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحًا مطلقا على المستوى الديني والدنيوي» (١).

ولسنا هنا بصدد تعميم مقولة هارت على كل المستشرقين أو الغربيين ممن كتبوا عن نبينا ﷺ، فهم ليسوا سواء بطبيعة الحال، لكن مقولة هارت لخصت كل ما يمكن أن يقال عن النبي ﷺ، وفي هذا المقال الموجز نقف مع المعلم الرحيم الذي لم يغب عنه في إطار النبوة وبناء الدولة ومهامه الجسام ما يلزم للنشء من عنايته واهتمامه ﷺ.

الرحمة أولًا

كان نهج النبي ﷺ التربوي مع الكبير والصغير يتكئ على دعامة الرحمة والرأفة والرفق، وصدق أنس رضي الله عنه حينما قال: «كان رسول الله ﷺ أرحم الناس بالصبيان» (مسند البزار)، فهذه شهادة من غلام عايش النبي ﷺ عشر سنين متصلة.

هذه الرحمة المتدفقة ما كان النبي ﷺ يكتمها، بل يحرص على إظهارها وإجلائها، فعن أنس رضي الله عنه قال: رأى النبي ﷺ النساء والصبيان مقبلين من عرس فقام ﷺ قائلًا: «اللهم أنتم من أحب الناس إلي» قالها ثلاث مرات (رواه البخاري).

هذه رؤيته لأضعف الناس في هذه الأمة.. الأطفال والنساء، رؤية تقوم على الرحمة والرأفة المتدفقة التي لا تنحصر معانيها أو مشاعرها بين جنبات نفسه، وفي طيات صدره، ولذلك كان نهجه في التعامل مع الأولاد الصغار قائمًا على المداعبة والتبسم، بل والحنو الزائد، وإن كان في صلاته!

فهذه حفيدته أمامة بنت زينب- رضي الله عنهما- كان ﷺ يصلي وهو حاملها، «فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها» (رواه البخاري).

وهذا لعبه ﷺ مع الحسين بن علي- رضي الله عنهما- على مرأى ومسمع من الصحابة، وفي مجتمع المدينة الذي كانت تحوطه قبل الإسلام النزعة الرجولية المتشددة، فعن

يعلى العامري أنه خرج مع رسول الله ﷺ إلى طعام دعوا له، قال: فاستقبل رسول الله ﷺ أمام القوم، وحسين مع غلمان يلعب، فأراد رسول الله ﷺ أن يأخذه. قال: فطفق الصبي ههنا مرة وههنا مرة، فجعل رسول الله ﷺ يضاحكه حتى أخذه. قال: فوضع إحدى يديه تحت قفاه والأخرى تحت ذقنه فقبله، وقال: «حسين مني، وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسينًا، حسين سبط من الأسباط» (رواه أحمد).

ولقد تجلت هذه الرحمة النبوية في أبسط الأشياء وأدقها، فعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «خير ما تداويتم به الحجامة والقسط البحري، ولا تعذبوا صبيانكم بالغمز» (رواه البخاري). قال الإمام المناوي في شرح هذا الحديث: ولا تعذبوهم بالغمز، الغمز هو عصر الأصابع وشدتها على الشيء(٢). ومنها ما رواه ابن عمر عن النبي ﷺ «أنه كره القزع(٣) للصبيان» (رواه أحمد).

الإيمان بالله قاعدة التعليم

أساس العلم ومداره الإيمان بالله وعدم الإشراك به، فلقد حرص النبي ﷺ على زرع الإيمان في نفوس أولئك الصغار؛ بغية إشراكهم في النهضة والقيام بالدين الجديد، ولم يكن نوم علي بن أبي طالب رضي الله عنه - وهو فتى لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره- في فراش النبي ﷺ في عملية فدائية لم يكن من المستبعد فيها موته واستشهاده، إلا ثمرة من ثمرات التربية النبوية الإيمانية، التي لم تعرف في الوجود إلا الله ربًا معبودًا خالقًا وحده لا شريك له.

الإيمان إذن كان أولى درجات النهضة المنشودة، والتربية المستهدفة في ذلك الجيل، ولقد أمدتنا كتب الحديث الشريف وسيرة النبي ﷺ بمعلومات ومواقف وحوادث كثيرة، يضيق المقام عن استيعابها.

لم يكن النبي ﷺ ينتظر كثيرًا، فحينما يصل الولد إلى مرحلة «الإفصاح» والكلام والفهم يسرع ﷺ في بنائه إيمانيًا بناء جديدًا، وهذا ما يرويه التابعي الجليل عمرو ابن شعيب (ت١١٨هـ) بقوله: «كان الغلام إذا أفصح من بني عبد المطلب علمه النبي ﷺ هذه الآية سبع مرات؛ وهي قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾ (الإسراء: ١١١) (مصنف ابن أبي شيبة).

فالنبي ﷺ يخاف على هؤلاء الأشبال أن يربوا على ما ربي عليه آباؤهم وأجدادهم من قبل في الجاهلية، بل يسرع ﷺ ليعلمهم آية من كتاب الله- عز وجل- فيها معاني الوحدانية المطلقة لله سبحانه وتعالى، والكبرياء والعظمة والإحاطة.

وهذا ما يؤكده أحد الصحابة ممن عاصروا منهج التربية النبوية صغيرًا في إحكام العقيدة الصحيحة في قلوب الأطفال، وهم صغار لا يفقهون من الإسلام والحياة شيئًا، وهو جندب بن عبدالله البجلي الذي قال: «كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حزاورة (٤)، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، فازددنا به إيمانا» (سنن ابن ماجه).

وهذا دليل آخر على وجوب تعليم الفتى والفتاة الإيمان والتوحيد بصورة ميسرة مبسطة، فيها النقاش والعيش في عالم هذا الطفل الصغير، ثم تأتي مرحلة حفظ كتاب الله عز وجل، وهي المرحلة التي قال عنها الصحابي الجليل جندب بن عبد الله: فازددنا به إيمانًا. أي: ارتقوا من مرحلة التعرف على الله- عز وجل- إلى مرحلة اليقين به والتوكل عليه.

ثم تأتي مرحلة الحوار الجاد الذي يكلل المرحلتين السابقتين بالغرس الصحيح، وهي مرحلة الاقتراب من هذا الصغير وإشراكه في العملية الإيمانية والعقدية بالنقاش والتوجيه من خلال القدوة والأسوة، وهذه المرحلة يمثلها بكل وضوح الصحابي الجليل عبدالله بن عباس-رضي الله عنهما- الذي يقول: قال لي رسول الله ﷺ: «يا غلام، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف بالله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، واعلم أن الخلائق لو اجتمعوا على أن يعطوك شيئًا لم يرد الله أن يعطيك لم يقدروا عليه، أو يصرفوا عنك شيئًا أراد أن يصيبك به لم يقدروا على ذلك، فإذا سألت فسل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا، واعلم أن القلم قد جرى بما هو كائن» (رواه الطبراني).

فتى صغير يعلمه النبي ﷺ هذا المعتقد الواضح الراسخ، يعلمه أن الكون كله بيد الله وحده، فهو النافع والضار، يردف الفتى حبر الأمة فيما بعد خلف النبي ﷺ ليسمعه أساس العلم وقاعدته.. العقيدة الصحيحة الصافية، القائمة على توحيد الله والاستعانة به والرضا بقضائه، ليس من المستغرب أن هذه الكلمات قد صارت من أهم دعائم مؤلفات العقائد والأصول في تاريخ التراث الإسلامي فيما بعد.

إننا لا يمكن في هذا المقال المقتضب عن بعض معالم «المدرسة النبوية في تعليم النشء والأطفال» أن نستوعب إلا شيئًا قليلًا للغاية من هذه المدرسة النبوية العظيمة، العميقة القيم والمواقف، مدرسة لانزال نتعلم منها، وستظل الأمة كلها كبيرها وصغيرها تنهل منها مادام في الأرض إسلام وإيمان، فصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

هوامش

(١) مايكل هارت: الخالدون مائة أعظمهم محمد ﷺ، ترجمة أنيس منصور، ص١٣.

(٢) المناوي: فيض القدير شرح الجامع الصغير ٣/٦٥٣.

(٣) القزع: أن يحلق رأس الصبي، ويترك منه مواضع متفرقة غير محلوقة.

(٤) جمع الحزور: وهو الغلام إذا اشتد وقوي.

إرشادات في تربية البنات

د. خالد سعد النجار
طبيب مصري

تؤدي الأجواء الأسرية دورا حاسما في تربية البنات، بخلاف تربية البنين، وهذا بحكم انطوائية البنات وارتباطهن أكثر بالأسرة، بخلاف البنين، الذين يجدون متنفسا معقولا خارج النطاق الأسري، خصوصا في فترة المراهقة وما يليها. ومن هذا المنطلق، فإن الأنماط الأسرية لها بصمة لا يستهان بها في تكوين شخصية البنت، بل إن بصمة الأم أكثر تأثيرا عن غيرها من أفراد الأسرة؛ لالتصاق البنت بأمها، سلوكيا ووجدانيا. إضافة إلى كل هذا لا نستطيع أن نهمل المشاعر الحساسة للبنات، والتأثر المفرط بكل ما يدور حولهن، وهذا وإن كان من طبيعة المرأة الفطرية إلا أنه عامل شديد الحساسية في حياة البنات، وبالأخص المراهقات.

الأم الصارمة أو الجافية، الدلال الزائد، فقدان الأم، زوج الأم الجافي، التفكك الأسري.. كلها مطبات تربوية تترك أثرا كئيبا على الصفحة البيضاء الناصعة لنفسية بناتنا، وتوتر أحاسيسهن بدرجات متفاوتة قد تصل إلى منعطفات نفسية كارثية، وتربك الإشباع العاطفي والنفسي للفتاة، وتوقعها ضحية لأفكار سوداء، أو للتمرد والعناد، وكل هذا ينتج «حطام أنثى» أو ما يعرف بالانتحار الذاتي.

إن البنت عندما تتأثر عاطفتها نجد منها الانطوائية والانكفاء على الذات مع عدم الثقة بالنفس وفقدان المقدرة على اكتساب مختلف المهارات الاجتماعية التي تصوغ شخصيتها وأنوثتها لاحقا فيما يعرف بالعزلة الشعورية.

وقد تصبح الفتاة أكثر تأثرا بآراء الآخرين تزامنا مع قلة الثقة بنفسها، وهذا ما يجعلها تنفجر أمام مواقف عادية لعدم قدرتها على احتوائها. كما أنها تتصور المواقف والكلمات كلها ضدها، وهذا ما يجعلها دائمة التوتر أمام أدنى إشارة أو لفتة، وتجدها تعترض على سلوكيات الأم والأخوات، وكثيرا ما يؤدي هذا الاعتراض إلى البكاء والتأثر السريع والشديد. ثم إن أدنى اندفاع يسبب لها الشعور باليأس والإحباط العميق لضعف القدرة على التكيف العقلاني مع الظروف والأحداث، وربما تحاول الفتاة إرضاء الآخرين بطرق مختلفة، خصوصا بعد أن تحدث مواقف متشنجة، فإذا كانت الأم تجهل آلية احتواء البنت ومر الموقف من دون اكتراث منها أو إبداء اهتمام، انعكس ذلك سلبا على الفتاة وسبب لها جراحات نفسية من الصعب أن تندمل.

فنون إرشادية

- خريطة الذات نرسمها -ابتداء- من صورة الآخرين عنا. ولذلك، من المهم جدا عدم التركيز بصورة مباشرة على المنعطفات النفسية والسلوكية السلبية للبنت، وهذا يشمل تجنب النقد اللاذع والاتهامات المتكررة والمراقبة الدائمة التي تشعرها بانتهاك خصوصيتها، بل إن تدعيم الصفات الحميدة يفتح شهية البنت ذات الحس المرهف ونفسيتها إلى تقبل النقد البناء، والانسجام مع محاولات التخلص من السلبيات، والانخراط الإيجابي مع الواقع المحيط، وتفريغ مشاعرها وأحاسيسها بصورة سليمة.
- الحجاب الشرعي، الثقة المنضبطة، المصارحة حتى في المواضيع الحساسة، الحب القائم على الاحترام، القدوة النموذجية، المشاركة الوجدانية.. كلها إيجابيات تربوية وبلسم يذيب كل العقد النفسية والمشكلات السلوكية التي تنتاب بناتنا المرهفات في فترات عمرهن المختلفة.
- استشارتها في ما يناسبها من قضايا ويلائم مرحلتها العمرية والفكرية، وهذا من شأنه أن يفتح جسور التواصل، ويدعم ثقتها بنفسها، ويدربها على اتخاذ القرار ومهارات النقاش.

- تؤدي الأم الدور الكبير مع ابنتها المراهقة، إذ تنتهي قوانين الطفولة الصارمة لتبدأ مرحلة الحوار المفتوح في كل ما يخص الشابة اليافعة، مع الانتباه إلى ضرورة ترك مجال لخصوصيتها الشخصية غير المخدشة للحياء، كالانفراد المعقول في غرفتها، وترك الحرية لها في ترتيبها، واقتناء الأشياء التي تشبع دافع الفضول لديها، وبالتالي ندعم خصوصيتها وهويتها الشخصية التي تساعدها في ترسيخ جوانب الإبداع في حياتها، والتفريق بين ما ينبغي وما لا ينبغي، لأن المراهق أشبه بالصغير الذي يتعلم المشي لأول مرة ويستفيد من كبواته في إتقان توازن جسمه.

- التدريب على حفظ الأسرار، خصوصا الأسرار الأسرية لما لها من صلة يومية مباشرة بكل أفراد الأسرة، فليس كل ما يُعلم يقال. ومن رجاحة العقل ترتيب المنطق.. عن أنس رضي الله عنه قال: أتى علي رسول الله ﷺ وأنا ألعب مع الغلمان. فسلم علينا، فبعثني إلى حاجة، فأبطأت على أمي، فلما جئت قالت: ما حبسك؟ قلت: بعثني رسول الله ﷺ لحاجة. قالت ما حاجته؟ قلت: إنها سر. قالت: لا تحدثن بسر رسول الله ﷺ أحدا. (رواه مسلم).

- يقول الإمام عبدالحميد بن باديس رحمه الله: «إذا علمت ولدا فقد علمت فردا، وإذا علمت بنتا فقد علمت أمة». وتعليم البنت ليس محصورا في حشو الدماغ بالمقررات الدراسية، بل هو مفهوم أرفع وأرحب من هذا بكثير.. إنه تعليم يقوم على تنشئة أنثى سوية في نفسيتها وسلوكياتها، أنثى تعرف أبجديات العفة والأمومة وفنون الحياة الأسرية والزوجية، وهذا يتطلب أولا من الآباء تعديل نظرتهم إلى البنت الرقيقة وأم المستقبل، وإعطاءها قدرها وحقها من الرعاية كما يرتضيه ديننا وقيمنا.. دخل عمرو بن العاص على معاوية -رضي الله عنهما- وعنده ابنته عائشة. فقال: من هذه يا أمير المؤمنين؟ قال: هذه تفاحة القلب. قال: انبذها عنك فإنهن يلدن الأعداء ويقربن البعداء ويورثن الضغائن. قال: لا تقل هذا يا عمرو، فوالله ما مرض المرضى ولا ندب الموتى ولا أعان على الأحزان إلا هن، وإنك لواجد خالا قد نفعه بنو أخته. فقال عمرو: ما أراك يا أمير المؤمنين إلا وقد حببتهن إلي بعد بغضي لهن (١).

وخطب صعصعة بن معاوية إلى عامر ابن الظرب (حكيم العرب) ابنته عمرة، وهي أم عامر بن صعصعة، فقال: يا صعصعة، إنك أتيتني تشتري مني كبدي، وأرحم ولدي عندي، والحسيب كفء الحسيب، والزوج الصالح أب بعد أب. وقد أنكحتك خشية أن لا أجد مثلك.

والبنت المراهقة -خاصة- ترى في أبيها الباب الذي تدخل منه إلى عالم الرجال، والهادي الأمين الذي يبصرها بضروب الرجولة وسماتها. ومن هذا المنطلق ينبثق دور الأب التربوي في حياة ابنته الشابة، فهو محور حياتها الذي باستطاعته أن ينبت لنا زوجة وأما مثالية، أو على النقيض: امرأة معقدة تكره كل ما يمت إلى الرجولة بصلة.

- قضية المساواة بين الأولاد وعدم التمييز بين الولد والبنت من أهم الأمور التي ينبغي أن نوليها اهتماما بالغا، لما عكر صفوها كثير من التقاليد البالية التي تكسر نفسية البنت وتفقدها الثقة بجنسها، بل ربما تتنكر لأنوثتها، فتفرز المرأة الرجولية. ولذلك، لا غرابة في أن نجد شريعتنا السمحة تولي هذه القضية عناية خاصة، فقال ﷺ: «اعدلوا بين أولادكم في النحل كما تحبون أن يعدلوا بينكم في البر واللطف» (رواه الطبراني). فلا يوجد صاحب ديانة وخلق ديدنه الظلم والجور، كما أن انتظام المعاش والمعاد إنما يدور مع العدل، والتفاضل بينهم يجر إلى الشحناء والتباغض ومحبة بعضهم له وبغض بعضهم إياه، وينشأ عن ذلك العقوق ومنع الحقوق.

- سلطة الابن الأكبر في غياب الوالد، بالسفر أو الموت، من أكبر المشكلات التي تواجه البنت في أسرنا العربية، خصوصا أن مجتمعاتنا العربية غالبا ما تعلي من شأن الذكر وتفضله على الأنثى، ومعظم الأسر تغرس هذه النظرة الجائرة، مما يجعل الولد ينظر إلى أخته على أنها مخلوق أدنى منه، والشيء نفسه لدى البنت التي تعتقد أنها أدنى من أخيها، وأنه أفضل مكانة، بالإضافة إلى حب التسلط لدى الابن الأكبر الذي يرى التحكم في قرارات الأسرة نوعا من الإحساس برجولته وسيادته، الأمر الذي ينعكس سلبا على البنت كسيرة الجناح، وقد يصل بها الأمر إلى رفض الرجال عموما، ونبذ فكرة الزواج خصوصا.

- الجوال، الإنترنت، وبالأخص مواقع التواصل الاجتماعي والشات.. أصدقاء جدد حلوا في حياة أبنائنا، بالإضافة إلى أصدقاء المدرسة والجيران والأقارب، فالحذر الحذر، والحرص الحرص، والمراقبة المعقولة من دون تخوين أو تشكيك. أما إذا علم الوالدان من بنتهما شرا أو فسادا فلا مانع مطلقا من تتبع تصرفاتها لمنع هذا الشر وتجنب شر وفساد أكبر وأعظم.. فالحذر من انفراد الأولاد بالإنترنت في غرف مغلقة، بل يوضع جهاز الكمبيوتر في مكان بارز حيث أفراد الأسرة يروحون ذهابا وإيابا، وينطبق هذا الكلام على منع السهر على الإنترنت بينما أفراد الأسرة نائمون، وأن تكون جميع مواقع التواصل والبريد الإلكتروني بكلمة سر معلومة للوالدين. والمحك الإيماني مهم في هذا الموضوع، بتربية الأبناء على مخافة الله، في السر والعلن، وتقديم القدوة الإيمانية الطيبة في الوالدين، مع المزيد من الحنان والصراحة كي لا يشرد فلذات أكبادنا إلى محاضن أخرى خداعة تستقطبهم وتهلكهم.

١ - ثمار القلوب للثعالبي (٣٤١/١).

التنوع الإسلامي في الغرب وإشكالية المرجعية الدينية

د. حسن عزوزي
رئيس تحرير مجلة كلية الشريعة بفاس

من الواضح أن الاهتمام قد تزايد في الآونة الأخيرة بقضايا الهجرة والوجود الإسلامي في الغرب، ويعود هذا الاهتمام إلى كون الجاليات الإسلامية المتنوعة قد ظلت مرتبطة بجذورها وأوطانها؛ ما جعلها في تأثر دائم وصلة مستمرة ببلدانها الأصلية، وهو ما شكل ولا يزال للدول الغربية عائقا أمام سياسات الإدماج المتبعة تجاه هذه الجاليات، خصوصا في صفوف الشباب، ولا ينكر أحد أن الوجود الإسلامي في الغرب بواقعه وقضاياه بات يمثل ثقلا بشريا وحضاريا يستأثر باهتمام القادة السياسيين والاستراتيجيين، سواء على مستوى دول العالم الإسلامي أو على مستوى الدول الغربية المضيفة.

فالإسلام أصبح حاضرا في الدول الغربية بقوة سكانية من جهة، وقوة ثقافية من جهة أخرى، وهذه القوة الثقافية أفرزت تنوعا إسلاميا هائلا يطبعه تعدد مذهبي وعقدي وثقافي قائم على مرجعيات دينية مختلفة، وقد شجع على بروز هذا التعدد كون النشاط الديني والثقافي في الأوساط الغربية مسموحا به في حدود عدم إحداث تغييرات في بنيات المجتمع، وإلى مستويات لا تسمح ببزوغ منظومة سياسية

إسلامية التوجه، والمشكلة التي ظلت قائمة ولا يمكن فهم أبعادها وتجلياتها إلا بوعي استراتيجي شمولي؛ هي أن المسألة بخصوص الإسلام ليست مسألة وجود، وإلا لما سمح للمساجد وللمؤسسات الثقافية الإسلامية وللمسلمين عموما بمكتسبات ومجالات تحرك وعمل واسعة، بل المسألة مسألة مرجعية، حيث إن المرجعيات الدينية مختلفة ومتعددة، مما لا يسمح ببروز تمثيلية موحدة للمسلمين في الغرب.

التعددية الدينية والمذهبية

يقصد بالتعددية الدينية والمذهبية -على وجه العموم- تعدد المواقف والمناهج في فهم الدين وممارسته على مستوى العقيدة والتشريع، وهو يعني ضمنيا الاعتراف بوجود تنوع في الانتماء الديني في المجتمع الواحد، مع احترام هذا التنوع وقبول ما يترتب عليه من اختلاف. وهو ما يتضمن أيضا الإقرار بمبدأ أن لا أحد يستطيع نفي أحد، أو التعصب لمرجعية دينية ضد مرجعيات أخرى.

وينبغي التأكيد هنا على أن تعدد المذاهب والمرجعيات الإسلامية يشكل ظاهرة طبيعية، بل هي سمة ثابتة في جميع الأديان السماوية والوضعية. لكن يبقى الإشكال في طبيعة اشتغال هذا التعدد المذهبي في فضاء غربي علماني، بعيدا عن المجتمع الإسلامي، إذ يطرح السؤال: ما حدود تقبل السلطات والمجتمعات الغربية لهذه التعددية التي قد يتم التعامل مع بعض مكوناتها؟ لكن تبقى مكونات وتوجهات أخرى مثيرة للاستفزاز بحكم تشددها أو اتخاذها لمواقف متطرفة لا تخدم مصلحة بلد الإقامة.

ويزداد الأمر سوءا عندما تبرز مجموعات تحمل توجهات وأفكارا تغييرية متطرفة تدعو إلى معاداة المجتمع الغربي ومجابهته، ويتفاقم الأمر أكثر عندما تستغل وسائل الإعلام الغربية الأحداث المتطرفة التي يقوم بها بعض أبناء الجاليات الإسلامية في الغرب، ويتم التضخيم منها بالرغم من كونها لا تمثل سوى شريحة صغيرة من المسلمين المقيمين في الغرب.

تجاذبات وتحديات

إذا كانت ظاهرة التعدد المذهبي الإسلامي في الغرب قد تعتبر من منظور محدد واحدة من سمات الغنى والثراء الفكري في مجال الاجتهاد داخل المنظومة الإسلامية، فإن الأمر يبقى كذلك ما دام ليس هنالك تطرف في الفكر، أو عنف في الممارسة، أو تعصب ضد الآخر، فتعدد المذاهب والتيارات منشؤه تعدد الأفهام، لا أن الإسلام متعدد المواقف والأحكام.

فعلى سبيل المثال يمكن الحديث عن تعدد مذهبي وثقافي يتشعب بتشعب الدول الإسلامية التي تتوفر على جاليات مهمة في البلدان الغربية، حيث يلاحظ اشتغال كل جالية بأبنائها سواء على مستوى فضاءات العبادة أو أساليب تعليم الأبناء، وكذا على مستوى التعارف والتبادل الاجتماعي. وهذا النوع من التعدد المذهبي والثقافي الذي يصاحبه اعتزاز بعادات وأعراف البلد الأصلي، وبمذهبه العقدي والفقهي؛ لا يثير إشكالا أو حرجا، كما أنه لا يبعث على القلق بالنسبة للسلطات الغربية، مادامت الممارسة الدينية والثقافية لكل طائفة تتم بهدوء، وهذا الصنف من الممارسات الدينية والثقافية لا تتردد السلطات الحكومية في دعمه وتشجيعه، دون إغفال مراقبته وتتبع مراحل تطوره.

من جهة أخرى، يعاني المسلمون من تعدد الأطراف التي تتجاذبهم من هنا وهناك، مما يشكل لهم نوعا من الاضطراب وأحيانا الانفصام، فالمسلم مطالب بالانتماء إلى عقيدته وإلى وطنه الأصلي من جهة، وإلى وطن إقامته وما يختزنه من ثقافة مغايرة من جهة أخرى، كما تذهب مذاهب وتيارات أخرى تفرض نفسها.

إن تعدد هذه الانتماءات الحضارية والثقافية والمذهبية يسهم في زيادة حدة التجاذبات التي غالبا ما تتسم بطابع الصدام والصراع، مما ينفر العديد من المسلمين من ارتياد مؤسسات التجاذب، وهذا يشكل في حد ذاته تحديا واضحا يؤثر سلبا على صورة الإسلام والمسلمين في الغرب، لأن التعدد الإسلامي عندما لا ينطبع بطابع التسامح والتآلف والتعاون يكون مثيرا لتحديات ومشاكل لها بالغ الأثر على تصرفات أبناء الجاليات الإسلامية، وعلى مجال تعامل السلطات الحكومية الغربية.

ولعل أبرز هذه التحديات:

- الاختلاف في توثيق الأعياد والمناسبات وأوقات أداء صلاة الجمعة، وغير ذلك مما يرجع إلى تضارب المواقف في اتباع الأوطان الأصلية، أو ما تتفق عليه المنظمات واتحادات المسلمين في الدول الغربية، وهو ما يعتبر مشكلا للسلطات الغربية.
- الخلافات المذهبية الناتجة عن تضارب الفتاوى والاجتهادات في أمور الدين، حيث يلاحظ أن الفتاوى التي تصدر من البلدان الأصلية، أو تلتقط عبر الفضائيات التلفزيونية، تزيد من حدة الاختلاف والتباعد بين مكونات التعدد الثقافي الإسلامي في الغرب.
- عامل اللغة، حيث تشتغل كل جالية بخصوصياتها الثقافية والحضارية واللغوية، ولكل جالية لغتها التي تعتز بها، ولا تكاد تهتم بلغة الإقامة إلا في حدود ضئيلة. ولذلك أثبتت جل الدراسات الاجتماعية أن أهم عائق في اندماج أفراد الجالية المسلمة جهلهم بلغات دول الإقامة.

– تباين المستويات الثقافية للمسلمين، فبعض الجنسيات تمكنت من الاندماج أكثر من غيرها بحكم إتقان لغة وثقافة بلد الإقامة.

– الانغلاق والانكفاء وعدم القدرة على الانفتاح والتواصل والتعارف مع الطوائف الإسلامية المغايرة، ففي هولندا مثلا نجد أن الجاليات المغربية والتركية والسورينامية والباكستانية والإندونيسية لا يكاد يتواصل بعضها ببعض، مما يفرض على سلطات الدولة التعامل والتواصل مع كل طائفة على حدة.

ومن الواضح أن هذه التحديات تنعكس سلبا على كل المبادرات الرامية إلى توحيد صفوف المسلمين، فجميع مبادرات التوحيد تبوء بالفشل لأسباب مختلفة، وقد نجد داخل أوساط الجالية الواحدة عدة هياكل مؤطرة، وكل منها لا يعترف بالأخرى، بل كل واحدة تدعي تمثيلية الجالية.

أما على مستوى الآثار السلبية لهذا التعدد في علاقة المسلمين بالآخر فأبرزها:

– ظهور المسلمين في صورة متخلفة يطبعها التعصب وعدم القدرة على التسامح.

– عدم اطمئنان السلطات الغربية إلى التمثيليات الإسلامية القائمة التي لا تعبر عن واقع الأمور.

– ضياع كثير من المصالح التي تخدم المسلمين بسبب عدم وجود تمثيلية موحدة تتحدث باسم جميع المسلمين (تمويل المدارس الخاصة، قضية الذبح الإسلامي...).

– تفويت فرص تمثيلية المسلمين في المجالس البلدية والبرلمانية بسبب انعدام تكتلات إسلامية وازنة.

في ظل مقاصد الإسلام

لا يخفى أن مقاصد الشريعة الإسلامية في بناء مجتمع المسلمين قائمة على مبادئ الوحدة والأخوة والسماحة واليسر، وهو ما يقتضي في سياق الحديث عن التعدد الإسلامي في الغرب:

– ضرورة الاستعلاء عن حالة التمحور حول الذات، شخصية كانت أم مذهبية أم إقليمية، والارتقاء إلى مستوى الاهتمام بالكيان الكلي للوجود الإسلامي في الغرب.

– العمل على تذويب الغلو والتعصب المذهبي، والارتقاء بمفهوم الاختلافات المذهبية إلى مقاصدها، وإعادتها إلى جذورها الإسلامية الصحيحة، دون تعصب، بغرض إيجاد أرضية إسلامية صلبة للتعاون والتواصل، تكون قادرة على التفاعل مع المستجدات والمتغيرات، وواعية بحجم التحديات والرهانات المفروضة.

– الحرص على تقديم صورة صحيحة عن الإسلام وثقافته، من خلال تبديد عوامل الخلاف والتعصب، خاصة في ظل حملات الإساءة للإسلام.

من جهة أخرى؛ لما كان جلب المصالح ودرء المفاسد هو المقصد العام الذي يتوجب على المسلمين في بلدان المهجر وضعه في الاعتبار، فإنه باستيعاب مقاصد الشريعة السمحة والقواعد الفقهية التي تفتح أبوابا واسعة للتعامل الإيجابي في الأوساط الغربية، ومن خلال التوفر على إطار مرجعي لسلوك وتصرفات أبناء الجاليات الإسلامية إزاء الكثير من القضايا التي تعترضها، يمكن تحويل مجموعة من المفاهيم، من مفاهيم معوقات إلى مفاهيم إيجابية ودافعة لمسار حياتهم، نحو مزيد من الاندماج الإيجابي والمشاركة الفعالة.

كما أن فقه المهجر (فقه الأقليات) ينبغي أن يرجع في أساسه إلى المبادئ الأساسية للشريعة الإسلامية القاضية برفع الحرج ونبذ الخلاف المؤدي إلى التفرقة، وتنزيل حكم تغير المكان على حكم تغير الزمان، والأخذ بفقه الموازنات والمصالح المرسلة، خاصة في ظل واقع مغاير تفرض ظروف الإقامة فيه التعايش الإسلامي– الإسلامي، والاتحاد في معالجة القضايا الكبرى التي تهم جميع المسلمين، وتنطوي على مصالح عامة تستجيب لتطلعات أبناء الجاليات الإسلامية في تجاوز تام للقضايا التقليدية ذات الطابع الفردي، المتعلقة بالطعام الحلال، وثبوت الهلال وغير ذلك، إلى قضايا أكثر دلالة وأعمق أثرا، ذات صلة بحقوق المواطنة، والاندماج، والهوية الإسلامية، وتصحيح صورة الإسلام في الغرب.

أخيرا، لابد من أجل تجاوز التحديات المطروحة من أن تخرج مكونات التعدد الإسلامي في الغرب من عزلتها، وتغادر خلافاتها، والتعصب لمواقفها لكي تنخرط في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية للوجود الإسلامي في الغرب، ضمن إطار متكامل وكيان موحد، تعيش في ظله كل طائفة إيمانها وتؤدي شعائرها الدينية بطريقتها، لكن تجتمع على كلمة سواء فيما يخص القضايا العامة والمصالح المشتركة، ويبقى المسلم مطالبا بالتصرف باعتباره مواطنا، وأن يكون مطلعا على القوانين المنظمة للحياة في تلك البلاد، وفوق هذا لابد أن يسري في الجاليات الإسلامية شعور حقيقي بالانتماء إلى المجتمع الذي يعيشون فيه، دون ذوبان أو تخل عن الثوابت والمبادئ، إذ لا معنى لاندماج إيجابي يستجيب لمقتضيات الإيمان الجماعية مع وجود شباب لا ينفتحون على المجتمع بصفتهم أفرادا مسلمين ومواطنين، وإنما يتقوقعون في دوائر مغلقة، متجاهلين محيطهم الاجتماعي والثقافي، فالاندماج كفعل حر وطبيعي للتكيف مع المحيط الذي يعيش فيه الفرد، لا يتعارض بتاتا مع تأكيد الهوية والحفاظ عليها.

صياغة الاستراتيجية التنموية

هواري عبدالقادر
ماجستير إدارة الأعمال والتنمية بالجزائر

التنمية عملية شاملة تمس كل القطاعات في الدولة، من خلال البرامج المسطرة مسبقا، وبناء على معطيات تتعلق بالموارد البشرية والمادية المتوفرة، فمن خلال تقييم الإمكانات الموجودة في الدولة يمكن تحديد الأهداف المرجوة من العملية التنموية وصياغة الاستراتيجيات اللازمة لتحقيق هذه الأهداف، ويمكن قياس النجاح أو الفشل في الوصول إلى التنمية الشاملة من خلال التغيير الذي يطرأ على الحياة العامة للفرد والمجتمع ومؤسسات الدولة وقطاعاتها المختلفة.

إن صياغة استراتيجية تنموية في بلد ما؛ لابد أن تختلف عن غيرها في بلد أخر، وهذا لاختلاف معطيات كل منهما، من حيث الموارد البشرية والمادية، وكذا القيم الاجتماعية والدينية، وهو ما يرجع بطبيعة الحال إلى خاصية كل بلد، من هنا نجد أن نظرية استيراد البرامج والاستراتيجيات التنموية لا يمكن أن تنجح على أرض الواقع، لأن هذه البرامج أعدت خصيصا لبلد معين، وموجهة أساسا لمجتمع محدد، بناء على معطيات معينة، وهو ما لا يتوافق مع غيره من البلدان إلا في حالات نادرة لا يمكن الأخذ بها، فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد أهم قطاع تحتاجه التنموية قطاع التربية والتعليم، الذي يعمل على إعداد جيل المستقبل بما يمثله كمصنع لبناة غد الأمة، وهو ما لا يمكن بأي حال من الأحوال استيراد منظوماته وبرامجه من بلدان أخرى، نظرا لاختلاف طبائع الأفراد واختلاف القيم الاجتماعية والدينية، وتباين المستويات الثقافية والعلمية، إذن، لا بد من صياغة منظومة تتعلق بالتربية والتعليم، نابعة من مكونات الهوية الخاصة بالبلد، مطابقة لقيمه الدينية والاجتماعية، من أجل تكوين جيل أصيل بإمكانه المحافظة على هويته والاعتزاز بقيمه ونبذ ما هو غريب عنه.

من جانب آخر، لا يمكن أن تكون الاستراتيجية التنموية مبنية على المعطيات النظرية فحسب، بل يجب أن يتكفل فريق من الباحثين في كل المجالات التي تمس تنمية البلد بدراسة الإمكانات المادية والبشرية الموجودة فعلا، وتحديد الأهداف التي يمكن تحقيقها باستغلال هذه الإمكانات استغلالا أمثل، مع محاولة البحث عن الميزة التنافسية لكل قطاع، والعمل على استغلالها، وهو ما سيؤدي إلى تشغيل شبه كامل، وبالتالي تحقيق الأهداف القطاعية التي تندرج ضمن الأهداف التنموية الشاملة للدولة.

ويعتبر عامل الزمن من أهم العوامل التي يجب التركيز عليها، فلابد من تحديد الأهداف وفق رزنامة زمنية محددة، كما أن وتيرة الإنجاز لابد أن تكون سريعة لتتماشى وفق ما يتطلبه العصر، بالإضافة إلى زرع الوعي باحترام الوقت في كل المعاملات، لأنه العنصر الأساسي الذي تسير وفقه برامج التنمية في الدولة، إضافة إلى تشجيع الإبداع الذي يفجر الطاقات التي تساهم في زيادة وتعزيز المزايا التنافسية، وهو ما يخلق قيمة مضافة تعمل على تسريع تحقيق الأهداف المسطرة، وبالتالي الوصول إلى التنمية الشاملة.

إن تسطير استراتيجية تنموية لبلد ما، ليس بالأمر السهل، كما يتصوره البعض من خلال استعراض بعض التجارب الناجحة ومحاولة نسخ استراتيجياتها وتطبيقها، كما أنه ليس بالمستحيل لأن التجارب أثبتت نجاح الاستراتيجيات التنموية في الكثير من الحالات، فالسر في ذلك هو صياغة هذه الاستراتيجيات انطلاقا من واقع الأمة وإمكاناتها الفعلية، وهذا في حدود قيمها الاجتماعية والدينية، كما يمكن الاستعانة بتجارب لدول أخرى، إذا لم تتعارض مع مقومات هوية الأمة وإمكاناتها الموجودة فعلا.

نحو وعي إسلامي بدراسة التاريخ وتفسيره

مدخل إلى دراسة تاريخ الصحابة

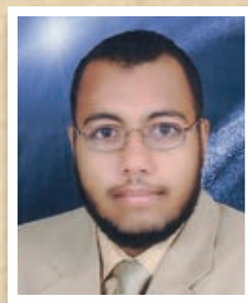

د. أحمد خليل الشال
عضو لجنة السيرة والتاريخ الإسلامي بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية التابع لوزارة الأوقاف - مصر

إن أمرا كهذا لا تكفيه هذه المساحة الضيقة، فلقد فصلت فيه دراسات مستقلة. وإذا أردت أن أوفيه حقه فلن أستطيع في هذه العجالة، التي سأكتفي منها هنا بذكر مبادئ عامة موجزة تكون نبراسا لدارس التاريخ الإسلامي في هذا العصر، عصر الصحابة.

وقد فصلت هنا بين دولتين، الأولى: دولة الوحي والنبوة في عهد النبي ﷺ، والأخرى: دولة الخلافة الراشدة. ولهذا التفصيل دلالته عندي، ذلك أن الدارسين لهذه الحقبة – أعني عصر الصحابة بعد نبيهم ﷺ – بين فريقين: مفرط ومفرّط. فمنهم من برأهم من كل عيب ونقيصة، متأولا لهم كل شيء حتى أضفى عليهم صفة العصمة وهو لا يشعر. ومنهم من أغرقهم بالتهم والآثام حتى خلع عنهم كل فضل، فلم يعرف لأحدهم مكرمة.

وقبل كل شيء، وحتى تكون النتائج منضبطة، فإنه ينبغي لنا أولا أن نعي أننا نتكلم في ثلة من البشر ليسوا بأنبياء ولا معصومين. إذن فهم يصيبون ويخطئون. وهذا هو اعتقاد أهل السنة، وهو الحق إن شاء الله. ومن قال خلاف ذلك فقد افترى عليهم إثما مبينا(١). فهذه قاعدة عامة أرساها الشرع في البشر كافة من غير الأنبياء.

ولكن لا يعني ذلك أن نسلب ذوي المكارم منهم مكارم وفضائل خلعها الله عليهم ورسوله ﷺ، ومن يفعل ذلك فهو إما طاعن في الإسلام طبعا، أو جاهل بفضلهم شرعا. وكلاهما آثم، أن يتكلم أحد في أحد من غير معرفة الضوابط الشرعية لهذا الباب. وقد قال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ذكرك أخاك بما يكره، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته. وإن لم يكن فيه، فقد بهته» (٢).

ومن أفضل مكارمهم دخولهم عامة في قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ

وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ (الفتح:٢٩).

وفي قوله ﷺ: «خير الناس -وفي رواية: أمتي- قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته» (٣).

وكما سبق أن أشرت، فهذه الخيرية لا تعني العصمة والبراءة من كل ذنب وخطيئة، فإن منهم من ارتكب الذنب في عهده ﷺ، والكبيرة من بعده، ومنهم من ارتد بعد وفاته ﷺ.. فجرِّد من معنى الصحبة الشرعية، وخرج من نطاق اصطلاحها. وهؤلاء وأمثالهم هم من قصدهم رسول الله ﷺ في قوله: «يجاء برجال من أمتي، فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول يا رب أصحابي، فيقال: لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿.. وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ (المائدة:١١٧)، فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم» (٤). وفي رواية أخرى: «أنا فرطكم على الحوض، وليرفعن رجال منكم، ثم ليختلجن (٥) دوني، فأقول: يا رب أصحابي. فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك» (٦). وفي رواية مسلم: «ليردن على الحوض رجال ممن صاحبني، حتى إذا رأيتهم ورفعوا إلي اختلجوا دوني، فلأقولن: أي رب أصيحابي أصيحابي. فليقالن لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك» (٧).

وعلى أية حال، فإن من بقي منهم على دينه في عصره وبعد وفاته ﷺ فلم يبدل أو يغير فإنه على الأصل في هذه الخيرية وتلك العدالة التي خصت بهم وبزمانهم في قوله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه» (٨). ولا يماري في ذلك إلا جاهل أو جاحد. غير أنهم كانوا مع ذلك طبقات عند الله وعند رسوله ﷺ، فليسوا جميعا -رضي الله عنهم أجمعين- طبقة واحدة، وهذا أمر كان يعلمه الصحابة أنفسهم تمام العلم (٩). يدل على ذلك هذا الخبر الذي أخرجه مسلم (١٠) عن ابن شماسة المهري قال: «حضرنا عمرو بن العاص، وهو في سياقة الموت، فحول وجهه إلى الحائط يبكي طويلا، وابنه يقول له: ما يبكيك، أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا، أما بشرك بكذا؟ قال: وهو في ذلك يبكي ووجهه إلى الحائط قال: ثم أقبل بوجهه إلينا، فقال: إن أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ، ولكني قد كنت على أطباق ثلاث قد رأيتني ما من الناس من أحد أبغض إلي من رسول الله ﷺ ولا أحب إلي من أن أستمكن منه فأقتله، فلو مت على تلك الطبقة لكنت من أهل النار، ثم جعل الله الإسلام في قلبي، فأتيت رسول الله ﷺ لأبايعه، فقلت: ابسط يمينك أبايعك يا رسول الله، قال: فبسط يده، ثم إني قبضت يدي، فقال: ما لك يا عمرو؟ قال: فقلت: أردت أن أشترط، فقال: تشترط ماذا؟ فقلت: أشترط أن يغفر لي، فقال: أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله، فقد رأيتني ما من الناس أحد أحب إلي من رسول الله ﷺ ولا أجل في عيني منه، ولو سئلت أن أنعته ما أطقت لأني لم أكن أطيق أن أملأ عيني إجلالا له، فلو مت على تلك الطبقة رجوت أن أكون من أهل الجنة، ثم ولينا أشياء بعد فلست أدري ما أنا فيها أو ما حالي فيها، فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة ولا نار، فإذا دفنتموني، فسنوا علي التراب سنا، فإذا فرغتم من قبري، فامكثوا عند قبري قدر ما ينحر جزور، ويقسم لحمها فإني أستأنس بكم حتى أعلم ماذا أراجع به رسل ربي».

وفي باب هذا الخبر ما أخرجه أبو داود الطيالسي (١١)، وأحمد (١٢) وغيرهما عن أبي نوفل بن أبي عقرب، قال: «جزع عمرو بن العاص عند الموت جزعا شديدا، فلما رأى ذلك ابنه عبدالله بن عمرو، قال: يا أبا عبدالله، ما هذا الجزع، وقد كان رسول الله ﷺ يدنيك ويستعملك؟ قال: أي بني، قد كان ذلك، وسأخبرك عن ذلك: إني والله ما أدري أحبا كان ذلك، أم تألفا يتألفني، ولكني أشهد على رجلين أنه قد فارق الدنيا وهو يحبهما: ابن سمية (١٣)، وابن أم عبد (١٤)، فلما حدثه وضع يده موضع الغلال من ذقنه، وقال: اللهم أمرتنا فتركنا، ونهيتنا فركبنا، ولا يسعنا إلا مغفرتك، وكانت تلك هجيراه حتى مات».

ففي هذين الخبرين دلالة على أن الصحابة طبقات عند الله وعند رسوله ﷺ، وأن رسول الله ﷺ أحب قوما مقطوع بغفران الله لهم، وتألف آخرين لا يدري ما الله صانع بهم. وقد يدل على ذلك قول الله عز وجل في وصف طبقات الصحابة ومعاصري النبي ﷺ وتمييزهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ (التوبة:١٠٠-١٠٦). فدلت الآيات على أصناف الصحابة ومن عاصره ﷺ، وأبرزهم المهاجرون، والأنصار. ومعلوم أن المهاجرين صفة من هاجر إلى المدينة حتى فتح مكة، إذ لا هجرة بعد الفتح (١٥). والأنصار هم من نصروا الله ورسوله ﷺ من أهل المدينة، فصار من البديهي أن المقصود بالتابعين في قوله ﴿والذين اتبعوهم

بإحسان﴾ إنما هم من أسلم من بعد الفتح فما بعدهم، ومنهم - لا ريب - من رأى النبي ﷺ وصحبه، إلا أن الآية أخرجتهم من عموم إطلاق الرضا الذي كان مع المهاجرين والأنصار، وقيدت الرضا بمن اتبع منهم بإحسان، فاشترطت في فضلهم والرضا عنهم الاتباع بإحسان، وكأنهم لم يشفع لهم مجرد الرؤية، أو الصحبة (١٦)، ولكن من قام بهذا الشرط منهم نال -بلا شك- فضيلة على من بعده بمقتضى حديث «خير الناس قرني».

وهذا أمر أدركه عمر رضي الله عنه تمام الإدراك عند قسمة العطاء بين الصحابة في خلافته، فقدمهم حسب مراتبهم ومنازلهم في الفضل والخيرية.

وممن فطن إلى ذلك البخاري في عنوان تاريخه المشهور بالتاريخ الأوسط، إذ سماه: «المختصر من تاريخ هجرة رسول الله ﷺ والمهاجرين والأنصار وطبقات التابعين بإحسان ومن بعدهم..».

ومن ثم، فلقد كانت منزلة السابقين إلى الإسلام أرفع ممن جاء بعدهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ (التوبة:١٠٠). ولقد تبوأ أهل بدر مكانة لم تكن لغيرهم بعد ذلك حتى عهد عمر رضي الله عنه حين فضلهم على غيرهم. وفي ذلك يخبر معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقي عن أبيه -وكان أبوه من أهل بدر- قال: «جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: من أفضل المسلمين -أو كلمة نحوها- قال: وكذلك من شهد بدرا من الملائكة» (١٧).

ولكن آية ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ لا تعني الرخصة في أمور، أولها: نفي الصحبة العامة عمن رأى النبي ﷺ وليس من المهاجرين أو الأنصار. ثانيها: سب أو لعن من دون المهاجرين أو الأنصار، حتى وإن ارتكب الكبيرة. ثالثها: تكفير من دون المهاجرين أو الأنصار، إلا من ثبتت ردته، أو أثر عن النبي ﷺ فيه خبر يدل على ذلك في حياته أو بعد وفاته ﷺ. وهذا ما سيأتي الحديث عنه تفصيلا في الحلقة المقبلة إن شاء الله تعالى.

هوامش

(١) وفي ذلك إشارة إلى الذين غلوا في دينهم غير الحق حتى ضلوا وأضلوا.
(٢) صحيح مسلم برقم ٢٥٨٩.
(٣) صحيح البخاري برقمي ٣٦٥٠، ٣٦٥١.
(٤) صحيح البخاري برقم ٤٧٤٠.
(٥) أي: ينزعون أو يجذبون مني. يقال: اختلجه منه: إذا نزعه منه أو جذبه بغير إرادته.
(٦) صحيح البخاري برقم ٦٥٧٦.
(٧) صحيح مسلم برقم ٢٣٠٤.
(٨) صحيح البخاري برقم ٣٦٧٣.
(٩) وهذا واضح من حديث «لا تسبوا أصحابي» فإن النبي ﷺ كان يخاطب بهذا الحديث صحابة غير المقصودين في الحديث. وتمام الخبر كما في رواية مسلم (برقم ٢٥٤١) من طريق أبي صالح عن أبي سعيد قال كان بين خالد بن الوليد وبين عبدالرحمن بن عوف شيء فسبه خالد فقال رسول الله ﷺ «لا تسبوا أحدا من أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه».
(١٠) صحيحه برقم ١٢١.
(١١) مسنده برقم ١٠٦٤.
(١٢) المسند ٤/١٩٩-٢٠٠.
(١٣) يعني عمار بن ياسر.
(١٤) يعني عبدالله بن مسعود.
(١٥) أخرج البخاري في هذا الباب (بأرقام ٣٠٧٨، ٣٠٧٩، ٤٣٠٥، ٤٣٠٦) أن مجاشع بن مسعود جاء بأخيه مجالد إلى النبي ﷺ بعد فتح مكة فقال: «هذا مجالد يبايعك على الهجرة. فقال: لا هجرة بعد فتح مكة، ولكن أبايعه على الإسلام».
(١٦) وقريب منهم هؤلاء الذين جاء ذكرهم في آخر الآيات، وهم ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.
(١٧) صحيح البخاري برقم ٣٩٩٢.

«الوعي الإسلامي» تنعى أحد كتابها

بهيج بهجت سكيك

التحرير

تنعى أسرة تحرير مجلة «الوعي الإسلامي» الكاتب والباحث الفلسطيني بهيج بهجت عطا سكيك، والذي ظل يكتب في المجلة منذ أكثر من ثلاثة عقود، وقد وافته المنية يوم الجمعة ٢٨ فبراير الماضي بعد حياة حافلة، قضى منها ٤٥ عاما في دولة الكويت.

تخرج الفقيد من جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٣م، حيث حصل على ليسانس الآداب قسم الجغرافيا، وما لبث أن انتقل للعمل بدولة الكويت عام ١٩٦٤م معلما لمادة الاجتماعيات في مدارس وزارة التربية، وتدرج في وظائف التدريس والتوجيه حتى اختير عضوا في لجنة تطوير مناهج المواد الاجتماعية في التعليم العام بدولة الكويت عام ١٩٨٥م، وقد عاصر الفقيد خلال فترة عمله خمسة عشر وزيرا للتربية، وكان يرحمه الله يقول: «الذي يسعدني أنني أرى تلاميذي اليوم وقد تبوأوا المناصب العليا، فكلما أقابل أحدهم أجد الاحترام والتقدير، وهذا فخر واعتزاز لي»، وقد كتب يرحمه في «الوعي الإسلامي» مقالات عدة منذ عام ١٤٠٩هـ الموافق ١٩٨٨م، وتنوعت كتاباته وأبحاثه في مجالات التربية والتاريخ وعلم الاجتماع. ولعل أشهرها: المعماري سنان - جزر الأندلس المنسية - رؤية جديدة للقضية اليهودية الفلسطينية - الورق والوراقون في العصور الإسلامية - القدس أرض المحشر والمنشر - جامع زايد الكبير - الجامع المعمري في غزة - مختصر تاريخ العالم.

اجعل لكتابك عيدا..

د. يوسف الحزيمري - باحث مغربي

لكل واحد منا كتابه، إن لم يخطه بيمينه وقلمه، خطه بأقواله وأعماله. وحين توفى كل نفس ما كسبت، يجد الإنسان هذا الكتاب ناطقا عليه بالحق، وما عمله حاضرا، فيتعجب حينئذ قائلا: ﴿.. يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا ..﴾ (الكهف: ٤٩). هذا بعد أن يرى كيف تناوله لكتابه: أكان من أصحاب اليمين أم من أصحاب وراء الظهور، ولكل جزاء ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ۝٩ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ۝١٠ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ۝١١ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾ (الانشقاق: ٧ - ١٢). أو كان من أصحاب الشمال ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾ (الحاقة: ٢٥). فهذا كتابك الحقيقي، كتاب حياتك، صفحته الأولى تبدأ من التكليف، والأخيرة حين توسد التراب وينقطع عملك، فانظر لنفسك ما تخطه في كتابك، واجعله أحسن وأجمل كتاب، يسرك النظر إليه يوم تفتحه، جمّله ونمّقه، واجعل له عيدا تسترجع فيه ما مضى بالمحاسبة وجرد النتائج، وتستقبل ما هو آت بأحسن النيات والعزائم، فكل يوم لا تخط فيه معصية في كتابك فهو عيد. سئل الحسن البصري -رحمه الله:

- أي الأيام عندك عيد يا تقي الدين؟

- فأجاب: كل يوم لا أعصي الله فيه فهو عندي عيد.

فهذا كتابك إذن، لك حرية الإنشاء فيه، لكن الموضوع محدد لك مسبقا في الكتاب الأم، ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ ..﴾ (آل عمران: ٧). فلا تكن في اقتفاء منهجه من الزائغين، ولا تكن كمن ناداه الكتاب فلم يجبه، ونبهه المشيب فما انتبه، وكن من أولي الألباب الذين يقولون ﴿.. ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا ..﴾ (آل عمران: ٧).

واتبع في كتابك أحسن ما في كتاب الله ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم ..﴾ (الزمر: ٥٥). ليكون جزاؤك أحسن ما عملت، يوم يوضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه، إذ هي حياتك بين دفتي كتابك.

نحن الكتاب لأنا أحرف كتبت
به على نفسه قد خطنا وتلا(١)

وإذا كان الكتاب الدنيوي وقاية للمسؤول، وصيانة للسائل، ومبلغ ما الحياء مانع منه، فكذلك ينبغي أن يكون كتابك الأخروي.

تأمل إذا ما كتبت الكتاب
سطورك من بعد إحكامها
وهذب عبارة طرز الكلام
واستوف سائر أقسامها
فقد قيل إن عقول الرجال
تحت ألسنة أقلامها(٢)

واختر له أيها الخل عنوانا يشي بما أخفته دفتاه، واجعل له ختما يحفظ مضمونه.

الختم يحفظ مضمون الكتاب به
وهو الدليل على مضمون عزته(٣)

وردد مع الشاعر قوله تصديقا بالقول والعمل.

عيب علي كمسلم أن أرتضي
نهجا يشذ عن الكتاب ويفسق(٤).

الهوامش:

١- ديوان عبدالغني النابلسي (ص: ١٨٠٩).
٢- ديوان صفي الدين الحلي (ص: ١١٨٦).
٣- ديوان لسان الدين الخطيب (ص: ١٥٠).
٤- ديوان وليد الأعظمي (ص: ٤٩).

الشعير غذاء ودواء وبركة

د. درويش مصطفى الشافعي
باحث أردني

كان الشعير قبل مئة عام يتخذ رمزا لشظف الحياة، وبخس الثمن، وضنك المعيشة. والمسنون، الذين عاشوا في ذلك الوقت، يتحدثون اليوم، بأسى وحزن عميق، عن خبز الشعير، الذي كانوا يأكلونه في مواسم المحل أو «القحيط»، بدلا من خبز القمح، باعتبار أن الشعير هو غذاء المواشي والخيول. وهم بالتأكيد لم يعرفوا فوائده الطبية الكثيرة، ولم يتوقعوا على الإطلاق أن ثمن الكيلوغرام من الشعير سيصل في هذا العصر إلى ما يعادل دولارا واحدا، وأنه سيدخل مختبرات علم التغذية والعقاقير من أوسع أبوابها، وأن مستخلصاته ستباع في الصيدليات بعشرات الدولارات!

وكان رسول الله ﷺ قد ذكر قيمة الشعير الطبية والغذائية قبل ١٤٠٠ سنة ونيف.

وعند النظر بشمولية إلى أهمية الشعير للإنسان والحيوان نجد أنه يشكل حجر الأساس في العديد من مجالات الحياة، غذائية كانت أو طبية واقتصادية.

إن ما سيرد في السطور المقبلة من إشادة بالشعير لا يهدف إلى التعريف بمزاياه وفوائده الجمة من باب نشر الثقافة العامة فحسب، بل هو دعوة صادقة للإكثار من تناوله واستعماله في حالتي الصحة والمرض. وتأتي هذه الدعوة استنادا إلى نتائج أبحاث ودراسات علمية جادة جرت حول العالم، ومن خلال تطبيقات عملية ناجحة في الطب الشعبي، ومن تجاربي الشخصية.

الشعير يعانق التاريخ

الشعير Barley، واسمه العلمي Horedeum vulgare، ينتمي إلى العائلة النجيلية Geramineae، ويعد أقدم نبات عرفه الإنسان وزرعه ليتغذى عليه، حيث تشير الدراسات إلى أنه زرع في جنوب غرب آسيا قبل الميلاد بحوالي ٧٠٠٠سنة، واستعمل كغذاء للرياضيين والخيول التي ستدخل في السباقات.

وكان رسول الله ﷺ قد نصح أصحابه بأكل الشعير، وقد جاء ذلك في كثير من الأحاديث النبوية الشريفة، منها ما رواه ابن ماجه في سننه من حديث عائشة -رضي الله عنها- قالت: «كان رسول اللهﷺ إذا أخذ أحدا من أهله الوجع، أمر بالحساء من الشعير فصنع، ثم أمرهم فحسوا منه ثم يقول: إنه ليرتو فؤاد الحزين، ويسرو عن فؤاد السقيم، كما تسرو إحداكن الوسخ بالماء عن وجهها».

وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا قيل له: إن فلانا وجع لا يطعم الطعام قال: عليكم بالتلبينة فحسوه إياها». والتلبينة هي طبيخ الشعير بالماء أو بالحليب.

القيمة الغذائية للشعير

تحوي جميع أجزاء الشعير (الحبوب والأوراق والسيقان، الغضة والجافة) مخزنا مهما للكثير من المواد الطبية والغذائية، فقد أظهرت التحاليل المخبرية لأوراق الشعير الغضة وبذوره احتواءها على كميات وفيرة ومتوازنة من الفيتامينات والعناصر المعدنية والأحماض الأمينية والبروتينات والدهون والسكر والنشا. وتتمثل القوة الغذائية لأوراق الشعير في احتوائها على كميات غير عادية من البيتاكاروتين -beta carotene، وهي طلائع فيتامين «أ» ومعظم فيتامينات المجموعة «ب» (ب١، ب٢، ب٣، ب٦، ب٩، ب١٢)، وكذلك فيتامين «ج». وقد أظهرت التحاليل المخبرية أن مقدار فيتامين «ج» في أوراق الشعير أكبر بسبع مرات من مقدار هذا الفيتامين في الحمضيات، وأن كمية فيتامين «ب١٢» في أوراق الشعير تصل إلى ٨٠ ملغ لكل ١٠٠ غرام من الأوراق، علما بأن هذا الفيتامين يتوافر أساسا في الأغذية الحيوانية ونادرا ما يتواجد في الأغذية النباتية، حتى وإن وجد في بعضها فإن مقاديره تكون قليلة جدا. كما تحتوي أوراق الشعير على معظم العناصر المعدنية الضرورية للنمو وتنشيط جهاز المناعة وتحفيز إفراز الغدد، ومن أبرز هذه العناصر البوتاسيوم والكالسيوم والحديد والمغنيسيوم والنحاس والفسفور والمنغنيز والزنك وغيرها. ومما يذكر أن محتوى أوراق الشعير من الكالسيوم يزيد على محتوى حليب البقر بإحدى عشرة مرة، وأن محتواها من الحديد يزيد على السبانخ بخمس مرات، ويوجد في أوراق الشعير ١٨ حمضا أمينيا، من بينها ثمانية أحماض أساسية Essential amino acids التي يعجز الجسم عن تكوينها ذاتيا، ويجب تزويد الجسم بها من الغذاء! أما البروتينات المتوافرة في أوراق الشعير فهي سهلة الهضم

والامتصاص، وتتميز بقدرتها على تحييد السموم المتراكمة في الكبد وخلايا الجسم.

القيمة الطبية لأوراق الشعير

ومع أن إشباع الجسم بما يحتاج إليه من عناصر ومركبات غذائية يشكل خطوة مهمة للنمو السليم والوقاية من الأمراض والمحافظة على القوة والحيوية للجسم، غير أن هذا الجانب ليس كل شيء، بل يجب توافر عوامل أخرى لها تأثيرات طبية وبيولوجية. وأوراق الشعير تحتوي على عدد كبير من الإنزيمات ومساعدات الإنزيمات co-enzymes، التي تدعم النشاط الإنزيمي في الجسم، وتطلق شرارة التفاعلات الكيميائية والتحولات الغذائية، كما توجد في أوراق الشعير مركبات خاصة تعمل على تخفيض مستوى السكر والكوليسترول في الدم، وكذلك مضادات الالتهابات – Anti inflammatory ومضادات القرحة المعدية Anti– ulcer. وقد اكتشف مؤخرا في أوراق الشعير مضاد جديد للتأكسد Antioxidant يرمز له بـ«٢- صفر- GIV» له تأثير أقوى من فيتامين «هـ». وجدير بالذكر أن مضادات التأكسد Antioxidants، سواء أكانت فيتامينات، مثل فيتامين «أ» و«ج» و«هـ»، أم مواد أخرى، مثل الفينولات polyphenols، تقاوم العديد من الأمراض، بما فيها الأمراض الخطيرة، وذلك من خلال منع تصلب الأوعية الدموية وإطالة عمر الخلايا وتعزيز جهاز المناعة وحماية المادة الوراثية من الطفرات التي تقود أحيانا إلى أمراض السرطان. أما شرب عصارة الأوراق قبل تناول الطعام، فإنه يفيد في حالة تشنج القولون، وتليين البطن، وطرد الغازات المعوية، وتحييد السموم الدوائية، وزيادة هيموجلوبين الدم، ومنع تهيج المعدة. كما يساعد على تعويض الخلايا والأنسجة التالفة، وينظم ضغط الدم، ويخفض الحمى، ويمنح الجسم طاقة وحيوية ونشاطا. كما يجعل تفاعل الدم قلويا، مما يجعل من شرب عصارتها ترياقا في حالة تسمم الدم. ونظرا لأهمية ودور أوراق الشعير في التغذية الصحيحة ومعالجة الأمراض أو الوقاية منها، ونظرا لصعوبة تناول أوراق الشعير أو الحصول على عصارتها، فقد جرى مؤخرا استخلاص عصارة الأوراق بآلات خاصة وتجفيفها بسرعة من دون تعريضها للحرارة، وتعبئة مسحوقها في أكياس، كما صنعت منها أقراص تذوب في الماء أو في أي نوع من الشراب. ومع أن استعمال أوراق الشعير في السلطات غير شائع، غير أنه من الممكن زراعة الشعير في حديقة المنزل أو في قوارير وإضافة أوراقه إلى السلطات، حتى ولو كان ذلك بكميات قليلة.

أما حبوب الشعير فتعد مستودعا بيولوجيا لمعظم العناصر والمواد الكيميائية التي قامت الأوراق بتصنيعها من أجل تغذية أجنة الحبوب، وقد تتركز فيها بعض المواد، وقد تختفي، أو تقل مواد أخرى. ومن أهم المواد الغذائية في حبوب الشعير: النشا والبروتين والدهون والسكر والفيتامينات (ما عدا فيتامين «ج») وجميع العناصر المعدنية سالفة الذكر.

القيمة الطبية لحبوب الشعير

لا يعرف معظم الناس عن الفوائد الطبية للشعير سوى أنه مدر للبول وطارد للحصى والرمل من الكليتين والمجاري البولية، وتخفيف التهابات الأمعاء، وهذا جانب متواضع من الفوائد الطبية للشعير. ومن أبرز الفوائد الطبية المكتشفة للشعير ما يلي:

تخفيض كوليسترول الدم

يعمل الشعير على تخفيض كوليسترول الدم من خلال الآليات التالية:

■ تتحد ألياف الشعير القابلة للهضم مع الكوليسترول الزائد الموجود في الأغذية الدهنية، مما يحول دون امتصاصه، وهذا يؤدي إلى خفض كمية الكوليسترول التي تخزن في الكبد، أو التي تصل إلى الدورة الدموية. كما تنتج عن تخمر ألياف الشعير القابلة للهضم في القولون أحماض دسمة تمتص من القولون، وتثبط عملية تمثيل الكوليسترول.

■ تحتوي حبوب الشعير على عدة مواد ومركبات، من بينها «البيتا جلوكان» B-Glucan، تعمل على خفض نسبة الكوليسترول في الدم وتبطئ عملية امتصاص السكر من الأمعاء.

■ تحتوي حبوب الشعير على مواد

تشبه الفيتامين «هـ» = E تسمى Tocotrienol، لها القدرة على تثبيط إنزيمات الكبد التي تتدخل في إنتاج الكوليسترول، وعلاوة على ذلك يعد التوكوترينول وفيتامين «هـ» من أهم عناصر ربط حلقة مضادات الأكسدة، ويعمل التوكوترينول منفردا كمضاد أكسدة، حيث ينظف الجسم من الشوارد الحرة free radicals والمواد الضارة بما فيها الشوارد الحرة الناتجة عن الأشعة فوق البنفسجية والأوزون، كما يمنع تأكسد الدهون البروتينية منخفضة الكثافة LDL ويحول دون ترسبها على جدران الأوعية الدموية، ويحمي الخلايا العصبية من تأثير المواد السامة، وينظم عمل العديد من الإنزيمات الرئيسية في الكبد.

■ يفيد شرب منقوع الشعير في جلب النعاس والنوم الهادئ، بسبب احتواء الشعير على الميلاتونين (هرمون النوم). كما اكتُشف للميلاتونين melatonin الكثير من المهام والأدوار كما سيرد لاحقا.

تحسين المزاج ومقاومة الكآبة

يحتوي الشعير على أكثر من ثلاثين عنصرا معدنيا، من أبرزها البوتاسيوم المغنيسيوم، المهمان لعمل الإنزيمات والناقلات العصبية، وعلى فيتامينات المجموعة «ب» الضرورية لتوصيل النبضات العصبية الكهربائية، وعلى الحمض الأميني التربتوفان Tryptophan، الذي يسهم في التخليق الحيوي لإحدى الناقلات العصبية، وهي السيروتونين Serotonin، والذي يلعب دورا رئيسيا في تحسين المزاج والحالة النفسية للإنسان وينتج بوجود فيتامينات المجموعة «ب» والمغنيسيوم وهرمون الميلاتونين.

تأخير ظهور أعراض الشيخوخة

يحتوي الشعير على العديد من مضادات الأكسدة، مثل التوكوترينول وفيتامين «هـ»، وعلى البوليفينولات والفيتوسيرولات phetosterols، التي تقاوم تلف الخلايا بشكل عام والخلايا العصبية بشكل خاص وتحيد تأثير الشوارد الحرة free radicals، مما يسهم في الوقاية من الأمراض، وتأخير ظهور العديد منها. ويؤيد ٩ من كل ١٠ أطباء دور مضادات الأكسدة في مقاومة الأمراض والحفاظ على الأغشية الخلوية وإبطاء عملية الشيخوخة ومنع أو تأخير حدوث مرض ألزهايمر. ويعد الشعير من الأغذية الغنية بالميلاتونين (وهو المسؤول الرئيسي عن جلب النوم)، ولكن كميته تقل مع كثرة التعرض للضوء (السهر). ومع تقدم العمر، فإن الشعير يفيد الكهول والشيوخ في التغلب على الأرق الذي ينتابهم. وللميلاتونين أدوار أخرى، من بينها خفض نسبة الكوليسترول، وحماية الجهاز الدوري (القلب والشرايين) من الإصابة بالتصلب، والوقاية من مرض الشلل الرعاشي عند كبار السن، وزيادة مناعة الجسم ضد الأمراض المعدية، ومقاومة العديد من أمراض السرطان، خصوصا سرطان الثدي.

علاج ارتفاع سكر الدم

تحتوي ألياف الشعير القابلة للذوبان في الماء على البيتا-جلوكان Beta glucan- ومواد بكتينية (أصماغ) تقلل من عمليتي هضم وامتصاص المواد السكرية والدهنية الموجودة في الأغذية، وهذا من شأنه تأخير وصولها إلى الدم، مما يتيح فرصة لقيام البنكرياس بضخ الأنسولين اللازم، وبالتالي منع الارتفاع المفاجئ لسكر الدم. وقد وجد بالتجارب أن إدخال الشعير على شكل خبز ومنتجات أخرى إلى قائمة غذاء مرض السكري من النمط ٢ قد خفض معدل السكر التراكمي HbA١c بمقدار ٣٠ في المئة.

تخفيض ضغط الدم الشرياني

أكدت الأبحاث على أن تناول الأطعمة الغنية بعنصر البوتاسيوم يخفض ضغط الدم المرتفع ويقي من الإصابة به، وذلك لأن البوتاسيوم يحقق توازنا بين ملح الطعام والماء داخل الخلية، ويعد الشعير من الأغذية الغنية بالبوتاسيوم.

ولما كان الشعير يحتوي على الهوردينين hordenine (وهو مميع للدم) والمالتين maltene (وهو مدر قوي للبول)، فإن ذلك يخفض ضغط الدم، ويمنع حدوث جلطات. ومن المعروف طبيا أن أدوية تخفيض ضغط الدم الحديثة تحتوي على مواد مدرة للبول.

مقاومة الإمساك وتنشيط القولون

تفيد ألياف الشعير غير القابلة للهضم في امتصاص جزء كبير من الماء، فيزداد حجمها وحجم الفضلات الأخرى، وهذا من شأنه ملء القولون بالألياف وتحفيزه على الحركة الدودية، وبالتالي طرد الكتلة البرازية والتخلص منها بسهولة. وفي ضوء هذه الآلية، تم تصنيع ألياف صيدلانية تحت أسماء تجارية مختلفة لتقوم بالدور الذي تقوم به ألياف الشعير، وهكذا تعمل الألياف غير الذوابة في الماء الموجودة في الحبوب الكاملة (غير المقشورة) وفي نخالة الشعير بشكل خاص على تنشيط الحركة الدودية للأمعاء، وهو ما يساعد على التخلص من الفضلات ومقاومة القولون العصبي والآلام المصاحبة له.

فوائد أخرى لنبات الشعير

يفيد مغلي الشعير في معالجة التهابات الأمعاء، وتشنج القولون، ووقف السعال الحاد، ومقاومة الإمساك، وتقوية الأعصاب، وزيادة إفرازات الكبد، وتوسيع الأوعية الدموية، وتخفيف أعراض مرض التيفوئيد، وإطفاء العطش. ويستعمل الهوردينين (المستخرج من الشعير)

حقنا تحت الجلد أو شرابا لعلاج حالات الإسهال والدوسينتاريا والتهاب الأمعاء، وللشعير فوائد طبية عديدة.

ونظرا لتمتع نبات الشعير بقدرة فريدة على العيش والنمو في بيئات طبيعية متباينة وظروف جوية قاسية، فقد اتخذه العلماء نموذجا للعديد من الدراسات والأبحاث، فعند محاولة علماء الوراثة تهجين الشعير المألوف مع أنواع برية قريبة الصلة لإنتاج سلالات جديدة محسنة، وجدوا أن نبات الشعير مناسب لدراسة آلية انتقال الصفات الوراثية، فيكون الشعير بذلك قد أسهم في تطور علم الوراثة وتوضيح مفاهيم وراثية جديدة.

أما علماء البيئة فقد اكتشفوا قدرة نبات الشعير على تقليل حدة تلوث البيئة بالإشعاعات الكونية الضارة مثل الأشعة فوق البنفسجية UV. كما وجدوا أن الشعير والقمح يمتصان مقادير كبيرة من الموجات الكهرومغناطيسية الصادرة عن الأجهزة الكهربائية وخطوط الضغط العالي. وقد ارتأى العلماء ضرورة زرع نبات الشعير في قوارير ووضعها في غرفة التلفاز ومكاتب الكمبيوتر لتخفيف حدة التلوث.

ويرى علماء التغذية الحيوانية أن حبوب الشعير وسيقانه الجافة وجذوره من أفضل الأعلاف الحيوانية لاحتوائها على مقادير كافية من المغذيات وقدرتها على منع إصابة الحيوانات بالعديد من الأمراض، ولا سيما أمراض الجهاز الهضمي.

طرق تناول الشعير

■ مثلما هي الحال مع الخبز المصنوع من دقيق القمح، يمكن صناعة خبز من دقيق الشعير. وللتغلب على عدم مرونة عجينة الشعير، يمكن إضافة محسنات (الحليب، زيت الزيتون)، أو خلط دقيق الشعير مع دقيق القمح بنسبة ٧٥ في المئة دقيق شعير، و٢٥ في المئة دقيق قمح.

■ تجهيز مغلي الشعير: يضاف ٣٥٠ غراما من حب الشعير إلى لترين من الماء ويترك حتى تنضج حبات الشعير، ثم يترك الشعير منقوعا في وعاء الغلي مدة ثلاث ساعات، ثم يصفى في زجاجات ويحفظ في الثلاجة للاستعمال.

■ ومن أجل تسهيل خروج محتويات حبات الشعير من العناصر المعدنية والفيتامينات وزيادة قوة مضادات الأكسدة، فمن المفيد تحميص الشعير حتى يصبح لونه ذهبيا وتفوح منه رائحة الشعير الزكية قبل غليه.

■ يناسب دقيق الشعير (بنسبة ٣٥ في المئة) ودقيق القمح أو السميد (بنسبة ٦٥ في المئة) الكثير من أنواع الحلويات، وبخاصة حلوى الحلبة وحلوى حبة البركة/القزحة.

■ ومن أفضل طرق تناول الشعير هي التلبينة التي أوصى بها رسول الله ﷺ. وتصنع التلبينة بإضافة الماء والحليب إلى مجروش أو دقيق الشعير، وتوضع على نار هادئة وتحرك باستمرار حتى الوصول إلى درجة التجانس التام. ومن الممكن خلط المزيج بالخلاط قبل وضعه على النار لتحقيق هذا الغرض. ومن أجل زيادة قوة التلبينة الغذائية والطبية تضاف ملعقة كبيرة من الكركم المطحون إلى المزيج وقليل من الزبيب والمكسرات مثل جوز الهند أو الجوز المعروف.

ويوجد نوعان من التلبينة: حلوى التلبينة، وتتطلب إضافة السكر إلى الخليط. أما في حالة الرغبة في الحصول على طعام التلبينة فيضاف قليل من الملح والفلفل الأسود للحصول على طعام التلبينة.

■ يضاف دقيق الشعير إلى الشوربات لإكسابها قواما ثخينا ومذاقا طيبا.

تجارب عملية

وصفت التلبينة لمرضى القولون العصبي، الإمساك، ارتفاع كوليسترول الدم، ضعف امتصاص الأمعاء، الوهن، الكآبة، الأرق.. وغيرها. وقد تحسنت تماما حالة هؤلاء جميعا. وعند إضافة الكركم إلى التلبينة ازدادت فوائدها لتشمل التهابات الحلق المتكررة، التهابات الكبد، حب الشباب، ضعف الشعر وتقصفه، استقرار ضربات القلب وانتظامها.

وبعد...

توجد في حياتنا ومن حولنا نعم وآلاء من لدن حكيم لا تعد ولا تحصى، نراها متواضعة زهيدة، لكن عند تأملها بعين الحكمة ستتكشف لنا ما تحتويه من كنوز صحية، ولكننا ندوس عليها ونمضي مهرولين في طريقنا نحو الأطعمة العصرية المصنعة، مع أننا مثقلون بالكوليسترول وسكر الدم. ومن هذه الكنوز التي أغفلها بصرنا الشعير وغيره من الأغذية القديمة، مثل الترمس والشمندر واللفت والخروب والبلوط والهندباء والذرة الصفراء.. وغيرها الكثير. ولا وسيلة لاسترداد قوتنا الجسدية وتألقنا الذهني ومقاومة أمراض سوء التغذية والتلوث إلا بالعودة، ولو جزئيا، إلى النمط الغذائي الإسلامي والتراثي.

إعداد : د. محمود محمد الكبش
الباحث بوحدة البحث العلمي
-إدارة الإفتاء-

●الفتوى بالتلفيق وحكمه.

التلفيق هو: ضم شيء إلى شيء على وجه الجمع بينهما.

وهو في الفتوى: «أن يجمع المفتي بين قولين أو أكثر بالتّخَيُّر من أحكام المذاهب الفقهية، على وجه التقليد لكل مذهب في حكمه؛ فيتولد منها حقيقة مركبة لا يقول بها أحد».

هذا إن كان التلفيق في مسألة واحدة، وهو المقصود هنا.

ولا تقوم صورته إلا إذا توفرت ثلاثة شروط:

الأول: أن يكون التلفيق بين حكمين في واقعة واحدة.

الثاني: أن يكون التلفيق من مقلد، وإلا كان من تركيب المجتهد.

الثالث: أن يجتمع العمل بالقولين معا في واقعة واحدة، أو بأحدهما مع بقاء أثر الثاني.

ومثال التلفيق المختلف فيه: التلفيق الناشئ عن الخلاف في شروط الفعل، أو في مبطلاته؛ مثاله: أن يتوضأ فيمسح على شعرات من رأسه تقليدا للشافعي، ويمس امرأة فلا يتوضأ تقليدا لأبي حنيفة، ثم يصلي بهذا الوضوء.

فهذه الصلاة لا تصح على مذهب أبي حنيفة؛ لعدم مسح ربع الرأس، ولا على مذهب الشافعي؛ لكون الوضوء عنده قد انتقض بلمس المرأة.

ووقوع التلفيق من المقلد قد يكون بقصد أو بغير قصد.

فإن وقع بغير قصد: فلاشك في جوازه؛ للإجماع على أن له أن يعمل برأي من استفتاه، ولا يمتنع أن يستفتي شافعيا في الوضوء، ويستفتي مالكيا في نقض الوضوء، ثم يصلي بوضوء

إكراه الخدم على الدخول في الإسلام

رقم الفتوى (٣١٨٠)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:

في بعض الحالات يتم إجبار الخادمات على الدخول في الإسلام من قبل كفلائهن رغما عن إرادتهن بالتهديد، فيشهرن إسلامهن في اللجنة مكرهات، مما قد يسبب ارتدادهن عن الإسلام، واللجنة تسأل:

١. ما هو الحكم الشرعي في إكراه الكفلاء خادماتهم في الدخول في الإسلام؟

٢. كيف تتصرف اللجنة في مثل هذه الحالات؟

أجابت اللجنة بما يلي:

لا يجوز إكراه الخادمة غير المسلمة على الدخول في الإسلام بغير رضاها لقوله تعالى ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾(البقرة:٢٥٦)، ولو أكره أحد خادمته على الدخول في الإسلام بغير رضاها لم يعتد بإسلامها، وعلى ذلك لا تعد مرتدة لو عادت إلى دينها السابق.

وعلى لجنتكم أن تبين الأمر قبل أن تعرض الإسلام على مثل هذه الخادمة، وتحاول تحبيبها في الإسلام ببيان محاسنه. فإن استجابت فبها، وإلا فإن عليها أن تنصح الكفيل بالتريث مع ترغيبها، وإرشادها إلى محاسن الإسلام؛ بالكلمة، والسلوك الإسلامي، حتى تقتنع بالإسلام، وترغب به طواعية من غير ضغط ولا إحراج. فإذا أبى الكفيل إلا الإكراه، فلا حرج على اللجنة في عدم تلقينها الإسلام، وإشهار إسلامها.

احتفالات لغير المسلمين في المدرسة

رقم الفتوى (٦٢٠١)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:

نطبق في مدرستنا نظام التعليم الأميركي، مع اهتمام مميز باللغة العربية والتربية الإسلامية، ومعظم الطلاب والطالبات من المسلمين، بينما ثلة من المدرسين والإداريين من غير المسلمين، وهم على الأغلب أميركيون وكنديون، يتبعون مختلف الكنائس المنتشرة هناك.

وتنص لوائحنا على احترام الحرية الشخصية والدينية للجميع، وقد طالب بعضهم بحق الاحتفال بمناسباتهم الدينية والوطنية.

لم يعمم فيه مسح الرأس ولا أكثره، وقد مس امرأة أجنبية.

وأما إن كان التلفيق مقصودا: فإما أن يحصل من مجتهد أو مقلد.

فإن حصل التلفيق من مجتهد؛ فيفرق بين أن يرى رجحان القول الجديد المركب الذي أداه إليه اجتهاده؛ إما مطلقا، أو في هذه الصورة التي استفتي فيها، أو أنه لا يرى رجحانه حتى في هذه الصورة.

فإن كان يرى رجحان القول مطلقا، أو في هذه الصورة؛ ففتواه صحيحة على الراجح.

وإن كان لا يرى رجحانه؛ لا في هذه الصورة، ولا مطلقا؛ ففتواه باطلة.

وأما إن حصل التلفيق المقصود من مقلد؛ فلا يصح إلا إذا توفرت الشروط التي ستأتي في المذهب الثالث لاحقا؛ لاحتمال أن يقع في مخالفة نصوص شرعية من حيث لا يعلم؛ ولأن العمل بقول جديد من غير استفتاء: عمل بالهوى والشهوة، وهو ينافي التدين.

وقد اختلف العلماء في حكم التلفيق:

- فمنعه مطلقا أكثر العلماء؛ لأنه يفضي إلى الفساد المترتب على تتبع الرخص.

قال الشيخ السفاريني رحمه الله: «والذي أراه وأقول به معتمدا على ما قرره الأشياخ، والعقل والنقل يساعده ببطلان ذلك كله -أي التلفيق-؛ لأن فيه مفاسد كثيرة، وموبقات غزيرة، وهذا باب لو فتح لأفسد الشريعة الغراء، ولأباح جل المحرمات»

(التحقيق في بطلان التلفيق، ص١١٧).

- وأجازه بعض العلماء؛ لما في منعه من المشقة؛ بشرط عدم تتبع ذلك.

قال مرعي الحنبلي: «والذي أذهب إليه واختاره، القول بجواز التقليد في التلفيق؛ لا بقصد تتبع ذلك؛ لأن من تتبع الرخص فسق، بل من حيث وقع ذلك اتفاقا، خصوصا من العوام الذين لا يسعهم غير ذلك» (عمدة التحقيق؛ للباني، ص١٠٠).

- وأجازه بعضهم بشروط؛ هي:

١- أن لا يخالف الإجماع.

٢- أن لا يكون قصد الملفق تتبع الرخص.

٣- أن لا يترتب على التلفيق نقض حكم الحاكم؛ لأن حكمه يرفع الخلاف درءا للفوضى.

٤- أن لا يستلزم التلفيق الرجوع عما عمل به المقلد تقليدا(التحقيق في بطلان التلفيق، ص١٦٠) وغيره. وهذا القول أرجح الأقوال، والله أعلم.

وسؤالنا: هل يصح تخصيص إحدى الغرف في المدرسة ليؤدي الموظفون والمدرسون من غير المسلمين طقوسهم الدينية وليحتفلوا بمناسباتهم الوطنية فيها؟

. وما هي الضوابط التي ترونها لتحول دون حضور الطلاب المسلمين هذه اللقاءات والاحتفالات، وعدم تحويل هذه المناسبات إلى عمل تبشيري؟

أجابت اللجنة بما يلي:

لا يجوز منع الموظفين والمدرسين من غير المسلمين من ممارسة شعائرهم وطقوسهم الدينية في بيوتهم وأمكنتهم الخاصة بهم.

وعليه: فلا موجب لتخصيص مكان خاص في المدرسة لممارسة هذه العبادات والطقوس الدينية.

الطعن في الإسلام

رقم الفتوى (١٩٥٢)

عرض على «لجنة الفتوى» بدولة الكويت الاستفتاء التالي:

لقد قام أحد الكتاب في الآونة الأخيرة بنشر أربعة مقالات في إحدى الصحف، تعرض فيها للدين الإسلامي بالتجريح الصريح؛ فما حكم الشرع على من كتب مثل هذه المقالات؟

ثم أجابت اللجنة بعدما اطلعت على هذه المقالات، ودونت بعض ما فيها من العبارات:

بأن هذه المقالات فيها طعن في المبدأ المسلم به شرعا؛ وهو: أن الإسلام نسخ ما قبله من الأديان، وختمت به الشرائع، وأنه هو الدين الحق الوحيد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾(آل عمران:١٩)، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾(آل عمران:٨٥)، وما في هذه المقالات من خلاف هذا المبدأ هو من قبيل الزندقة، وهو الكفر المغطى بعبارات يأمن بها الزنديق على نفسه، وهو أشد من الكفر الصريح، ويجب الأخذ على يد هؤلاء، ومن ينشر كلامهم زجرا لهم عن الاجتراء على شرع الله، ولا عذر لهم بالتشبث بمبدأ حرية الرأي؛ فإنها لا تبيح ما كان حراما من الطعن في دين الله.

«العمدة» لابن رشيق القيرواني

إعداد : خالد خلاوي

يعد «العمدة» أحد أهم كتب اللغة والشعر والنقد في التراث العربي الإسلامي، ومن أبرز المراجع التي تناولت صناعة الشعر العربي ودراسته بالنقد والتحليل. يقول ابن رشيق مؤلف الكتاب عن سبب اهتمامه بالشعر: «وجدت الشعر أكبر علوم العرب، وأوفر حظوظ الأدب، وأحرى أن تقبل شهادته وتمتثل إرادته، لقول رسول الله ﷺ: «إن من الشعر لحكما» وروي «لحكمة».

لقد ألف ابن رشيق القيرواني ما يزيد على ثلاثين مؤلفا، بين كتاب ورسالة، لكن الكتاب الذي خلّد اسم الرجل ووضعه في مصاف الخالدين من أعلام العرب، والذي وصل إلينا هو كتابه «العمدة في محاسن الشعر وآدابه»، أو «العمدة في صناعة الشعر ونقده» (١)، وفيما يلي تعريف بالكاتب والكتاب.

التعريف بابن رشيق

هو أبوعلي الحسن بن رشيق المعروف بالقيرواني (٣٩٠ - ٤٦٣هـ/ ١٠٠٠ - ١٠٧١م)، أديب وناقد وشاعر، عاش في القرنين الرابع والخامس الهجريين، ولد بمدينة المسيلة المغربية المعروفة بالمحمدية، وكان والده يعمل في صياغة الذهب، وقد علّم ابنه صنعته، ولكن الابن كان يميل إلى الأدب مفضّلا إياه، فقد بدأ في نظم الشعر في سن مبكرة، ثم غادر مدينته إلى القيروان عام ٤٠٦هـ، وكانت القيروان في ذلك الوقت عاصمة لدولة بني زيري الصنهاجيين، وتعج بالعلماء والأدباء، فدرس ابن رشيق النحو والشعر واللغة والعَروض والأدب والنقد والبلاغة على عدد من نوابغ عصره، من أمثال أبي عبدالله محمد بن جعفر القزاز، وأبي محمد عبدالعزيز بن أبي سهل الخشني الضرير، وأبي إسحق الحصري القيرواني.

ومن كتب ابن رشيق المشهورة أيضا:

. كتاب قُرَاضَة الذهب في نقد أشعار العرب. وقد طبع أكثر من مرة.

. وله ديوان شعر جمعه الدكتور عبدالرحمن ياغي.

. ومن بين كتبه التي لم تصل إلينا:

. أنموذج الزمان في شعراء القيروان

. الشذوذ في اللغة

. ساجور الكلب

. قطع الأنفاس

. سر السرور

أبواب الكتاب عن الشعر

الكتاب في جملته معقود للحديث عن الشعر، ومن ثم كان عنوانه «العمدة في صناعة الشعر ونقده» أو «العمدة في محاسن الشعر وآدابه»، كما في النسخ المتعددة.

يقول ابن رشيق في المقدمة: «مع ما للشعر من عظيم المزية، وشرف الأبية، وعز الأنفة وسلطان القدرة، وجدت الناس مختلفين فيه، ومتخلفين عن كثير منه، يقدمون ويؤخرون، ويقلّون ويكثرون، قد بوبوه أبوابا مبهمة، ولقبوه ألقابا متهمة، وكل واحد منهم قد ضرب في جهة، وانتحل مذهبا هو فيه إمام نفسه، وشاهد دعواه، فجمعت أحسن ما قاله كل واحد منهم في كتابه ليكون «العمدة في محاسن الشعر وآدابه» إن شاء الله، وعولت في أكثره على قريحة نفسي ونتيجة خاطري، خوف التكرار، ورجاء الاختصار، إلا ما تعلق بالخبر وضبط الرواية فإنه لا سبيل إلى تغيير شيء من لفظه ولا معناه؛ ليؤتى بالأمر على وجهه».

ويمكن رد أبواب الكتاب في جملتها إلى ثلاث مجموعات: الأولى، وتتناول الشعر والمجتمع، والثانية، ويتحدث فيها عن الشعر ونقده، والثالثة، أبواب لا تمت إلى الشعر إلا من بعيد، وعلى وجه التأول وأدنى مناسبة.

ويفتتحها بباب يجعل عنوانه «باب في فضل الشعر» يقول فيه: «العرب أفضل الأمم وحكمتها أشرف الحكم، لفضل اللسان على اليد، والبعد عن امتهان الجسد، إذ خروج الحكمة عن الذات بمشاركة الآلات، ولابد للإنسان من أن يكون تولى ذلك بنفسه أو احتاج فيه إلى آلة أو معين من جنسه».

ثم يعقد بعد ذلك بابا يرد فيه على من يكره الشعر، ثم يذكر من أشعار الخلفاء والقضاة والفقهاء ليؤيد القضية، وينتقل الحديث في الكتاب بعد، إلى الجانب النقدي المتصل بمدارسة الشعر من حيث فنيته ومنزلته، ويستغرق الجزء الأكبر من مجهود ابن رشيق، ويستفتحه بباب يذكر فيه القدماء والمحدثين، وأن كل قديم من الشعراء محدث في زمانه بالإضافة إلى من كان قبله، ثم ينقل من آراء النقاد في ذلك إلى أن يقول: «ولم أر في هذا النوع أحسن من فصل أتى به عبدالكريم بن إبراهيم، فإنه قال: قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد، فيحسن في وقت ما لا يحسن في آخر، ويستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره،

ونجد الشعراء الحذاق تقابل كل زمان بما استجيد فيه، وكثر استعماله عند أهله/ بما لا يخرج عن حسن الاستواء وحد الاعتدال، وجودة الصنعة، وربما استعملت في بلد ألفاظا لا تستعمل كثيرا في غيره، كاستعمال أهل البصرة كلام أهل فارس في أشعارهم، ونوادر حكاياتهم.. قال: والذي أختاره أنا: التجويد والتحسن الذي يختاره علماء الناس بالشعر، ويبقى غابره على الدهر، ويبعد عن الوحشي المستكره، ويرتفع عن المولد المنتحل، ويتضمن المثل السائر، والتشبيه المصيب، والاستعارة الحسنة». ثم يتحدث ابن رشيق عن المشاهير من الشعراء، وعن المقلين منهم والمغلبين، ثم يذكر طبقات الشعراء.

وينتقل للحديث عن ماهية الشعر وحده وبنيته، ثم إلى قضية اللفظ والمعنى، وإلى أيهما يرجع الفضل، ويذكر في ذلك آراء العلماء والنقاد واختلافاتهم، ويتحدث عن الطبع والصنعة، وعن المطبوعين من الشعراء والمصنعين، ويذكر أن المطبوع هو الأصل الذي وجد أولا، والمصنوع، وإن وقع عليه هذا الاسم، فليس متكلفا تكلف أشعار المولدين، لكن وقع فيه منه.

نموذج من نقد ابن رشيق:

من أمثلة نقد ابن رشيق للشعر ما جاء في باب سماه: «التصرف ونقد الشعر»، ويريد بالتصرف أن يقول الشاعر في جملة أغراض، بحيث لا يكون في النسيب أبرع منه في الرثاء، ولا في المديح أنفذ منه في الهجاء، ولا في الافتخار أبلغ منه في الاعتذار، ولا في واحد من الأغراض أبعد منه صوتا في غيرها.. فإنه إن كان كذلك حكم له بالتصرف، ويشرح ابن رشيق في هذا الباب خصائص كل غرض من الأغراض الشعرية، فالنسيب حقه أن يكون حلو الألفاظ رسلها، قريب المعاني سهلها، غير كز ولا غامض، وأما المديح يسلك فيه الشاعر طريقة الإيضاح والإشادة بذكر الممدوح مع جزالة الألفاظ ونقاوتها، والافتخار هو المدح نفسه، غير أن الشاعر يخص به نفسه وقومه، وكل ما حسن في المدح حسن في الافتخار، وأما الرثاء فليس بينه وبين المدح إلا أن يخلط بشيء يدل على أن المقصود به ميت، مثل «كان»، وأصعب الرثاء ما تشابكت به العواطف، كرثاء جليلة لزوجها حين قتله أخوها جساس فقالت:

يا ابنة الأقوام إن شئت فلا
تعجلي باللوم حتى تسألي

ومن صعبه أيضا الجمع بين تعزية وتهنئة، ومن أشده صعوبة أن يرثي الشاعر طفلا أو امرأة، ومن أشجاه مرثية ابن الزيات لأم ولده تلك التي يقول فيها:

ألا من رأى الطفل المفارق أمه
بعيد الكرى عيناه تبتدران
رأى كل أم وابنها غير أمه
يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيدا في الفراش تحثه
بلابل قلب دائم الخفقان

أبواب متنوعة:

أما عن الأبواب التي جاءت في الكتاب ولا تتصل بالشعر ولا بصنعته من قريب، منها: باب في أنساب العرب، وآخر في وقائعهم وأيامهم، وبدأه بالحديث عن النبي ﷺ وغزواته، وباب آخر عن ملوك العرب، ثم يعقد بابا يذكر فيه الخيل وشياتها وكرامها، ثم يذكر بابا يتحدث فيه عن صلات الشعراء وجوائزهم، ويختم به الكتاب، ويقول فيه: «إن أصل الجائزة أن يعطى الرجل ما يجيزه ليذهب إلى وجهه، وكان الرجل إذا ورد ماء قال لقيمه: أجزني اي أعطني ماء حتى أذهب لوجهتي، وأجوز عنك؛ فكثر حتى جعلت الجائزة عطية.. قال الراجر:

يا قيم الماء فدتك نفسي
أحسن جوازي وأقل حبسي

مختصر العمدة:

ذلك هو كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده، وتلك موضوعاته وأبوابه، وهذا هو منهج ابن رشيق فيه، وخير من ذلك في التعريف به الرجوع إليه، فإن فيه لأدبا جما، ونقدا يستحق الدراسة وإطالة الوقوف عليه.

وقد اختصره أبوعمر عثمان بن علي بن عمر الصقلي، كما اختصره ونبه على أغلاطه الأعلم الشنتمري المتوفى سنة ٥٤٩هـ، وسمى مختصره هذا: «مختصر العمدة والتنبيه على أغلاطه»، ومثل ذلك ما صنع موفق الدين البغدادي، وهناك نسخة خطية من مختصر الصقلي في مكتبة بلدية الإسكندرية.

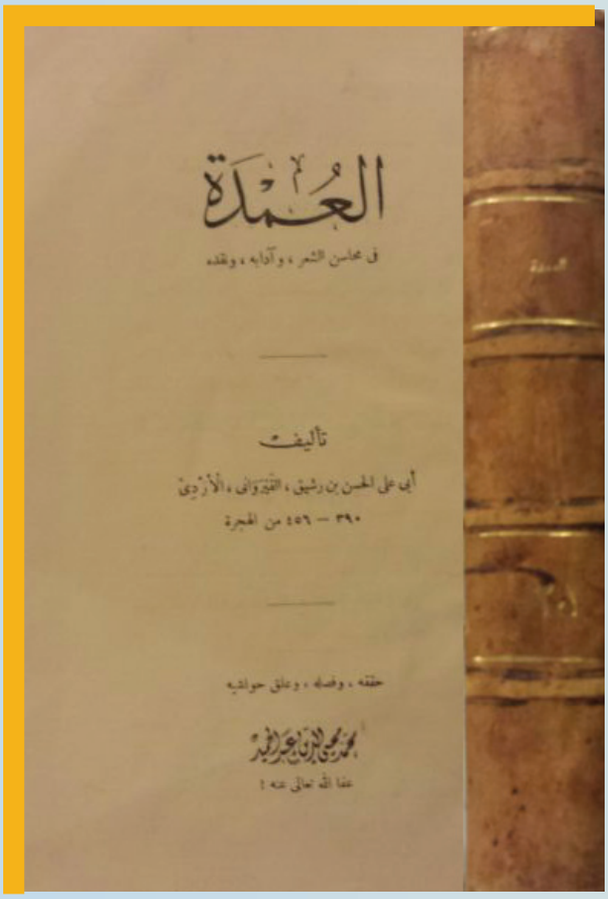

(١) اعتمدنا في التعريف بالكتاب على بحث د.عبدالرءوف مخلوف، العمدة لابن رشيق القيرواني، ضمن كتاب تراث الإنسانية ج ٣- ص ٨٨٩ وما بعدها، بتصرف.

العبادات الموسمية

إن من أهم الاختراقات التي تنخر في التدين الفردي في المجتمع المسلم ما يمكن تسميته موسمية المعاني الدينية، أو التدين الموسمي، الذي يراعي فترة زمنية يتفاعل معها، ووقت آني يتجرد فيه لعبادة أو شعيرة معينة، مما يجعل هذه العبادات تتعلق بشكل كبير بالمواسم والأحداث المختلفة، بعيدا عن المعاني السامية لهذه الأحداث أو الوقائع، فيسير الإنسان في عبادات قد تم تجريدها عن الروح الفاعلة التي يجب أن تسري في المجتمع والأمة، وتقوم بصياغة التصور الفردي للحياة والكون وعلاقته بكل ما حوله، فتجرد هذه العبادات من الرابط الأساسي الذي يجب تحقيقه من تعميق المعاني السامية على أساس تكامل وترابط يقرع النفس والروح، ويعمق فيها المفاهيم الإيمانية المختلفة، والتي لا تخرج عن إطار الواقع أو تبتعد عنه بل هي أحد الدعائم التي ترسم الواقع والمفاهيم المرتبطة به، ويمكننا ملاحظة ذلك من خلال التعلق ببعض المناسبات التي صارت عند بعض الفئات ضرورة لابد منها، وحاجة لابد القيام بها، بل ويقاس مدى التدين الفردي من خلالها بعيدا عن ما ترمز له هذه العبادات و المثل التي تحاول غرسها في البنية المجتمعية، إن هذا الواقع يجعل من أهم الواجبات التي ينبغي الحرص عليها في هذه المرحلة هو العمل على البحث عن الدلالات والعبر في العبادات المختلفة، ومحاولة ترسيخ أهم الأحداث والمواقف التي يتميز بها تاريخنا الديني حتى يتمثل الفرد القيم التي تشير إليها العبادات والشعائر والمناسبات؛ حتى لا تكون العبادات -التي يقوم بها الفرد- جوفاء عن الروح المحركة لها، والأسرار المراد ترسيخها، فتنقلب تصورات الإنسان الدينية إلى مجرد عادات تمر عبر العام يكررها تباعا، وروتين يقوم به ويحاول الاستمرار في تكرار هذه الحركات الظاهرة دون أن ترسم أي تأثير على المستوى الداخلي في الفرد في شعوره ووجدانه.

رياض العمري

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أما بعد: يطيب لي أن أراسلكم لأول مرة لمجلتكم الجميلة الطيبة المبارك فيها إن شاء الله.

وجدت في مجلتكم كل شيء عن الدنيا وعن العلم المفيد للعقل والقلب، وهذا ليس بالمبالغ فيه، أنا أتكلم من صميم عقلي وقلبي، وهي مفيدة للمجتمع المسلم وخاصة لأمة محمد ﷺ.

اسمي نجيب بلمشري، أقطن في مدينة متواضعة وهي خميس مليانة من البلد الحبيب الجزائر، أطلب منكم نشر بعض المواضيع المفيدة التي تخص الأسرة والمجتمع المسلم، كما قال رسول الله ﷺ: «الدال على الخير كفاعله».

● المحرر: جزاكم الله خيراً وسنسعى لزيادة ما ننشره عن الأسرة.

هل من مجيب لنصرة الحبيب؟

لا يخفى على كل مهتم بأمر الأمة المسلمة أنها تمر بمرحلة هي من أحرج المراحل في تاريخها، حيث يتلقفها الأعداء من كل اتجاه وبشتى السبل، فهم يعلنون التحدي في كل واد، وكأنهم أمنوا التصدي لهم، فآخر ما عند المسلمين أن يصيحوا، ويندبوا، ويشجبوا، ويدينوا، وقد تكررت الإساءات لخير البريا محمد ﷺ، الذي رفع الله ذكره في الأرض وفي السموات، ولكن.. ترانا ماذا يمكن أن نفعل؟ هل نكتفي بالصيحات والآهات، وإتلاف المنشآت؟ أم أننا لابد أن نعمل جادين وجاهدين من أجل الانتصار لحق لنبينا، ليس من باب الحمية المؤقتة التي تزول بزوال سواد الليل، وإنما من باب نصرة دين الله تعالى الذي ربط انتصارنا بنصرته، قال الله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾ (محمد: ٧).

كمال عبد المنعم

القراء الأعزاء: نستقبل اقتراحاتكم ومساهماتكم التي من شأنها إشاعة الخير بين ربوع الأمة على البريد الإلكتروني:

info@alwaei.com

aelbarbary@live.com

في المدينة النبوية

مدينة المصطفى تزهو للقيانا
وهاتف الشوق للأمجاد نادانا
بيارق النصر قد أعلت مكانتها
ومسجد المصطفى بالبر حيّانا
ألفيتها درة في صدر مملكتي
علما وحلما وتيسيرا وإحسانا
كان اسمها يثرب في جاهليتها
لكنها (طيبت) نورا وإيمانا
أنعم بساكنها في الناس منقبة
أنعم بأصحابه في الناس أقرانا

عبد العزيز العسكر

التنشئة التربوية الإسلامية للطفل المسلم

● إن التنشئة التربوية الإسلامية هي عملية إدماج الطفل في الإطار الثقافي الإسلامي العام، عن طريق إدخال التراث الإسلامي في تكوينه النفسي والعقلي، من خلال تعليمه نماذج السلوك الملتزم في المجتمع الإسلامي.

● والركيزة الأساسية للتربية الإسلامية هي الشريعة الإسلامية السمحاء، التي ترتكز تعاليمها على ضبط سلوك النشء بالثواب والعقاب، وكفه عن السلوكيات التي لا يقبلها المجتمع؛ حتى يكون الطفل متكيفا مع نفسه ومع من حوله، وما حوله.

● ويمكن هنا تحديد بعض أساليب التنشئة التربوية الإسلامية للطفل المسلم ومنها:

القدوة الصالحة: وهذا الأسلوب له فعاليته في التربية الإسلامية على أسس سليمة، فالطفل يكتسب سلوكياته من سلوكيات من حوله داخل الأسرة، باحثا عن قدوة له يجدها في الأب والأم، وهو ما يعني أهمية القدوة في حياة وتنشئة الطفل السوية.

الموعظة الحسنة: وهو أسلوب من أساليب التنشئة الإسلامية، حيث النصح والإرشاد دون امتهان لكرامة الناشئة، وإنما هو توجيه بالمعروف ونهي عن المنكر دون ضرر ولا ضرار، وذلك مصداقا لقوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ (سورة النحل: ١٢٥).

رفعت محمد بروبي

تهنئة لليوم الوطني الكويتي

بمناسبة اليوم الوطني ويوم التحرير لدولة الكويت الأبية، يسعدني أن أرسل أحلى تهانينا إلى فخامة أمير الكويت وإلى كل الكويتيين، حكومة وشعبا، سائلا المولى عز وجل أن يبقى الكويت بلدا مؤمنا، آمنا مطمئنا، يأتيه رزقه رغدا من كل مكان، فيكون هذا اليوم التاريخي العظيم انطلاقا جديدا لإنجازات أكثر تعود بالنفع الجزيل إلى شعبكم الكريم خاصة وإلى المسلمين والإنسانية عامة.

جمعية التربية الإسلامية والاستثمار الاجتماعي/ السنغال

مختار محمد لوح

العلاج بضوء الفجر

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ (الفجر: ١-٢). ويقول أيضا: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾ (الإسراء: ٧٨). ويقول جل وعلا عن ليلة القدر: ﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾ (القدر: ٥). نلاحظ في هذه الآيات أن الله تعالى يقسم بظاهرة «الفجر»، ويأمر بتلاوة القرآن في وقت الفجر... فما هو سر هذه الظاهرة؟

تتميز فترة بداية طلوع الشمس بأن الجو يكون مشحونا بالأكسجين النقي، وتكون الأشعة الصادرة من الشمس في هذا الوقت خفيفة ومفيدة للعين، لأنها لا تصل مباشرة إلى العين بل نتيجة انعكاسات متعددة. وبما أن الله تعالى أقسم بالفجر، والله لا يقسم إلا بعظيم، فلابد أن تتميز ظاهرة الفجر بأشياء عجيبة وأن يكون لها منافع على حياة البشر، وهذا ما وجده العلماء أخيرا.

منة الله صالح محمود

لأجل هذ انتصروا

قال أبومعاوية بن عمرو عن أبي إسحق: كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يثبت لهم العدو فواق ناقة عند اللقاء، فقال هرقل -وهو على أنطاكية- لما قدمت منهزمة الروم: ويلكم أخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم.. أليسوا بشرا مثلكم؟! قالوا: بلى. قال: فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافا في كل موطن.

قال: فما بالكم تنهزمون؟! فقال شيخ من عظمائهم: من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم، ومن أجل أنا نشرب الخمر، ونزني، ونركب الحرام، وننقض العهد، ونغضب ونظلم ونأمر بالسخط، وننهى عما يرضي الله، ونفسد في الأرض. فقال: أنت صدقتني.

(**البداية والنهاية ١٥/٧**).

وصايا وحكم أغلى من الذهب:

المحبوب لا يضرب، ومنحل الود لا يقرب، والسلطان لا يرادد، والقاضي لا يعاند، والوالي لا يخاصم، والأب لا يحاكم، وصاحب الحمق لا يشاتم، والصاحب لا يعدم، والغائب لا يشتم، والكذاب لا يعاشر، والنمام لا يسارر، وبالجبان لا يستنصر، والخائن لا يدخل، والمجالس لا تنقل، والشاعر لا يعادى، والبخيل لا يهادى، والخير لا يؤخر، والباغي لا ينصر، والرسول لا يقتل، والدعاء لا يترك، وبالله العظيم لا يشرك.

(**الكنز المدفون والفلك المشحون للسيوطي ص١٣**).

ثلاثة أصول

قال الشاطبي رحمه الله تعالى: القوم بنوا نحلتهم على ثلاثة أصول:

١. الاقتداء بالنبي ﷺ.
٢. وأكل الحلال.
٣. وإخلاص النية في جميع الأعمال.

(**الاعتصام ٢١٢/١**).

اللسان أحق بالسجن

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «ما من شيء أحق بطول السجن من اللسان».

(**الزهد والرقائق لابن المبارك ١/ ١٢٩**).

كرم أم المؤمنين

روى هشام بن عروة عن أبيه أن معاوية رضي الله عنه بعث إلى عائشة رضي الله عنها بمائة ألف، فوالله ما غابت عليها الشمس حتى فرقتها، فقالت مولاة لها: لو اشتريت لنا من ذلك بدرهم لحما، فقالت رضي الله عنها: ألا ذكرتني؟!

(**المقتطفات النافعة من ثمار المطالعة ص٦**).

الحارث بن يمجد

بعث عمر بن عبدالعزيز رحمه الله يزيد بن أبي مالك، والحارث بن يمجد الأشعري، يفقهان الناس في البدو، وأجرى عليهما رزقا (راتبا)، فأما يزيد فقبل، وأما الحارث فأبى أن يقبل، فكتب إلى عمر بن عبدالعزيز بذلك. فكتب عمر: إنا لا نعلم بما صنع يزيد بأسا، وأكثر الله فينا مثل الحارث بن يمجد.

(**سيرة عمر بن عبدالعزيز ص ١١٢**).

لا تسأل الله عن فعله

قال الشيخ عفيف الدين يوسف بن البقال المتوفى سنة (٦٦٦هـ) -وكان صالحا ورعا زاهدا-: «كنت بمصر فبلغني ما وقع من القتل الذريع ببغداد في فتنة التتار، فأنكرت في قلبي وقلت: يا رب كيف هذا وفيهم الأطفال ومن لا ذنب له؟ فرأيت في المنام رجلا وفي يده كتاب فأخذته فقرأته فإذا فيه هذه الأبيات، فيها الإنكار علي:

دع الاعتراض فما الأمر لك
ولا الحكم في حركات الفلك
ولا تسأل الله عن فعله
فمن خاض لجة بحر هلك
إليه تصير أمور العباد
دع الاعتراض فما أجهلك

(**البداية والنهاية لابن كثير ٢٩٤/١٣**).

دواء للحفظ

قال علي بن خشرم: رأيت وكيعا وما رأيت بيده كتابا قط، وإنما هو يحفظ، فسألته عن دواء الحفظ، فقال: «ترك المعاصي، ما جربت مثله في الحفظ»

(**تهذيب التهذيب ١/١٢٩**).

أنا أحق بصيانة سري

قال عمرو بن العاص: «إذا أنا أفشيت سري إلى صديقي، فأذاعه فهو في حل، قيل له: وكيف؟ فقال: أنا كنت أحق بصيانته»

(**الكامل للمبرد ٢/٢٦**).

فتنة الدنيا

قال عيسى بن موسى لابن أبي ليلى وابن شبرمة: أسألكما عن الرجل فتخبراني عنه بخبر، فإذا بلوناه فاستعملناه لم نجده كذلك! قالا: لو سألت عنه أيها الأمير غيرنا في ذلك الوقت؛ لأخبرك بمثل ما أخبرناك، ولكنها الدنيا تعرض لهم فيغترون، قال: صدقتما.

(**أخبار القضاة لوكيع البغدادي ٣/١٠٤**)

العقلاء ثلاثة

قال يحيى بن معاذ: «العقلاء ثلاثة: من ترك الدنيا قبل أن تتركه، وعمر قبره قبل أن يدخله، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه».

(**الكنز المدفون والفلك المشحون للسيوطي ص١٢**).

جمع الجمع

من عجيب ما وقع من الجموع: جمع ثمرة على ثمار، ثم جمعوا الثمار على ثمر، ثم جمعوا الثمر على أثمار، فهو جمع جمع الجمع.

ومثله: فيقة، وهو اللبن المجتمع في الضرع، فجمع فيقة فيق، وجمع فيق أفواق، وجمع أفواق أفاويق.

ومثله: شيعة، جمعها شيع، وجمع شيع أشياع.

ومثله: عل وعلل وأعلال.

(**الكنز المدفون والفلك المشحون للسيوطي ص ٣٩**).

ورع وديانة

حكى الحسن بن عرفة أن عبدالله بن المبارك استعار قلما من رجل بالشام وحمله إلى خراسان ناسيا، فلما وجده معه بها، رجع إلى الشام حتى أعطاه لصاحبه.

(**تهذيب التهذيب ٥/٣٨٧**).

من أخبار شريح القاضي

كان شريح إذا أهدي إليه شيء لم يرد الطبق إلا وعليه شيء.

وكان لا يجعل ميزابه إلا في داره.

وكان إذا مات له سنور دفنه في داره ولم يطرحه.

وكان يأخذ على القضاء خمسمئة درهم كل شهر، ويقول: أستوفي منهم وأوفيهم.

ومر شريح على قوم يلعبون يوم عيد فقال: ما بهذا أمر الفارغ.

(**أخبار القضاة ٢/٢١٢-٢٥٣**)

المصارحة والمناصحة

قال ابن قدامة رحمه الله تعالى: «وقد عز في هذا الزمان وجود صديق على هذه الصفة: (المصارحة والمناصحة) لأنه قل في الأصدقاء من يترك المداهنة فيخبر بالعيب.

وقد كان السلف يحبون من ينبههم على عيوبهم، ونحن الآن في الغالب أبغض الناس إلينا من يعرفنا عيوبنا، وهذا دليل على ضعف الإيمان.

(**مختصر منهاج القاصدين ص١٤٧**).

الإسلام والغرب.. استمرارية التفاعل والصراع

محمد فتحي النادي
باحث في الفكر الإسلامي

لقد سمى الله عز وجل سورة في القرآن باسم سورة «الروم»، ولم يسم سورة باسم سورة «فارس» أو «الهند» أو «الصين...».

وقد صدر الله -تعالى- بهذه اللفظة السورة فقال: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾(الروم: ١-٢)، وقد وجدنا أن القرآن الكريم لم يجعل من الضرورة أن يتصدر اسم السورة بدايتها؛ فسورة البقرة لم تذكر فيها قصة البقرة إلا في الربع الثالث، وكذلك الحال في (آل عمران) فلم يأت على ذكرهم إلا بعد نيف وثلاثين آية...إلخ.

ورغم أن الروم هم المغلوبون فإن الله ذكرهم ولم يذكر الغالبين، فأغفل ذكر فارس؛ وقد كان من الممكن أن يذكر طرفي الصراع فيقول: «غلبت فارس الروم»، ولكنه ذكر المغلوب ولم يذكر الغالب، لحكمة أرادها، جل جلاله.

وعندما أراد المشركون أن يتهموا رسول الله ﷺ بأنه يتلقى القرآن عن البشر، وأنه ليس كلام الله، اتهموه بأنه يتلقاه عن حداد رومي نصراني كان يسكن مكة، وقد خلد القرآن تلك الحادثة فقال -تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ۝١٠٣﴾(النحل:١٠٣).

وإذا كان الشرق هو مهد الأديان فإن أوروبا والغرب هما حاضنتا الديانتين اليهودية والنصرانية، فهاتان الرسالتان تمددتا غربا، ولم تكن البيئة الشرقية المليئة بالفلسفات والأديان الوضعية قابلة لتلك الرسالات السماوية؛ فما زالت الهند والصين وغيرهما هم من يحتضنون الديانات الشرقية الوثنية (البوذية.. المجوسية...إلخ).

ولقد جعل الغرب نفسه حاميا للنصرانية في العالم، سامحا لنفسه بالتدخل في شؤون الدول لحماية النصرانية. ويبدو أن حالة التأثير والتأثر بين عالمنا والغرب قديمة قدم التاريخ.. ممتدة -أيضا- بامتداد التاريخ.

ففارس تلك الإمبراطورية العظيمة التي كثرت مناوشاتها مع الروم لم تصمد كثيرا أمام جحافل الجيوش الإسلامية، وزالت من على الوجود، ودخل المسلمون المدائن.. ولم تقم لهذه الإمبراطورية بعد ذلك قائمة، ولعل ذلك كان بسبب دعاء رسول الله ﷺ عليهم حينما بعث برسالة لكسرى المجوسي يدعوه فيها إلى الإسلام، فمزقها، فقال ﷺ: «اللهم مزق ملكه».

والعكس من ذلك كان مع هرقل قيصر الروم النصراني، قال الشافعي: «وحفظنا أن قيصر أكرم كتاب النبي ﷺ، ووضعه في مسك، فقال النبي ﷺ: «ثبت ملكه»...

نعم.. ثبتت إمبراطورية الرومان بعد أن تولت عن عالمنا راغمة؛ حيث أخرجتها جيوش المسلمين، بأن ظلت صامدة في أوروبا قرونا طويلة، رغم انقسامها إلى دولتين: إحداهما عاصمتها بيزنطة (القسطنطينية)، والأخرى عاصمتها (روما)..

والحروب بيننا وبينهم دائرة على أشدها، إن لم تكن بالسيف فبالفكر والعمل الحضاري..

بيد أن النبوءات المحمدية تبشر المسلمين بأنهم ستطأ أقدامهم أرض الفاتيكان (دولة البابا)، وذلك بفتحهم روما، فقد سئل رسول الله ﷺ: أي المدينتين تفتح أولا، يعني: القسطنطينية أو الرومية؟ فقال: «مدينة هرقل أولا»، يعني: القسطنطينية.

هذه العلاقة تحتاج إلى دراسة وتعمق وفهم.

وتبقى الأسئلة مطروحة:

لماذا يهتم بنا الغرب أكثر من بقية أماكن العالم الأخرى؟!

ولماذا -أيضا- ننشغل نحن بالغرب أكثر من انشغالنا بالحضارات الشرقية المجاورة لنا؟!

لماذا الصراع بيننا محتدم أبدا.. ولا يكاد يخفت حتى تشتعل ناره من جديد؟.